

أَحْسَنُ تَفْسِيرٍ لِلْقُرْآنِ بِفَيْضٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

مَجْلَدُ الْمَلَكِ يَزِيدُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء الثاني والخمسون **بَعْدَ الْمِائَةِ**
الآية ١٦٥ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

المرجع الديني للمسلمين
الشيخ صالح آل عطائي
أساذلفة والأصول والتفسير والأخلاق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الخلائق ليروا ويتنعموا بجمته وإحسانه ولطفه ، ومنه تفضله ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً بدين التوحيد ، ورحمة للناس جميعاً ، ووسيلة مباركة لمضاعفة المن والطول منه تعالى على الخلائق ليكون من معاني قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) نوع تحد بتوالي النعم ، ومنها نزول آيات القرآن والدلالات غير المتناهية لها والمعاني القدسية التي تترشح عنها في كل زمان وإلى يوم القيامة ، لنقف عند كل آية من آيات القرآن تلاوة وتفسيراً وتحقيقاً .

ومن إعجاز القرآن أنه في كل مرة نريد أن نرحل عن الآية إلى أختها تتجلى مسائل قدسية ذات بهجة من رسم ومعاني ذات الآية الكريمة ، وقبل أن نسيح في الرياض العلمية لصلتها مع آيات القرآن الأخرى ، هذه الكنوز الإحتياطية التي نعجز عن تقديرها كماً وكيفاً .

وتتفاخر الحكومات وتشرئب أعناق الشعوب إلى أرقام الإحتياطي من المعادن في باطن أراضيها ، ويجتهدون في حساب مدة الإنتفاع منه ، ويقدرّون أجله وأوان نضوبه ، وفي آيات القرآن إحتياط علمي متصل لا ينفد مع كثرة النهل والإغتراف والإستنباط منه ، وإذ تحرص الأمم على الحفاظ على الإحتياطي الذي تملك ، وتقول بلزوم توفير شطر منه للأجيال اللاحقة ، فإن القرآن يدعو الناس جميعاً للأخذ منه وإستخراج كنوزه وذخائره وهذه الدعوة نوع تحد وترغيب ومن من الله عز وجل فإن قلت قد ذكرت الآية السابقة من الله على المؤمنين على نحو الخصوص بقوله تعالى

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ...﴾^(١) والجواب من جهات :

الأولى : إثبات شئ لشيء لا يدل على نفيه عن غيره ، فحينما ذكرت آية البحث من فضل الله على المؤمنين ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنها لا تنفي من الله عز وجل على غيرهم من الناس بهذه البعثة ، وتقدير الآية : لقد من الله على الناس إذ بعث فيهم رسولاً .

الثانية : جاءت آيات القرآن بالإخبار عن من ولطف الله عز وجل بالناس جميعاً ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، منه (عن جبير بن مطعم سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : أنا محمد وأنا أحمد والحاشر ونبي التوبة ونبي الملحمة)^(٢) .

الثالثة : ترشح المن الذي يتفضل به الله عز وجل على المسلمين على غيرهم من الناس ، وهو من بركات الإيمان .

الرابعة : الأصل هو صيرورة الناس مؤمنين وتلقيهم الدعوة الرسالية بالقبول والتصديق والإمثال .

الخامسة : في الآية ترغيب للناس بالإيمان ، وكأنها تقول لهم كونوا مؤمنين وفوزوا بالمن الذي يختص به المؤمنون والذي يفتح لكم باباً من أبواب الجنة .

ومن الإعجاز في الآية السابقة أنها لم تذكر أذى أو ضرر يصيب المسلمين بالتصديق برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما تخبر عن قانون وهو أن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خير محض ، إذ تذكر الآية وظائف النبوة وجهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ابتداءً من دعوة المسلمين وبلوغهم مرتبة الإيمان بفضل الله وبجهود وسعي

(١) سورة آل عمران ١٦٤ .

(٢) الدر المنثور ٤٩٧/٩ .

من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبيانه للمعجزات الباهرات ،
فصحيح أن الآية السابقة إبتدأت بذكر تلاوة وتبليغ النبي محمد صلى الله
عليه وآله وسلم لآيات القرآن على المسلمين ، ولكنها تدل على سبق التلاوة
بنعم منها :

الأولى : تفضل الله عز وجل باختيار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
للنبوة الخاتمة والرسالة الجامعة ، وبيان أحكام الشريعة الناسخة .

الثانية : نزول آيات القرآن على نحو التابع والتوالي ، وظن الذين
كفروا أن آيات القرآن ستقف عند أوان الهجرة أو بعد معركة بدر أو أحد ،
ولكنها توالى حتى أوان مغادرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى
الرفيق الأعلى ، لذا اختلف في أي آية هي آخر آيات القرآن نزولاً .

وذكر أن آخر آيات القرآن نزولاً قوله تعالى ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ فِيهِ
إِلَى اللَّهِ﴾^(١) فأمر جبرئيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يضعها
بين آيتي الربا والدين .

الثالثة : إجهار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم برسالته ، وتحدي
الكافرين ورؤساء الضلالة ، ولم يختصر هذا الإجهار باعلان الرسالة ولكن
النبي صلى الله عليه وآله وسلم أقام صلاة الجماعة في البيت الحرام ومعه
خديجة الكبرى والإمام علي عليه السلام على مرأى ومسمع من رؤساء
الشرك ، وكان رجال قريش يجلسون في البيت الحرام وفي دار الندوة المظلة
عليه والتي بناها نحو سنة ٤٧٥ ميلادية قصي بن كلاب ، وهو جد النبي
محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وهل كان المشركون يتركون النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشأنه
وإقامته الصلاة ، الجواب لا ، إذ كانوا يؤذونه حتى وهو في الصلاة .

ومن الإعجاز في سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم العبادية تحديه للذين كفروا باقامته الصلاة في المسجد الحرام بمراً ومسمع من الملائكة من الكفار ، و(عبد الله بن مسعود قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد الحرام ورفقة من المشركين من قريش ونبي الله صلى الله عليه وسلم يصلي وقد نحر قبل ذلك جزور وقد بقي فرثه وقدره .

فقال أبو جهل ألا رجل يقوم إلى هذا القدر يلقيه على محمد ونبي الله صلى الله عليه وآله وسلم ساجد إذ انبعث أشقاها فقام فألقاها عليه قال عبد الله فهبنا أن نلقيه عنه حتى جاءت فاطمة عليها السلام فألقته عنه فقام فسمعته يقول وهو قائم يصلي اللهم اشد وطأتك على مضر سنين كسنى يوسف عليك بأبي الحكم بن هشام - وهو أبو جهل - وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد ابن عتبة وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف ورجل آخر ثم قال: رأيته من العام المقبل صرعى بالطوى طوى بدر صرعى بالقلب^(١) .

ويدل هذا الخبر على أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يقف بين يدي الله للصلاة ويقرأ القرآن في بدايات البعثة ، وأن تشريع الصلاة مصاحب للأيام الأولى للرسالة ، مما أغاظ المشركين ، وفي التنزيل ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٢) ولم يقف الذين كفروا عند النفرة في القلوب بل قام بعضهم بايذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصلي لينتقم الله عز وجل منهم في أولى معارك الإسلام .

(١) عيون الأثر ١/١٣٦.

(٢) سورة الزمر ٤٥.

وهل هذا الإنتقام من مصاديق قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ ^(١) الجواب نعم ، ليكون من معاني الآية أعلاه الإنذار والوعيد للذين كفروا .

لقد كان إيذاء الذين كفروا للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد الحرام مصيبة فدعى الله عز وجل فأهلك هؤلاء المشركين الذين آذوه ليكون من معاني آية البحث ذم وتوبيخ وإنذار طائفة من المشركين الذين زحفوا وجلبوا الجيوش لمحاربة النبي والمسلمين في معركة أحد ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ ^(٢) . ونزلت الآية أعلاه بخصوص معركة أحد ، فحالما حلت المصيبة بالمسلمين نزلت العقوبة والبطش من عند الله بالذين كفروا ، وفي التنزيل ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ^(٣) .

ومن الإعجاز في الآية القرآنية تعدد المعاني فيها من جهات :
الأولى : تعدد معاني اللفظ والكلمة القرآنية الواحدة .

الثانية : كثرة وجوه المراد من الكلمة القرآنية ، ومع هذا لا يصح إستبدالها بأي فرد من نظائرها وما يرادفها كما في التباين بين السنة والعام والحول والحجة ، وفي نوح ورد قوله تعالى ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خُمْسِينَ عَامًا﴾ ^(٤) ، نعم تستحضر النظائر في علم التفسير والتأويل ، وهو من الإعجاز في قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ^(٥) .

(١) سورة العلق ٩-١٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٢٧ .

(٣) سورة يوسف ٦٤ .

(٤) سورة العنكبوت ١٤ .

(٥) سورة محمد ٢٤ .

الثالثة : تجدد وتوالي منافع الآية القرآنية ، فلا يعلم أثر ونفع الآية القرآنية إلا الله عز وجل ، ومن الإعجاز أن المسلمين والناس ينهلون منها في كل زمان .

الرابعة : كثرة الغايات الحميدة من الآية القرآنية ، ولا تختص هذه الغايات بتمام الآية القرآنية بل كل كلمة وشر من الآية القرآنية له مقاصد سامية ، مما يدل على أن الغايات السامية للآية القرآنية من اللامتناهي في موضوعها ودلالاتها ، ومنه الآية التي إختص بتفسيرها هذا الجزء من هذا السفر المبارك .

وسنبين شطراً من هذا العلم في باب من غايات الآية.
ومن الآيات أن الغايات الحميدة لخاتمة الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عامة وتشمل موضوع الآية وغيره ، ويدعو المسلمين إلى الإجتهد في طاعة الله حتى عند نزول المصيبة ورجاء تداركها ومحو آثارها ، خاصة وأن نصرهم في معركة بدر سابق زماناً للمصيبة في معركة أحد ، مما يدل على أنه قريب منهم ، وقد أراهم الله شأبيب النصر في أول معركة أحد بآية ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾^(١).

لقد نزلت آية البحث ليدرك كل جيل من المسلمين عمق وأثر الخسارة في واقعة أحد وكأنها حاضرة في أيامهم وزمانهم ، وهل آثار جبل أحد وجبل الرماة مرآة حسية لمضامين آية البحث .

الجواب نعم ، فهو من وجوه تفسير وبيان آية البحث ، ومن الآيات أن الذي يأتي إلى الحج أو العمرة ويزور قبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يحرص على زيارة شهداء أحد والوقوف عند جبل الرماة ، فان قلت يبدو جبال الرماة في هذا الزمان أنه غير مرتفع .

والجواب قد تضاعف حجمه ونقص إرتفاعه بسبب الطمي التي تخلفها السيول والأغبرة والأترربة على مرّ مئات السنين على الأرض المجاورة له مما أدى إلى إرتفاعها ، وقد دفن عدد من الشهداء بقربه من جهة الشمال ، ولو أجريت حفريات لتبين إرتفاعه أيام معركة أحد في السنة الثالثة للهجرة النبوية .

وتتصف آية البحث بورود مادة (أصاب) ثلاث مرات فيها وبكلمات مترادفة بقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ نَأْصَابِكُمْ مِصْبِيَّةً قَدْ أَصَبْتُمْ﴾ مع التباين في المعنى والدلالة ، فقد نزلت المصيبة بالمسلمين يوم أحد ، فذكرهم الله عز وجل بما كسبوا ونالوا من معاني النصر العظيم يوم معركة بدر وعلى نحو مضاعف ومتعدد ، وفيه دعوة للمسلمين لإستحضار ضروب وأفراد الكسب وما نالوه يوم معركة بدر وكيف أنه أضعاف خسارتهم يوم أحد ، وهل يختص هذا التذكير بطبقة الصحابة والذين حضروا منهم معركة بدر وأحد .

الجواب لا ، فهو متجدد ومستمر في كل زمان للإتعاظ وبيان المعجزات الحسية والعقلية التي لازمت نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى في ميدان القتال ، والذي هو من أكثر الميادين حاجة للمعجزة بعد ظهور الفارق والتباين بين كثرة عدد وعدة ومهارة جيش المشركين ، وقلة عدد المسلمين وإفتقارهم للسلاح والرواحل والمؤون .

وكان سلاح النبي صلى الله عليه وآله وسلم الدعاء لتدارك هذا الفارق والتباين ، ولتحقيق النصر والغلبة على الذين كفروا أي أن هذا التدارك وحده لا يكفي في جلب النصر ، فلا بد من التوكل على الله عز وجل وسؤاله النصر ، وفي التنزيل ﴿اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾^(١) إذ أن نصر أحد طرفي القتال فرع ملك الله للسماوات والأرض ومشيئته بعمارة الأرض بعبادته .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر (يكثر الابتهاال والتضرع والدعاء، ويقول فيما يدعو به: " اللهم إناك إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض " وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول: " اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك " .

ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه^(١) .
ولقد اجتهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في معركة أحد بالدعاء أيضاً إلا أنه لم يقل (أن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها) لبيان موضوعية معركة بدر في ثبوت عبادة الله في الأرض إلى يوم القيامة ، وهو من مصاديق تسميتها بيوم الفرقان بقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْزُقْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّمَيِّزِ الْجَمْعَانِ﴾^(٢) لبيان قانون من جهات :

الأولى : بلوغ المسلمين بعد معركة بدر مرتبة الثبات ، وصفة الأمة التي تتولى تعاهد عبادة الله في الأرض .

الثانية : عدم إضرار الخسارة في معركة أحد بالمسلمين في دولتهم وشأنهم .

الثالثة : مجئ الخسارة يوم أحد من ذات فعل المسلمين .

الرابعة : عجز المشركين عن إلحاق الهزيمة بالمسلمين على أي حال ، فإذا كانت مصيبة وخسارة المسلمين يوم أحد ، لم تصل إلى مرتبة الهزيمة مع أنها بقصور منهم وترك الرماة مواضعهم على الجبل مع تأكيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم بعدم تركها ، فمن باب الأولوية أنه لا تأتي للمسلمين هزيمة عند تداركهم وحرصهم على التقيد بطاعة الله وأوامر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ميدان المعركة ، لأن هذه الأوامر شعبة

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٤١١/٢ .

(٢) سورة الأنفال ٤١ .

من الوحي ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١).

وهل في آية البحث تخويف للمسلمين ، الجواب إنما الآية تحذير وتنبية ومواساة للمسلمين وتخفيف من وطأة المصيبة ، وبيان لإعجاز القرآن بالدعوة للتدبر في المصيبة وإتخاذها موعظة وعبرة ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) إنتفاع المسلمين الإنتفاع الأمثل من آية البحث من جهات:

الأولى : إخبار آية البحث عن إصابة المسلمين بالخسارة ونزول المصيبة بهم يوم أحد .

الثانية : عدم بلوغ خسارة المسلمين يوم أحد مرتبة الهزيمة .

الثالثة : دعوة آية البحث المسلمين إلى هجران مخالفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعصية أوامره .

الرابعة : بيان آية البحث للأضرار العامة والخاصة التي تترتب على معصية أوامر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾^(٣).

ونزلت الآية أعلاه بخصوص ذات معركة أحد التي هي موضوع آية البحث ، ولم يرد لفظ ﴿عَصَيْتُمْ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه لبيان إتعاض المسلمين عن وقائع معركة أحد ، وتسليمهم بلزوم طاعة أوامر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ميدان القتال .
(عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى الرُّمَّةِ

(١) سورة آل عمران ١٣٢.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة آل عمران ١٥٢.

وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ جَبْرِ يَوْمَ أَحَدٍ ، وَقَالَ : إِنْ رَأَيْتُمْ الْعَدُوَّ وَرَأَيْتُمْ الطَّيْرَ تَخْطِفُنَا فَلَا تَبْرَحُوا ، فَلَمَّا رَأَوْا الْغَنَائِمَ قَالُوا عَلَيْكُمْ الْغَنَائِمُ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَا تَبْرَحُوا قَالَ غَيْرُهُ فَنَزَلَتْ { وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ } يَقُولُ عَصَيْتُمْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ الْغَنَائِمَ وَهَزِيمَةُ الْعَدُوِّ ^(١).

لقد جعل الله عز وجل معارك الإسلام الأولى مدرسة وعبرة لأجيال المسلمين من جهات :

الأولى : معركة بدر ونصر المسلمين فيها .

الثانية : معركة أحد وخسارة المسلمين فيها .

الثالثة : بيان آية البحث لعله وأسباب خسارة المسلمين يوم أحد بينما ذكرت آية بيدر نصر المسلمين في معركة بدر على نحو الإطلاق لأنه هبة ومن عند الله لتكون نسمات ريح بين يدي المصيبة التي حلت بهم يوم أحد ، ولبعث المسلمين على التسليم بالربوبية المطلقة لله عز وجل في حال النصر والخسارة ، قال تعالى ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ ^(٢).

الرابعة : المقارنة بين معركة بدر وأحد في ذات تفاصيل كل منهما ، وفي النتائج والآثار لهما .

الحمد لله الذي جعل نصر المسلمين موعظة لهم ومناسبة لبعث السرور في نفوسهم ، وجعل خسارتهم موعظة ومناسبة لإقتباس الدروس منها ، إذ يدل قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ على لزوم إمتناع المسلمين عن فعل وإتيان ذات الأسباب التي أدت إلى خسارتهم يوم أحد .

ومع ان مضمون آية البحث هو الخطاب للمسلمين ، والإخبار عن وقائع معركة أحد إلا أنها جاءت في وسطها بالأمر إلى النبي محمد صلى الله

(١) مسند أحمد ٤٦/٢٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٣ .

عليه وآله وسلم ﴿قُلْ﴾ ترى لماذا لم تقل الآية (قلتم أن هذا هو من عند أنفسكم) الجواب لإرادة تنزيه مقام النبوة عن إرتكاب خطأ في المعركة أو الإشتراك في تقصير أو تفريط ، فجاء الأمر من الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ لأخراجه عن دائرة اللوم وموضع التقصير .

وهل تدل الآية بهذا المعنى على عصمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ميدان القتال ، الجواب نعم ، إذ يحتاج المؤمنون والمؤمنات هذه العصمة في أمور دينهم ودنياهم لمنع طرو الكدورة على نفوسهم ، قال تعالى ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١﴾^(١) وتتقوم الحياة الدنيا بقضاء الله عز وجل للمؤمنين حاجاتهم .

ومن الإعجاز في آية البحث أن نسبة السبب في وقوع المصيبة إلى ذات المسلمين لا تحرمهم من الثواب العظيم على هذه المصيبة لأنها نزلت بهم وهم يجاهدون ويدافعون عن الإسلام والنبوة ويقصد القربة إلى الله عز وجل ، قال تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ ^(٢).

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار الإمتحان والاختبار ونزول البلاء وتداهم فيها الإنسان المصيبة في بعض أيامه ، وليس من حصر

(١) سورة النمل ٧٠-٧٢.

(٢) سورة آل عمران ١٩٥.

لموضوعها وكيفيةها وأوانها لتكون دعوة للإنسان للإحتراف بالتقوى والرضا بحكم الله عز وجل .

وفي الثناء على الله ورد في التنزيل ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١) لبيان أن الموت أمر وجودي قريب من الناس وزائر قهري قهري لا يعرف أي أحد متى يزوره ليفارق الدنيا إلى الأبد .

وقد إنتقل إلى جوار الله عز وجل سبعون من الصحابة في يوم معركة أحد فكانت مصيبة عظيمة في تاريخ الإسلام ، وشهد لها القرآن بأنها مصيبة لبيان حال وكيفية تلقي المسلمين لها وهدايتهم إلى أحسن السبل في قبولها طاعة الله عز وجل ، إذ تكون حال الإنسان عند المصيبة على أقسام :
الأول : حال الجزع والهلع والسخط .

الثاني : إظهار الصبر طاعة لله ورجاء ثوابه .

الثالث : التحمل للمروءة والتماسك أمام الناس .

الرابع : حال الرضا وإدراك قانون وهو أن المصيبة لم تقع إلا بمشيئة من الله عز وجل .

الخامس : إتخاذ المصيبة مناسبة لشكر الله عز وجل على النعم ، وهو الذي تدعو إليه آية البحث بتذكيرها بنعمة نصر المسلمين في معركة بدر وكيف أنها كانت بآية ومدد من عند الله عز وجل .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : عجبت للمؤمن أن أعطي قال : الحمد لله فشكر ، وإن ابتلي قال : الحمد لله فصبر ، فالمؤمن يؤجر على كل حال ، حتى اللقمة يرفعها إلى فيه^(٢) .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يواظب على الحمد لله والثناء عليه سبحانه في حال الرخاء والشدة ، والسراء والضراء فلا يفارق

(١) سورة الملك ٢ .

(٢) الدر المنثور ١/٣٠٦ .

الحمد حتى عند وقوع المصيبة لإرادة تنمية ملكة قول الحمد لله عند المسلمين و (كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أتاه الأمر يسره قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا أتاه الأمر يكرهه ، قال : الحمد لله على كل حال) ^(١) .

وأعظم المصائب التي تصيب الفرد والجماعة هي التي تكون في الدين وحال الإفتتان بالدنيا وذات اتباع الهوى ، وجاءت آية البحث لتتضمن في دلالتها سلامة المسلمين في دينهم لأنهم تلقوا المصيبة في محاربة المشركين والدفاع عن الإسلام ، وعن (ابن عمر قال قلما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الكلمات لأصحابه : اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ وَمَنْ طَاعَتِكَ مَا تَبْلُغُنَا بِهِ جَنَّاتِكَ وَمَنْ يُقِينُ مَا تَهْوُونَ بِهِ عَلَيْنَا مَصِيبَاتِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا وَاجْعَلْ ثَارَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا وَانصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا) ^(٢) .

ويمكن تسمية آية البحث بآية المصيبة ، ترى هل أخبرت آيات القرآن المسلمين عن وقوع معركة أحد ولزوم إجتنااب المصيبة ، الجواب نعم ، وقد أمر الله عز وجل المسلمين بأخذ الحائطة للدين ، والإستعداد للقاء العدو والتقيد بالأوامر والنواهي التي نزل بها القرآن والتي جرت على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ^(٣) وثبات الرماة في مواضعهم من القوة التي تذكرها الآية أعلاه .

(١) المستدرک ٣٨٧/٤ .

(٢) سنن الترمذی ٤٨٦/١٢ .

(٣) سورة الأنفال ٦٠ .

وأختتمت آية البحث بقانون من الإرادة التكوينية وهو ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفيه دعوة للمسلمين للصبر وحبس النفس عن الجزع والسخط ، والإمتناع عن التفريط والتبذير وليان قانون وهو أن نصر المسلمين في المعارك اللاحقة وسلامتهم من الخسائر فيها أمر يبد الله عز وجل ، وهو الذي يثبت المسلمين على خسارتهم ومصيبتهم بالأمن والسلامة لهم ولذراريهم تحت لواء الإسلام ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : إن العبد إذا سبقت له من الله عز وجل منزلة لم يبلغها بعمله ، ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده ، ثم صبره على ذلك حتى يبلغه منزلته التي سبقت له من الله عز وجل) (١).

لقد كانت واقعة معركة أحد مدرسة الصبر في الإسلام ومناسبة لنجاتهم من مصاعب وويلات أخرى ومناسبة للثواب والأجر ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢).

وهذا الجزء هو الثاني والخمسون بعد المائة من (معالم الإيمان في تاريخ الإسلام) وأشرق بعد رشحات وذخائر من علوم قوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (٣) التي جاء الجزء السابق في تفسيرها وبيان شطر منها ، في هذا السفر المبارك الذي يتضمن أبواباً من العلم تؤسس وتفتح آفاقها للمرة الأولى في تاريخ الإسلام ، وتتجلى فيها علوم مستحدثة تتعلق

(١) المعجم الأوسط للطبراني ٩٦/٣.

(٢) سورة الزمر ١٠.

(٣) سورة آل عمران ١٦٤.

بمضامين الآيات محل البحث ، وتدعو العلماء والمسلمين للغوص في ذخائر آيات القرآن .

وصحيح أن هذا الجزء يتعلق بالمصيبة التي لحقت المسلمين يوم أحد تكون مناسبة كريمة لإستنباط علوم وكنوز من ذات الآية ، وتتجلى مصاديق من إعجازها إتصافها بخصائص منها :

الأولى : التوثيق السماوي لواقعة أحد .

الثانية : مع وقوع معركة أحد في السنة الثالثة للهجرة النبوية فلا تزال أحداثها غضة حية في الوجود الذهني للمسلمين ، وحاضرة في متدياتهم ، وتتلّى في صلاتهم سواء صلاة الجماعة أو صلاة المنفرد .

الثالثة : توجه الخطاب في آية البحث في ظاهره إلى المسلمين أيام التنزيل والمراد المعنى الأعم بتوجهه إلى عموم أجيال المسلمين والمسلمات .

الرابعة : تفضل الله عز وجل عند الإخبار عن المصيبة التي حلت بالمسلمين بذكره لمّنه وطوله وإحسانه عليهم في ذات موضوع المصيبة لقوله تعالى ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلَهَا﴾ .

وهل تدل الآية في مفهومها على البشارة بأن المسلمين سينالون من المشركين ، الجواب نعم وهو الذي نبينه في ثنايا تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

الخامسة : بيان علة ما نزل بالمسلمين من الخسارة ، وهي علة ذاتية ليفيد الجمع بين نصر المسلمين في معركة بدر وخسارتهم في معركة أحد عجز الذين كفروا عن إصابة المسلمين بالمصيبة والضرر ، ليكون من باب الأولوية نجاة المسلمين من الهزيمة ، وهو الذي يدل عليه قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(١).

وجاء القرآن بالجواب القدسي الكريم على أسئلة المسلمين وغيرهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أمور الدين والدنيا ، إذ ورد لفظ ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ في القرآن خمس عشرة مرة ، وتقترن به الجواب من عند الله ، ولعل ما ورد من الأسئلة في القرآن بغير هذا اللفظ أكثر وأعم كما في قوله تعالى ﴿أَيَنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾^(١).

الحمد لله المنان الذي جعل كل آية مروج علم وكنوز تهذيب ، ورياض ومعارف توليدية ، وأخبر عن منه على المسلمين والمسلمات بقوله ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٢) وقد أختص الجزء الخمسون بعد المائة من تفسيرنا للقرآن ببيان شذرات من ذخائر الآية أعلاه ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾^(٣).

حرر في ٢٠١٧/٣/١٦

(١) سورة النساء ٧٨.

(٢) سورة آل عمران ١٦٤.

(٣) سورة الروم ٥٨.

قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ نَأْصَابِكُمْ مِصْبِيَّةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الآية ١٦٥

الإعراب واللغة

أو لما : الهمزة للإستفهام الإنكاري ، وهل تدل على أن الأمر المستفهم منه منكر ولا أصل له بحكم الشرع والعقل ، الجواب لا ، وقد يأتي الإنكار للتوبيخ والتبكيت على فعل وقع في الماضي أو حال قائمة ومزاولة فعل مبعوض .

ويأتي الإنكار في لغة الإحتجاج من عند الله وعلى السنة الأنبياء بلحاظ أنه مدرسة وموعظة ، وفي موسى عليه السلام ورد في التنزيل ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ مُوعِدِي﴾ ^(١) ، ويأتي لدم تكذيب الحقائق وقوانين الإرادة التكوينية ، ومعجزات النبوة .
الواو : للإستئناف والعطف .

لما : ظرف بمعنى حين ، وتتضمن معنى الشرط مبني في محل نصب متعلق بالجواب قلتم .

أصاب : فعل ماض مبني على الفتح ، والتاء تاء التأنيث الساكنة والضمير (كم) مفعول به .

مصبية : فاعل مرفوع وعلامة رفعة الضمة الظاهرة على آخره .

قد أصبتم : قد حرف تحقيق .

أصبتم : فعل ماض وفاعله .

مثليها : مفعول به منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه مثنى ، والهاء ضمير

مضاف إليه .

قلت : فعل ماض وفاعله .

أنى : اسم استفهام مبني في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق
بمحذوف خبر مقدم ، ويكون معناها على وجهين :

الأول : من أين هذا .

الثاني : كيف يكون هذا .

هذا : اسم إشارة مبني في محل رفع مبتدأ مؤخر .

قل : فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت ، والمراد من الخطاب
النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والتقدير : قل يا محمد).

وهل يختص الأمر بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أم يجوز
تقديره ونسبته إلى غيره من المسلمين ، الجواب هو الثاني ، ويصح تقديره
على وجهين :

الأول : قولوا هو من عند أنفسكم .

الثاني : قولوا هو من عند أنفسنا .

هو : ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ .

من عند : جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ .

أنفسكم : أنفس : مضاف إليه مجرور بالكسرة ، وهو مضاف والضمير
(كم) مضاف إليه .

إن الله : إن : حرف مشبه بالفعل .

اسم الجلالة : اسم إن منصوب بالفتحة .

على كل : جار ومجرور متعلق بقدير .

شئ : مضاف إليه مجرور بالكسرة تحت آخره .

قدير : خبر (ان) مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره ،

والمصيبة هي الرزية والفاجعة التي تطرأ عرضاً وبما لا يلائم الطبع والرغبة، ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ مَوْتٌ﴾^(١).

وقال نصر بن سيار (كل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر إلا المصيبة فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر. وكل شيء يرخص إذا رخص ما خلا الأدب فإنه إذا كثر غلا)^(٢).

ولكن ليس من حصر في المقام فالإسلام بدأ بدعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأهل بيته ، قال تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٣)، وبكنه كبر وإتسع ويتسع كل يوم .

وعن عفيف الكندي قال (كنت امرأة تاجراً فقدمت مكة أيام الحج فنزلت على العباس بن عبد المطلب وكان العباس لي صديقاً وكان يختلف إلى اليمن يشتري القطن فيبيعه أيام الموسم ، فبينما أنا والعباس بمنى إذ جاء رجل شاب حين حلقت الشمس في السماء فرمى ببصره إلى السماء ثم استقبل الكعبة فلبث مستقبلها ، حتى جاء غلام فقام عن يمينه فلم يلبث أن جاءت امرأة فقامت خلفهما فركع الشاب وركع الغلام والمرأة فخر الشاب ساجداً فسجداً معه فرفع ، فرفع الغلام والمرأة. فقلت : يا عباس أمر عظيم.

فقال : أمر عظيم. فقلت : ويحك ما هذا؟

فقال : هذا ابن أخي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يزعم أن الله تعالى بعثه رسولا وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه،

(١) سورة المائدة ١٠٦.

(٢) الأعجاز والإيجاز ١٣/١.

(٣) سورة الشعراء ٢١٤.

وهذا الغلام ابن أخي علي بن أبي طالب ، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد زوجة محمد قد تابعاها على دينه ، ما على ظهر الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء.

قال عبد الله الكندي بعدما رسخ الإسلام في قلبه : ليتني كنت رابعاً^(١).
رابعاً^(١).

والدعاء والزهد والصبر يعلو ويسمو ، والمال المزكى ينمو كما وقيمة وإن كثر ، والمن من الله يسمو ويغلو غلاءً وإن كثر، ويتجلى بكثرة وشيوع مفاهيم الإيمان ، وإرتقاء المسلمين في المنزلة والشأن، وهو من مصاديق قوله تعالى قبل آيتين ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٢).

وذكرت آية البحث المثلين ، وهو مثني (مثل) وهو الشبيه والمرادف ، ومن معاني المثلين أنهما لا يكونان فرداً واحداً لدلالة التثنية على التعدد من وجوه:

أولاً : تعيين أحد المثلين .

ثانياً : تعيين كلا من المثلين .

ثالثاً : عدم تعيين أي فرد من المثلين .

رابعاً : تعدد موضوع الشبه سواء كان عقلياً يدرك بالعقل أو حسياً يدرك طرفاه بالحس ، كما في إدراك التشابه في الألوان بحاسة البصر أو التلاوة والصوت بحاسة السمع ، أو الطعم والرائحة بحاسة الذوق والشم ، وقد يكون المشبه من الأمور العقلية، ويكون المشبه به من المحسوس لتقريب المعنى كما في قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٣) وقوله تعالى

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٢٠٩/٦.

(٢) سورة آل عمران ١٦٣.

(٣) سورة البقرة ٢٦١.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعُنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بُيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعُنْكَبُوتِ﴾^(١).

ويكون التشبيه من المجاز وعلوم البلاغة ، كما في تشبيه الخلق الكريم بالعطر أو السنن بالنجوم ، وقد يكون التشبيه على نحو جهتي مع التباين في جهات أخرى في ذات الموضوع ، كما في آية البحث إذ إختص التشبيه بين معركة بدر وأحد بالمصيبة مع التباين في جهة تلقي المصيبة ، ففي معركة بدر نزلت المصيبة بالذين كفروا من وجوه :

أولاً : كثرة قتلى المشركين يوم بدر ، إذ سقط منهم سبعون قتيلاً .
ثانياً : وقوع رواحل ومؤن المشركين غنائم بيد المسلمين ، ومن يكون همّه الفرار يلجأ إلى تخفيف الحمل والثقل الذي معه ، فترك المشركون أزوادهم غنائم ومكاسب للمسلمين إلى جانب الخيل والإبل ، ومنها إبل الذين قتلوا والذين أسروا من المشركين ، وقد جاء المشركون بسبعين من الخيل .

ثالثاً : وقوع سبعين من المشركين أسرى بيد المسلمين يوم بدر ودخول هؤلاء الأسرى بحال ذل إلى المدينة ، ثم جرى فداؤهم بالمال أو تعليم الصبيان ، ومنهم من أطلقه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من دون فداء .

(عن جابر بن عامر قال أسر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر سبعين أسيراً وكان يفادى بهم على قدر أموالهم وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم فإذا حذقوا فهو فداؤه)^(٢).

(١) سورة العنكبوت ٤١.

(٢) سورة البقرة ٢٦١.

وقيل أن عدد العشرة أعلاه لم يثبت ، وكان الفداء متبايناً ويتراوح بين ألف وألفين وثلاثة آلاف وأربعة آلاف درهم .

وبلغت خسائر المشركين من القتلى في معركة بدر: سبعين رجلاً، وهم كما يلي :

أ- من بني عبد شمس بن عبد مناف أربعة عشر رجلاً، وهم:
١- عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، جرحه عبيدة بن الحارث، وذفف عليه الإمام علي بن أبي طالب.

٢- شيبه بن ربيعة بن عبد شمس، قتله حمزة بن عبد المطلب.
٣- الوليد بن عتبة، قتله الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.
٤- حنظلة بن أبي سفيان بن حرب، قتله زيد بن حارثة، مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٥- الحارث بن الحضرمي - حليف لبني عبد شمس - قتله النعمان بن عَصْر.

٦- عامر الحضرمي - حليف لهم أيضاً - قتله عمار بن ياسر.
٧- عمير بن أبي عمير، قتله سالم مولى أبي حذيفة.
٨- وابن عمير هذا، والاثنان موليّان لبني عبد شمس.
٩- عبيدة بن سعيد بن العاص، قتله الزبير بن العوام.
١٠- العاص بن سعيد بن العاص، قتله الإمام علي بن أبي طالب.
١١- عقبة بن أبي معيط، قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، قتله صبراً في مكان يقال له عرق الظبية، وذلك أثناء عودة الجيش الإسلامي إلى المدينة.
١٢- عامر بن عبد الله النمري - حليف لهم - قتله الإمام علي بن أبي طالب.

١٣- وهب بن الحارث من بني أثمار بن بغيض، حليف لهم.

١٤- عامر بن زيد، حليف لهم من اليمن.

ب- ومن بني نوفل بن عبد مناف رجلان، وهما:

- ١- الحارث بن عامر بن نوفل، قتله خبيب بن إساف.
- ٢- طعيمة بن عدي بن نوفل، قتله الإمام علي بن أبي طالب.
- ج- ومن بني أسد بن عبد العزى سبعة نفر:
 - ١- زمعة بن الأسود بن المطلب، اشترك في قتله الإمام علي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب.
 - ٢- أبو البختری بن هشام - واسمه العاص بن هشام بن الحارث - قتله المجذر بن زياد البلوي، وقال ابن هشام: أبو البختری العاص بن هاشم.
 - ٣- الحارث بن زمعة، قتله عمار بن ياسر.
 - ٤- نوفل بن خويلد بن أسد، وهو أخو أم المؤمنين خديجة - وكان من شياطين قريش - قتله الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.
 - ٥- عقيل بن الأسود بن المطلب، قتله حمزة وعلي.
 - ٦- عتبة بن زيد - رجل من اليمن حليف لبني أسد.
 - ٧- مولى لهم اسمه عمير.
- د- من بني عبد الدار بن قصي أربعة نفر:
 - ١- النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة، أسر النضر في المعركة - وكان حامل لواء المشركين - وقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بقتله صبراً، فقام بقتله الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في موضع يقال له (الأثيل) بوادي الصفراء، وكان النضر هذا من شياطين قريش، وأكثرهم بطشاً، ومن أشد الناس إيذاء للمسلمين.
 - ٢- زيد بن مليص، مولى عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، قتله بلال بن رباح، ويقال: قتله المقداد بن عمرو.
 - ٣- نبيه بن زيد بن مليص - حليف لهم - من بني مازن ثم من بني تميم.
 - ٤- عبيد بن سليط - حليف لهم - من قيس.
 - هـ- ومن بني تميم بن مرة، أربعة نفر:

١- مالك بن عبيد الله بن عثمان، وهو أخو طلحة بن عبيد الله، أسر فمات في الأسر، فعد في القتلى.

٢- عمرو بن عبد الله بن جدعان.

٣- عمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم، قتله الإمام علي بن أبي طالب.

٤- عثمان بن مالك بن عبيد الله، قتله صهيب بن سنان.

٥- ومن بني مخزوم -قبيلة خالد بن الوليد- أربعة وعشرون رجلاً وهم:

١- أبو جهل بن هشام، واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ألقبه بضربة بالسيف معاذ بن عمرو بن الجموح فقطع رجله، ثم ضربه معوذ بن عفراء حتى أثبتته، ثم ذفف عليه عبد الله بن مسعود، حين احتز رأسه.

٢- العاص بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قتله عمر بن الخطاب -وهو خاله-.

٣- يزيد بن عبد الله -حليف لهم- من بني تميم، قتله عمار بن ياسر.

٤- أبو مسافع الأشعري -حليف لهم- قتله أبو دجانة الساعدي.

٥- حرملة بن عمرو -حليف لهم- وهو من الأسد قتله خارجة بن زيد، ويقال للإمام علي بن أبي طالب.

٦- مسعود بن أبي أمية بن المغيرة، قتله الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

٧- أبو قيس بن الوليد بن المغيرة -أخو خالد بن الوليد- قتله حمزة بن عبد المطلب، ويقال للإمام علي بن أبي طالب.

٨- أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، قتله علي بن أبي طالب، ويقال عمار بن ياسر.

٩- رفاعه بن أبي رفاعه عائد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قتله سعد بن الربيع.

١٠- المنذر بن أبي رفاعه بن عائذ، قتله معن بن عدي بن الجد بن العجلان.

١١- السائب بن أبي السائب بن عابد، قتله الزبير بن العوام، وفي رواية ابن هشام: أن السائب هذا أسلم وحسن إسلامه.

١٢- الأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قتله حمزة بن عبدالمطلب.

١٣- حاجب بن السائب بن عويمر بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، قتله الإمام علي بن أبي طالب.

١٤- عويمر بن السائب بن عويمر، قتله النعمان بن مالك القوقلي مبارزة.

١٥- عمرو بن سفيان - حليف لهم- من طي، قتله يزيد بن رقيش.

١٦- جابر بن سفيان - حليف لهم- وهو من طي أيضاً، قتله أبو بردة بن نيار.

١٧- عبدالله بن المنذر بن أبي رفاعه، قتله الإمام علي بن أبي طالب.

١٨- حذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة، قتله سعد بن أبي وقاص.

١٩- هشام بن أبي حذيفة بن المغيرة، قتله صهيب بن أبي سنان.

٢٠- زهير بن أبي رفاعه، قتله أبو أسيد، مالك بن ربيعة.

٢١- السائب بن أبي رفاعه، قتله عبدالرحمن بن عوف.

٢٣- عائذ بن السائب بن عويمر، جرحه في المعركة حمزة بن عبدالمطلب، ثم أسر فافتدى ثم مات متأثراً بجراحه.

٢٤- رجل من طي، اسمه عمير -حليف لهم من طي .

٢٥- رجل آخر أيضاً اسمه خيار - حليف لهم من القارة .

ز- ومن بني سهم بن عمرو - قبيلة عمرو بن العاص - سبعة نفر، وهم:

١- منبه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم، قتله أبو اليسر

أخو بني سلمة.

- ٢- ابنه العاص بن منبه بن الحجاج، قتله علي بن أبي طالب.
 - ٣- أخوه نبيه بن الحجاج، قتله حمزة بن عبدالمطلب، وسعد بن أبي وقاص اشتركا في قتله.
 - ٤- أبو العاص بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم، قتله علي بن أبي طالب، ويقال النعمان بن مالك القوقلي .
 - ٥- عاصم بن أبي عوف ضبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم، قتله أبو اليسر، أخو بني سلمة..
 - ٦- الحارث بن منبه بن الحجاج، قتله صهيب بن سنان.
 - ٧- عامر بن عوف بن ضبيرة، أخو عاصم بن ضبيرة، قتله عبدالله ابن سلمة العجلاني، ويقال أبو دجانة.
 - ح- ومن بني عامر بن لؤي رجлан، وهما:
 - ١- معاوية بن عامر- حليف لهم من بني عبدالقيس- قتله الإمام علي بن أبي طالب، ويقال عكاشة بن محصن على ما قاله ابن هشام.
 - ٢- معبد بن وهب - حليف لهم من بني كلب بن عوف- قتله خالد وإياس ابنا البكير، ويقال أبو دجانة على ما قاله ابن هشام.
 - ط- ومن بني جمح بن عمرو بن هصيص أربعة نفر، وهم:
 - ١- أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، قتله رجل من الأنصار من بني مازن، ويقال اشترك في قتله معاذ بن عفراء وخبيب بن إيساف وخارجة بن زيد.
 - ٢- ابنه علي بن أمية بن خلف، قتله عمار بن ياسر.
 - ٣- أوس بن معير بن لوزان بن سعد بن جمح، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، ويقال -قتله الحصين بن الحارث، وعثمان بن مظعون.
 - ٤- سبرة بن مالك - حليف لهم- لا يعرف قاتله.
- رابعاً : مجئ آيات القرآن بدم وتوبيخ الذين كفروا ، وكل آية من القرآن في هذا الخصوص مصيبة أخرى للذين كفروا وتبكيك لهم .

خامساً : تغشي الذل للذين كفروا من كفار قريش ، وعجزهم عن الرد أو منع أسباب الهزيمة مع كثرة عددهم ومؤنهم إذ كان عدد جيش المشركين أكثر من ثلاثة أضعاف عدد جيش المسلمين ، وهذا العجز برهان وحجة ودعوة للناس لدخول الإسلام .

سياق الآيات

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة ، وهي على شعبتين :
الشعبة الأولى : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة السابقة ، وهي على وجوه :

الوجه الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾^(١) وفيه مسائل :

المسألة الأولى : من إعجاز القرآن إتحاد موضوع الآيتين المتجاورتين مع مجيء إحداهما بلغة الضمير للغائب ، والثانية للأمة والطائفة المخاطبة فقد شهدت الآية السابقة للمسلمين والمسلمات بأنهم مؤمنون ثم خاطبتهم آية البحث ببيان علة وموضوع الخسارة في واقعة أحد .

لقد نزلت آية البحث قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة ، وسمت ما نزل بالمسلمين يوم معركة أحد بالمصيبة ، لتبقى تلك المصيبة حاضرة في الوجود الذهني عند المسلمين في أجيالهم المتعاقبة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾^(٢) من

وجوه :

أولاً : شمول كل فرد وجيل من المسلمين بمصاديق المنّ والطول الذي تذكره الآية السابقة .

(١) سورة آل عمران ١٦٤ .

(٢) سورة آل عمران ١٦٤ .

ثانياً : لقد أقدم مشركوا قريش على قتال النبي محمد وأصحابه يوم معركة أحد ثاراً لما لحقهم في معركة بدر وسعياً لمنع الناس من دخول الإسلام ، بعد أن نفذت أحكام وفرائض الإسلام إلى بيوتهم وصاروا يسمعون أبناءهم ذكوراً وأنثاً يقرأون القرآن في بيوت مكة الصغيرة والضيقة آنذاك ، فمن يتلو الآية يسمعه جاره وجارته ، فيتدبروا بمضامينها القدسية طوعاً وقهراً .

لقد زحف كفار مكة بجيش عرمرم مقرون بالغیظ والحنق وحب البطش فسقط سبعون شهيداً من المسلمين ليكون وبالاً على الذين كفروا ، وسبباً للحزن والألم عند أجيال المسلمين في كل زمان ، بلحاظ تجدد ذكرى المصيبة لأنها في سبيل الله ، وجاءت دفاعاً عن النبوة والتنزيل والإسلام .

ثالثاً : إلتعاض اجيال المسلمين من أيام الدعوة الإسلامية الأولى ، وإلتخاذ ما نزل بالمهاجرين والأنصار درساً في الصبر ، ليكون تقدير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا...﴾^(١) أي اصبروا كما صبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه .

رابعاً : لقد من الله على المؤمنين بالسلامة من آثار وأضرار المصيبة التي لحقت بهم يوم معركة أحد .

ويبين اختلاف لغة الخطاب مع إتحاد جهته قانوناً وهو بلوغ المسلمين مرتبة عالية من الفقاهاة وفي صيغ السبر والتقسيم ، وتلقي التنزيل بالتدبر والإلتعاض ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) ، ولما جاءت الآية قبل السابقة بقوله تعالى ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٣) تضمنت هذه الآيات دلالة على أن كل درجات العلو والرفعة .

(١) سورة آل عمران ٢٠٠.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة آل عمران ١٦٣.

المسألة الثانية : من معاني تسمية الإنسان إتصافه بالأنس والألفة بين الناس ، ومنه مواساة بعضهم بعضاً عند المصيبة ، وحتى العدو تراه أحياناً يرأف ويعطف على عدوه عند نزول المصيبة والفاجعة به ، فجاء ذكر مصيبة المسلمين في آية البحث لإرادة الثواب العظيم للمسلمين.

وعن أبي الدرداء عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال (ألا إن الزهادة في الدنيا ليس بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا ألا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يدي الله ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك) ^(١).

ومن معاني هذا الحديث دعوة المسلمين للتدبر في الثواب العظيم الذي فازوا به بسبب الخسارة والإنكسار يوم معركة أحد ، وهذا الثواب على أقسام :

الأول : فوز الشهداء بحياة الخلد عند الله من حين مغادرة الدنيا ، قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ^(٢).

(عن الإمام جعفر الصادق، عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ثلاثة يشفعون إلى الله يوم القيامة فيشفعهم: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء) ^(٣).

ليكون من من الله عز وجل في آية البحث دعوة المسلمين للتعاون والمناجاة بالصبر والتحمل والرضا بما قسم الله ، لبيان مائز بين المسلمين والذين كفروا ، فحينما نزلت المصيبة بالذين كفروا في معركة بدر أصابتهم الكآبة والحزن والحلق ، وحرّموا حتى البكاء على القتلى في مكة ، وسقطت هبة قريش بين القبائل العربية ، لصيرورتهم على وجوه :

(١) المعجم الأوسط للطبراني ٢٦١/١٧.

(٢) سورة آل عمران ١٦٩.

(٣) البحار ١٥/٢.

الأول : الأسير .

الثاني : المنهزم .

الثالث : القتيل .

الرابع : الخائب الذليل .

أما المصيبة التي حلت بالمسلمين في معركة أحد ، فقد من الله عز وجل عليهم بالتوقي منها ، ومن أثرها وضررها من جهات :

الأولى : نزول آية البحث والتي تتضمن التخفيف عن المسلمين من وطأة المصيبة .

الثانية : نزول كل آية من القرآن موعظة ومدرسة في الصبر والمصابرة وحين نزول قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) فان الله عز وجل أكرم المسلمين بأسباب غير متناهية للصبر والمدد للتحلي به ، ومنها تلاوة الآية القرآنية ، فموضوعية الآية القرآنية في تحلي المسلمين بأخلاق الصبر لا يختص بنزولها وموضوعها ، بل يتجدد في كل مرة، ويشمل وجوهاً:

أولاً : تلاوة المسلم للآية القرآنية .

ثانياً : تدبر المسلم بالآية القرآنية .

ثالثاً : المواساة بين المسلمين بالآية القرآنية لتكون هذه المواساة من

مصاديق قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾
♦ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهَدُونَ^(٢).

رابعاً : قراءة الآية القرآنية في الصلاة اليومية .

(١) سورة آل عمران ٢٠٠.

(٢) سورة البقرة ١٥٦-١٥٧.

ليكون من الإعجاز في الشريعة الإسلامية المواسة اليومية للمسلمين فيما يصيبهم من الأذى والضرر والمصائب ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١).

فان قلت لا تنزل مصيبة بالمسلمين في كل يوم ، وهذا صحيح وهو من مصاديق آية السياق ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ...﴾^(٢) فتكون التلاوة مواسة لما جرى على المسلمين في الماضي ومنه واقعة أحد ، ولما قد يحل بهم من المصائب الشخصية أو العامة بالإضافة إلى أن منافع تلاوة الآية القرآنية أعم من أن تختص بمسألة المواسة .

الثالثة : بعث آيات القرآن المسلمين إلى العمل والكسب والتحصيل لتدارك المصائب والمنع من وقوعها .

الرابعة : دلالة آية السياق على قوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ...﴾^(٣) على توالي المن والإحسان من الله عز وجل على المسلمين.

الخامسة : مجئ السنة النبوية القولية والفعلية والتقريبية بما يخفف عن المسلمين المصيبة ، ويحول دون وقوعها .

الثاني : الزهد في الغنائم ، وعدم الحزن عليها عند فواتها كما في معركة أحد ، ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤).

الثالث : بيان قانون وهو أن الزهد شعبة من الإيمان ، والرضا بحكم الله وما قسم للعبد والطائفة والأمة ، ومنه ما لاقاه النبي محمد صلى الله عليه

(١) سورة الأعراف ٢٠٤.

(٢) سورة آل عمران ١٦٤.

(٣) سورة آل عمران ١٦٤.

(٤) سورة البقرة ٢٧٧.

وآله وسلم والمسلمون يوم معركة أحد، ومن الإعجاز في المقام تقييد ما أصابهم بأنه بإذن الله عز وجل.

الرابع : تطلع ورجاء ودعاء المسلمين للنصر بفضل ولطف من عند الله، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث أعلاه : ولكن الزهادة في الدنيا ألا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يدي الله) .

وفيه دعوة للمسلمين لسؤال النصر على الذين كفروا بعد النصر وكلما انتصر المسلمون توجهوا إلى الله بالدعاء والمسألة للفوز بنصر آخر لعدم وقوع النقص في خزائن رحمة الله، وقد ورد الدعاء بلفظ (يدي الله) وفي التنزيل ﴿وَأَنزَلَ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(١).

المسألة الثالثة : من إعجاز نظم القرآن تقدم ذكر من الله على المسلمين على نزول المصيبة بهم، وفيه وجوه :

أولاً : إخبار المسلمين باحتمال نزول المصيبة والبلاء، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ...﴾^(٢).

ثانياً : الثناء على المسلمين بوصفهم بالمؤمنين .

ثالثاً : تهيئة أذهان المسلمين لنزول المصيبة والبلاء ، وفي التنزيل ﴿قُلْ لَنُصِيبَنَّكُم بِاللَّهِ لَنَأْكُلَنَّ﴾^(٣).

رابعاً : بعث المسلمين للتوكل على الله عز وجل ، ورجاء فضله ومنه ولطفه .

خامساً : تذكير المسلمين بقانون وهو أن الله يمنّ عليهم بالسراء والضراء، والشدة والرخاء .

(١) سورة الحديد ٢٩.

(٢) سورة الجمعة ٢.

(٣) سورة التوبة ٥١.

ومن وجوه تقدير الجمع بين الآيتين : لقد منّ الله ويمنّ على المسلمين (وفيه بشارة للمسلمين والمسلمات ، ودعوة لهم للتدبر في مصاديق المنّ الإلهي عليهم وهو على أقسام :

الأول : أفراد المنّ الإلهي السابق .

الثاني : ما يتغشى المسلمين من مصاديق المنّ في الحال والزمن الحاضر .

الثالث : ما يأتي للمسلمين من المنّ والطول من عند الله في قادم الأيام .

وتحتمل هذه المصاديق من جهة الكم والكيف في المنّ ، كثرة وقلة

جهات :

الأولى : كل فرد من هذه المصاديق من اللامتناهي .

الثانية : مجموع الوجوه أعلاه من اللامتناهي .

الثالثة : التعيين والحصص في مصاديق هذا المنّ .

والصحيح هي الأولى أعلاه ، فتأتي المصيبة في ثنایا هذا المنّ ، وتفنّى

فيه ، لتكون جزء منه لذا يمكن تقدير آية البحث : أو لما أصابتكم مصيبة)

على وجوه:

أولاً : أو لما أصابتكم مصيبة بعد توالي المنّ الإلهي عليكم .

ثانياً : أو لما أصابتكم مصيبة ، والمنّ من الله يتغشاهم وينزل عليكم .

ثالثاً : أو لما أصابتكم مصيبة وستأتيكم مصاديق من المنّ .

المسألة الرابعة : تقدير الجمع بين الآيتين : لقد منّ الله على المؤمنين أو لما

أصابتكم مصيبة).

لقد أنعم الله عز وجل على الناس بالخلق والرزق الكريم ، وبين القرآن

قانوناً من الإرادة التكوينية لا تدركه عقول البشر أبداً لولا إخبار الله عنه

وهو خلافة الإنسان في الأرض وإبلاغ الله عز وجل الملائكة بهذه الخلافة

ليكونوا شهوداً على إتصال وتوالي فضل الله على الناس ، إذ ورد في

التنزيل ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١).

فيمَن الله عز وجل على المسلمين من جهات :
الأولى : المسلمون شطر من الناس ومن بني آدم وسكان الأرض ،
 فيأتي المن الإلهي لهم مثلما يأتي لغيرهم من الناس ، وقد ورد بخصوص
 النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ
 إِلَيَّ﴾^(١) فهل يصح أن يقول المؤمنون للناس (إنما نحن بشر مثلكم قد من
 الله علينا إذ بعث فينا رسولا من أنفسنا) .

الجواب نعم ، لإرادة بيان فضل الله عز وجل على المسلمين وعلى أهل
 الأرض بالنبوة والتنزيل ، وإن كان قياساً مع الفارق ، فليس من نبي بعد
 رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
 أما بالنسبة للإيمان فإن الناس جميعاً مأمورون به ، وليس بين الإنسان
 وبين الإلتحاق بالمؤمنين إلا النطق بالشهادتين وإتيان الواجبات العبادية .
الثانية : مجئ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالشريعة المتكاملة
 الجامعة لأحكام الحلال والحرام ، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ
 نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢) .

الثالثة : بلوغ المسلمين مرتبة وراثة الأنبياء في التقوى وأداء الفرائض
 والعبادات ، وحينما نزلت آيات الصيام ابتدأت ببدء الإيمان وأخبرت عن
 كون الصيام عبادة مفروضة على الأنبياء السابقين ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾^(٣) .

ومن معاني الجمع بين الآيتين أن المصيبة والخسارة يوم أحد لا تضر
 المسلمين لأنها جاءت بعد أن من الله عليهم ، ومن خصائص المن الإلهي
 عدم الإرتفاع أو مغادرة الأرض ، ولا ينحصر المن الإلهي بموضوع

(١) سورة الكهف ١١٠ .

(٢) سورة المائدة ٣ .

(٣) سورة البقرة ١٨٣ .

مخصوص بل يتغشى حياة الناس عامة والمسلمين خاصة ، فهو واقية من ترتب الضرر على المصيبة ، فمن القواعد في ماهية الإبتلاء والخسارة حصول الأذى والنقص الحسرة عند أهلها.

ويمتاز أهل الإيمان في كل زمان من حين هبوط آدم إلى الأرض بالتوقي من الفادح من آثار المصيبة ، وقد رزق الله آدم عليه السلام بعد هبوطه إلى الأرض بصيrote أباً وجداً وهي نعمة عظمى ، ولكن أبتلى بقتل أحد ولديه وهو قاييل لأخيه هابيل ، قال تعالى ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ بَنَى ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَكَمْ يَتَقَبَّلُ مِنَ الْآخِرِ قَالَ لَاقْتُلْنَاكَ قَالَ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

وفي اسم هابيل (ثلاث لغات : هابيل وهابل وهابن. وفي اسم قاييل خمس لغات : قاييل وقابين وقابل وقبن وقابن)^(٢).

(قال ابن عباس : لم يمت آدم عليه السلام حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً. ورأى آدم (عليه السلام) فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد)^(٣). لقد أراد الله عز وجل برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إصلاح الناس، وهدايتهم إلى سواء السبيل، ونبذ العادات القبيحة، وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن أبيه الإمام الباقر عليه السلام (أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: قسم الله الأرض نصفين فجعلني في خيرهما، ثم قسم النصف على ثلاثة فكنت في خير ثلث منها، ثم اختار العرب من الناس، ثم اختار قريشا من العرب، ثم اختار بني هاشم من قريش، ثم اختار بني عبد المطلب من بني هاشم، ثم اختارني من بني عبد المطلب)^(٤).

(١) سورة المائدة ٢٧.

(٢) الكشف والبيان ٦٤/٥.

(٣) أنظر الكشف والبيان ٦٤/٥.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٠/١.

المسألة الخامسة : تقدير الجمع بين الآيتين : لقد منَّ الله على المؤمنين أولاً أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها .

لقد ابتدأت آية السياق بذكر منَّ وطول ورحمة الله عز وجل على المسلمين ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وجاءت معركة بدر واضطر المهاجرون والأنصار للقتال والدفاع ، قال تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ ^(١) وكان النصر حليفهم ، وسبق إلى المدينة المدينة المنورة الأسرى والغنائم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقبل دخوله إليها .

لقد هاجر إليها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل معركة بدر بأقل من سنتين في خفية وحذر من كفار قريش الذين سعوا إلى قتله في فراشه ليلة الهجرة ، ثم جعلوا الجعل والجوائز لمن يأتي به أو يقتله في الطريق فانجاه الله عز وجل بآيات تتلقاها أجيال المسلمين بالقبول والتصديق والفخر والعز .

قال تعالى ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ ^(٢) لقد نصر الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في طريق الهجرة بمجنود وآيات عند الله .

وفي قوله تعالى ﴿ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ قيل (فيه وجهان : أحدهما : بالملائكة . والثاني : بالثقة بوعدده واليقين بنصره) ^(٣) .

والمختار هو إرادة الملائكة وآيات جليلة ، فحينما دخلا (ضربت العنكبوت على بابه بعشاش بعضها على بعض ، وطلبته قريش أشد الطلب

(١) سورة البقرة ٢١٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٦٣ .

(٣) النكت والعيون ١٠٧/٢ .

حتى انتهت إلى باب الغار ، فقال بعضهم : إن عليه لعنكوتا قبل ميلاد محمد^(١).

ويحمل الكلام العربي على ظاهره إلا مع القرينة على الخلاف ، ويفسر القرآن بعضه بعضاً ، وقد ورد لفظ الجنود في مواضع عديدة من القرآن تبين إرادة الجنود والأعوان والقتال ، والتسخير لها سواء كانت على نحو الصبغة العقلية أو الحسية ، وفي التنزيل ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٢).

وتدعو الآية أعلاه المسلمين إلى عدم الوقوف عند المصيبة للحزن والأسى ، وتبعث في نفوسهم الأمل بالغلبة والظفر ، وتجعلهم يوقنون بأن النصر حليفهم ، لذا فإن المسلمين لم يخسروا معركة أحد ، ولم تكن نصراً للمشركين ، ويأتي شكر المسلمين لله عز وجل ليعث السكينة في نفوسهم ، وهو شاهد على رضاهم على ما قدر الله عز وجل لهم ، وفي التنزيل ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾^(٣).

ومن إعجاز القرآن أنه مع شدة وكبر خسارة المسلمين يوم أحد فإن آية البحث حينما ذكرتها أعادت للأذهان النصر العظيم للمسلمين يوم بدر ، وهو من أعظم ضروب المواساة وباعث على التفكير في الأمر وإتخاذ الخسارة يوم أحد وسيلة وسبباً للنصر في معارك الإسلام القادمة. وتبين الآية قانوناً وهو أن التذكير بالوقائع والتأريخ والتفاخر بالثبات على الإيمان نوع طريق لتحقيق الغايات ، وسبيل لدفع أضرار المعصية والخسارة .

(١) الدر المنثور ٧٤/٥.

(٢) سورة الفتح ٧.

(٣) سورة التوبة ٥١.

المسألة السادسة : تقدير الجمع بين الآيتين : لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً أولماً أصابتكم مصيبة).

لقد تجلت البركات على أهل الأرض من حين ولادة النبي في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول في شعب بني هاشم في مكة عام الفيل ، وذكر أنه ولد في السابع عشر منه ، ويوافق شهر نيسان سنة ٥٧١ ميلادية ، وقيل كانت قابله الشفاء بنت عمرو وهي أم عبد الرحمن بن عوف . ولما ولد وأُطلّ على الأرض أضاء نور ما بين المشرق والمغرب لتبدأ أيام الإيمان والتقوى .

(وأخرج ابو نعيم عن عبد الرحمن بن عوف عن امه الشفاء بنت عمرو بنت عوف قالت لما ولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقع على يدي فاستهل فسمعت قائلاً يقول رحمك الله ورحمك ربك قالت الشفاء فاضاء لي ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت الى بعض قصور الروم قالت ثم ألبسته وأضجعت فلم انشب ان غشيتني ظلمة ورعب وقشعريرة عن يميني فسمعت قائلاً يقول أين ذهبت به قال الى المغرب واسفر ذلك عني ثم عاودني الرعب والظلمة والقشعريرة عن يساري فسمعت قائلاً يقول أين ذهبت به قال الى المشرق قالت فلم يزل الحديث مني على بال حتى ابتعثه الله فكنت في أول الناس إسلاماً) ^(١).

وأرسلت أمة آمنة بنت وهب إلى جده عبد المطلب تبشره بولادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبادر بحمله وإدخاله الكعبة ، وعق عنه وختنه في اليوم السابع ، وأولم الناس ، وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية وزوجها من زيد من حارثة بعد أن أعتقها ، فولدت أسامة بن زيد . وفي تاريخ وأوان موت عبد الله أبي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أقوال :

الأول : مات قبل ولادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : مات عبد الله ، وعمر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم شهران .

الثالث : مات عبد الله أبو النبي ، وعمره أربعة أشهر .

الرابع : مات عبد الله بن عبد المطلب وعمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم سنة ونصف .

الخامس : مات أبو النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعمره أكثر من سنتين .

والمشهور والمختار هو الأول .

وكان عمر عبد الله أبي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حين مات خمساً وعشرين سنة ، وهو الذبيح إذ نذر عبد المطلب أن يذبحه .
أما أم النبي وهي آمنة بنت وهب فقد ماتت وعمره أربع سنوات ، وقيل ست سنوات ، وكانت قد أخذته معها إلى أخواله في المدينة وتسمى آنذاك يثرب ، وحينما عادت به إلى مكة ماتت بالأبواء ، وقبرها فيه إلى الآن ، وتبعد الأبواء عن مكة ٢٠٠ كم ، وعن المدينة ٢٥٠ كم ، وتسمى إحدى غزوات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم غزوة الأبواء ، إذ خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شهر صفر من السنة الثانية للهجرة لغزو قريش وبني ضمرة وهي أولى غزواته ، والتقى مخشي بن عمرو الضمري رئيس بني ضمرة وتم الصلح بينهما ، ولم يقع قتال ، وحينما استرضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند بني سعد أرضعته حليلة بنت ذؤيب السعدية ، وكان عمرها يومئذ ثلاثين سنة .

وفي حديث مرسل عن عمر بن السائب أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان جالساً يوماً فجاءه أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعده عليه ، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ، ثم جاءه أخوه من الرضاعة فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه

وسلم فأجلسه بين يديه^(١)، وبقي عندها خمس سنوات، وكانت ترى وزوجها البركات التي تصاحبه من حين دخولها وإياه المنزل.

ومات جد النبي عبد المطلب وعمره ثمان سنين، وكان عمر عبد المطلب عند وفاته مائة وعشر سنين، فكفله عمه أبو طالب.

وتفضل الله عز وجل وجعل إسماعيل مصاحباً له إلى أن صار عمره اثنتي عشرة سنة لبيان تغشي رحمة الله للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومصاحبة الملائكة حفظاً له، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٢).

ومن وجوه تخفيف مصيبة المسلمين في واقعة أحد، وفقدتهم سبعين شهيداً تسمية آية السياق النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالرسول، فما دام بين ظهرانيهم وخرج إلى المعركة وعاد منها بصفة الرسالة فإن المصائب تهون عليهم والشدائد تصرف بفضل الله عز وجل عنهم.

وقد أدرك تجلي هذا القانون المسلمون والمسلمات وفي أشد الأحوال مما يدل على أنهم على بصيرة من أمرهم، إذ تختلط الأمور على الإنسان عند المصيبة وفي ساعة الشدة، ولكن رشحات قوله تعالى ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(٣) تخفف المصيبة، وتنمي ملكة الصبر والبصيرة عند المسلمين.

(عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ مِنْ بَنِي دِينَارٍ، وَقَدْ أَصِيبَ زَوْجُهَا وَأَخُوهَا وَأَبُوهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِأَحَدٍ فَلَمَّا نَعُوا لَهَا، قَالَتْ فَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٦٩٠/٣.

(٢) سورة يوسف ٦٤.

(٣) سورة آل عمران ١٦٤.

قَالُوا : خَيْرًا يَا أُمُّ فُلَانٍ هُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ كَمَا تُحِبِّينَ قَالَتْ أَرُونِيهِ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ قَالَ فَأَشِيرَ لَهَا إِلَيْهِ حَتَّى إِذَا رَأَتْهُ قَالَتْ كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ تُرِيدُ صَغِيرَةً قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : الْجَلَلُ يَكُونُ مِنَ الْقَلِيلِ وَمِنَ الْكَثِيرِ وَهُوَ هَاهُنَا مِنَ الْقَلِيلِ قَالَ أَمْرُ الْقَيْسِ فِي الْجَلَلِ الْقَلِيلِ لَقَتْلُ بَنِي أَسَدٍ رَبَّهُمْ ... أَلَا كُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ جَلَلٌ ^(١).

المسألة السابعة : تقدير الجمع بين الآيتين : لقد منَّ الله على المؤمنين

اولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا (وفيه وجوه :

الأول : تضمنت آية السياق بيان النعم العظيمة التي تفضل الله عز

وجل بها على المسلمين ببعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيتبادر

إلى الذهن بداية عهد جديد على المسلمين خال من المصائب والمحن.

وجاءت معركة بدر مصداقاً لهذا التبادر وشاهداً عليه فكما صاحبت

المعجزة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حين ولادته فانها تجلت في

ميدان معركة بدر في السنة الثانية من الهجرة ، ونزل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ

اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ ^(٢) لتأكيد هذه البركة وأنها تتغشى أفراد الزمان الطولية ، لذا

فان المختار من الضمير ﴿كُمُ﴾ الوارد في ﴿نَصَرَكُمُ﴾ يعود للمسلمين

والمسلمات إلى يوم القيامة ، إذ أن واقعة بدر ونتائجها نصر لهم في كل

زمان.

وهل يمكن إحتساب نزول الملائكة يوم بدر أنه لأجيال المسلمين

والمسلمات والوارد بقوله تعالى ﴿إِذِ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمُ

بِأَفْئِدَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ^(٣).

(١) الروض الأنف ٢٨٥/٣.

(٢) سورة آل عمران ١٣٢.

(٣) سورة الأنفال ٩.

وورد لفظ فاستجاب في القرآن ثلاث مرات إحداها الآية أعلاه ، كما ورد في نعت النبي يوسف عليه السلام ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُمْ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١) ، وورد بعموم أهل التوحيد وثوابهم يوم القيامة ، قال تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ...﴾^(٢).

(عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : العار والتخزية يبلغ من ابن آدم يوم القيامة في المقام بين يدي الله ما يتمنى العبد أن يؤمر به إلى النار)^(٣).

ثم جاءت معركة أحد لتبين وجهاً من وجوه الإبتلاء الذي أصاب المسلمين وهول الخسارة الكبيرة في معركة أحد فتساءل المسلمون عن السبب فجاءت آية البحث بالجواب بأنه من عند المسلمين أنفسهم لبيان قانون وهو أن الله عز وجل أكرم المؤمنين ، وجعلهم في مأمن من نزول السخط والعقاب منه ، فقد أخبرت الآية قبل السابقة بما يدل عليه التباين والتضاد بينهم وبين الذين كفروا الذين يحل بساحتهم البلاء والعذاب من عند الله عز وجل .

الثاني : لما أخبرت الآية السابقة عن من الله عز وجل على المؤمنين جاءت هذه الآية بذكر مصيبة أصابتهم ، وخسارة حلت بساحتهم ، فهل يلحق بالمن الإلهي ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أم أنه خارج المن الإلهي ، الجواب إنه في طول المن من عند الله من جهات :

الأولى : نزول الخسارة بالمسلمين كمؤمنين لقوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) وتقدير آية البحث : أولما أصابتكم أيها المؤمنون مصيبة) . وفيه وجوه :

(١) سورة يوسف ٣٤.

(٢) سورة آل عمران ١٩٥.

(٣) الدر المنثور ١٩/٣.

أولاً : حسن المواساة من عند الله .

ثانياً : دعوة المسلمين والمسلمات إلى الصبر ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) ليكون من معاني الجمع بين آية البحث وآية السياق تفسير الآية أعلاه والدعوة للإمتثال لمضامينها القدسية .

ثالثاً :حث المسلمين على إتخاذ المصيبة يوم أحد موعظة وعبرة .

رابعاً : تأكيد نزول المنّ الإلهي على المسلمين حتى في حال الخسارة وأوان المعركة ، ولابد من تأليف مجلد خاص موضوعه هو المنّ الإلهي على المسلمين يوم معركة أحد ، وتأتي مقدمة له في قانون (منّ الله في معركة أحد).

الثانية : في خسارة المسلمين موعظة لهم في ذات المعركة ، والمعارك اللاحقة ، وقد اقتبسوا الدروس والمواعظ من تلك المعركة فتحلوا بالصبر والمناجاة بالدفاع في معركة الخندق مع طول ليالي وأيام الحصار ، إذ كانت أكثر من عشرين ليلة لتحضر كدرس وموعظة في معركة حنين بحلة أكثر بهاء بعودتهم إلى ميدان المعركة حالما ناداهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرُوتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢) .

الثالثة : البشارة بالثواب العظيم للمسلمين على خسارتهم في معركة أحد لأنهم تلقوها كمؤمنين وبسبب بغض وعداوة الذين كفروا لهم ، وتقدير الآية : أو لما أصابتكم مصيبة كمؤمنين .

(١) سورة آل عمران ١٦٤ .

(٢) سورة آل عمران ٢٠٠ .

(٣) سورة التوبة ٢٥-٢٦ .

الرابعة : دعوة المسلمين للدعاء والمسألة للسلامة من تكرار المصيبة العامة والخسارة في ميدان المعركة ، وهو من الإعجاز في ذكر آية البحث على المصيبة بصيغة المفرد .

المسألة الثامنة : تقدير الجمع بين الآيتين : يتلو عليهم آياته ، ومنها أولاً أصابتكم مصيبة (وفيه وجوه :

الأول : لقد ذكرت آية السياق الآيات بصيغة جمع المؤنث السالم ، لإرادة آيات القرآن وعددها ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية ، لبيان قانون وهو أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم تلى كل آية من القرآن على جماعة وطائفة من المسلمين لورود الآية بصيغة الجمع في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ .

وتدل صيغة المضارع في ﴿يَتْلُوا﴾ على إرادة تجدد تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم القرآن على المسلمين بتوالي نزول آياته كما يستفاد منه معاني إستدامة التلاوة في الزمن الماضي والحاضر والمستقبل فيكون فعلاً مستمراً بلحاظ أفراد الزمان.

ومن معاني الجمع بين الآيتين إتصال من الله عز وجل على المسلمين ، فلم يتركهم الله عز وجل وشأنهم بعد إيمانهم بل كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويأتي جبرئيل بآيات القرآن فيتلوها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين ، وهي تتضمن البشارة والإنذار ، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١).

الثاني : من الله عز وجل على المسلمين بتلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم آيات القرآن عليهم عند المصيبة والشدة ، فبدل أن يشغل المسلمون بالمصيبة تأتي تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتقلهم إلى التدبر في ذخائر آيات القرآن وإقتباس المواعظ منها.

وهل يمكن القول أنه لا مصيبة مع نزول آيات القرآن ، أم أن آية البحث ذكرت المصيبة على نحو التعيين ، الجواب هو الثاني ، ولكن ليس من أثر وضرر للمصيبة مع نزول آيات القرآن ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(١).

ويكون تقدير الآية أعلاه على وجوه :

الأول : لن يضروكم بالقتال والتعدي إلا أذى.

الثاني : لن يضروكم بعد نزول آيات القرآن إلا أذى.

الثالث : لن يضروكم بعد معركة أحد إلا أذى.

الرابع : لقد من الله عليكم بأن بعث النبي محمداً رسولاً من أنفسكم فلن يضركم الذين كفروا إلا أذى.

الخامس : اجتهدوا في طاعة الله فلن يضروكم إلا أذى.

الثالث : تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عون للمسلمين على النوائب وضياء ينير لهم سبل الرشاد والفلاح ، ومن معاني الجمع بين الآيتين على وجوه :

أولاً : يا أيها الذين آمنوا اتلوا القرآن لصرف المصيبة .

ثانياً : يا أيها الذين آمنوا إذا أصابتكم مصيبة فاتلوا القرآن، (عن عمرو بن مرة عن سلمان ابن خالد - أراه من خزاعة - قال : صليت فاسترحت فكأنهم عابوا ذلك عليه ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : (يا بلال أقم الصلاة أرحنا)^(٢) .

ولكن قوله هذا قياس مع الفارق إذ أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم طلب الراحة باقامة الصلاة وليس الإنتهاء منها والفراغ من أدائها .

ثالثاً : يا أيها الذين آمنوا تعاونوا لدفع المصيبة وعند وقوعها .

رابعاً : يا أيها الذين آمنوا اسألوا الله صرف المصيبة عنكم .

(١) سورة آل عمران ١١١.

(٢) المعجم الكبير ٢٧٦/٦.

خامساً : يا أيها الذين آمنوا أثبتوا في منازل الإيمان عند المصيبة ، وهل هذا الثبات صارف للمصيبة ، الجواب نعم .

سادساً : يا أيها الذين آمنوا أذكروا الله عند المصيبة ذكراً كثيراً ، قال تعالى ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾^(١).

وتبين الآية أعلاه معجزة بخصوص الذكر عند المصيبة إذ يفوز المسلمون بأمور عظيمة وهي:

أولاً : الصلاة من الله عز وجل عليهم وهي ثناء الله ورحمته ، وتحتمل هذه الصلاة بلحاظ أوانها جهات :

الأولى : إرادة أوان المصيبة .

الثانية : الصلاة عند الذكر والإسترجاع .

الثالثة : الصلاة على المؤمن ، وهو في الحياة الدنيا .

الرابعة : إرادة الصلاة والثناء في الحياة الدنيا وعالم البرزخ .

الخامسة : المقصود الصلاة من الله في عالم الآخرة على الذين يذكرون الله ويسترجعون عند المصيبة .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وكلها من مصاديق الآية الكريمة بالإضافة إلى أصالة الإطلاق في فضل الله عز وجل ، وتدل عليه صيغة الجمع في الصلوات لبيان إتصالها وتجددها وإستدامة نفعها .

(جاء رجل إلى أبي أمامة فقال : إني رأيت في منامي أن الملائكة تصلي عليك كلما دخلت ، وكلما خرجت ، وكلما قمت ، وكلما جلست ، قال : وأنتم لو شئتم صلت عليكم الملائكة ، ثم قرأ { يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً .. })^(٢).

(١) سورة البقرة ١٥٥-١٥٧ .

(٢) الدر المنثور ١٧٥/٨ .

ثانياً : لقد جاء قبل آيتين قوله تعالى ﴿هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بَصِيرٌ﴾^(١) وتفضل الله عز وجل بهداية المسلمين إلى مقامات العلو والرفعة بالعمل على طاعته والإتيان لأوامره والتسليم بالإطلاق في قدرته ومشيتته ومنها تلقي المصيبة بالإسترجاع .

وهل يلزم مواظبة المسلم على الذكر كيلا ينسى الإسترجاع إذا داهمته المصيبة، الجواب لا، ويبادر المسلم إلى الإسترجاع من جهات :
الأولى : لقد جعل الله عز وجل بأداء الصلاة خمس مرات في اليوم كفاية من الذكر.

الثانية : حث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين على الذكر والإسترجاع عند المصيبة .

(عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلثمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض)^(٢).

ويدل الحديث أعلاه على أن الدرجات من اللامتناهي في عددها وكيفيتها وعلوها ، ومن الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بيان قانون وهو أن الحاجة إلى الإسترجاع وترشح الثواب العظيم عنه لا تنحصر بالإتيان به في ساعة المصيبة ، بل يستحب الإسترجاع عند ذكر المصيبة ليكون طريقاً لجني الحسنات ، ووسيلة للثبات في مقامات الإيمان ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٦٤.

(٢) الدر المنثور ١/٣١٢.

(٣) سورة الرعد ٢٨.

و(عن الإمام الحسين بن علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما من مسلم يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها ، فيحدث لذلك استرجاعاً إلا حدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب)^(١).

الثالثة : مناجاة المسلمين فيما بينهم بالإسترجاع والصبر عند وقوع المصيبة وذكرها، وجذب عامة المسلمين إلى منازل الصبر والتحلي به، وهذه المناجاة من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢).

ثالثاً : نزول رحمة خاصة على المؤمنين الذين يسترجعون ويذكرون الله عند المصيبة ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿يَخْصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣). ولا ينحصر النفع من هذه الرحمة بالأحياء بل يشمل الأموات أيضاً كما في مصيبة موت الابن أو الأب أو الأم .

رابعاً : الإسترجاع شاهد على التوفيق وبلوغ مراتب الهداية والثبات في منازل التقوى والرشاد .

ومن الإعجاز في المقام تقدم البشارة للصابرين على الندب إلى الإسترجاع ووصف الذين يقولون عند المصيبة (إنا لله وأنا إليه راجعون) بأنهم صابرون على حكم الله راضون به ، معلنون أنهم عبيد لله، وملك له ولا بد من الرجوع إلى الملك الجبار الباري ، والوقوف بين يديه في عالم حساب ليس فيه عمل .

وتحتل البشارة في الآية أعلاه من سورة البقرة وجوهاً :

الأول : إرادة أفراد النعمة الثلاثة التي ذكرتها الآية التالية لها ، وهي السادسة والخمسون بعد المائة وهي :

الأولى : الصلوات المتعددة والمتجددة من عند الله عز وجل .

(١) الدر المنثور ١/ ٢١٢.

(٢) سورة الحجرات ١٠.

(٣) سورة البقرة ١٠٥.

الثانية : مجئ الرحمة من عند الله ومن الناس ، وفيه بيان لقانون وهو التخفيف عن المؤمنين في حسن صلاتهم مع الناس ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(١).

الثالثة : الشهادة للمسلمين بالهداية والإستعداد للحساب والجزاء في عالم الآخرة .

الثاني : تشمل البشارة المسلمين على صبرهم لفضل ومن من عند الله غير وجوه النعمة التي ذكرت أعلاه .

الثالث : إن وصف الصابرين في قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٢) نعمة أخرى على الذين يسترجعون ويذكرون الله عز وجل عند المصائب والشدائد .

الرابع : مجئ نعم أخرى للذين يلجأون إلى ذكر الله عز وجل عند المصيبة غير المذكورة في الآيتين .

ولا تعارض بين هذه الوجوه وكلها من مصاديق آية الإسترجاع، وقوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٣) أعم من أن يختص بحال المصيبة فيشمل الصبر على طاعة الله والرضا بحال البأس والضراء والمرض، والقصور عن تحقيق الرغائب.

ولتكون النسبة من جهة الأجر بين الصابرين والذين يسترجعون بقوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ♦ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ ﴿٤﴾ ﴿هُوَ الْعَمُومُ وَالْخُصُوصُ الْمَطْلُوقُ ، فأجر الصابرين أكثر موضوعاً وحكماً فان قلت إن الذين بدل الصابرين ، الجواب نعم ، إنما تحمل معنى الصفة .

(١) سورة مريم ٩٦.

(٢) سورة البقرة ١٥٥.

(٣) سورة البقرة ١٥٥.

(٤) سورة البقرة ١٥٥-١٥٦.

وهو من أسرار الفصل بين الآيتين ، وتقدير الجمع بين الآيتين : وبشر الصابرين في البأساء والضراء والشدة والرخاء والسعة والضيق الذين إذا أصابتهم مصيبة في أي من هذه الأحوال قالوا أنا لله وإنا إليه راجعون) قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾^(١).

المسألة التاسعة : تقدير الجمع بين آية البحث والآية السابقة لها : لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم).

من مصاديق تزكية وتطهير النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين إمامته للمسلمين في القتال ، وحضوره في الميدان ، حتى إذا ما وقعت المصيبة وألمت بهم الخسارة كانت الجراحات قد غطت وجهه الشريف ورجع من الميدان وعمه حمزة بن عبد المطلب ليس معه.

وتقدير آية البحث : ولما أصابتكم مصيبة والنبي بين ظهرانيكم وهو واقية لكم ودرع حصين ، ولكن المصيبة جاءت من عند أنفسكم بسبب ترككم للمواضع التي أقامكم فيها ، قال تعالى ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٢).

لقد كانت المصيبة التي نزلت بالمسلمين واقعة في يوم مخصوص هو النصف من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة.

فتأتي النعم الإلهية عليها لتزيحها وضرها عن قلوب المسلمين من جهات:

(١) سورة السجدة ١٥.

(٢) سورة آل عمران ١٢١.

الأولى : بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإمامته للمسلمين في معركة أحد، قال تعالى ﴿وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِثْيُونٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾^(١) لبيان أن المصيبة لم تفت من عضد المسلمين، ولم تحول دون بسالتهم في ميدان المعركة .

الثانية : لقد أخبرت آية البحث عن مسألة ، وهي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ذات جماعة المسلمين تربطه معهم أواصر القرابة والنسب والإيمان بقوله تعالى ﴿رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ .

وتجلى هذا القانون بخروج النبي للقتال ، وكان يلبس لامة القتال ويقود الجيش ، وهو من أسرار إنتصار الإسلام وتثبيت أركانه إلى يوم القيامة لتبدأ بعد تلك السنين الصعاب الدعوة إلى الله بالحكمة وإقامة البرهان وفي أيام النبي محمد وقبل مغادرته الدنيا ، لذا توجه الخطاب والأمر من الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومن ورائه أجيال المسلمين بقوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(٢) .

الثالثة : ذكرت آية السياق تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لآيات الله عز وجل على المسلمين، ولو دار الأمر بين تلاوته للآيات في ميدان معركة أحد وأثناء المصيبة وبين عدمها ، فالصحيح هو الأول من وجوه :

الأول : أصالة الإطلاق .

الثاني : لحاظ إتصال فضل الله عز وجل على المسلمين .

الثالث : مجئ الآية بصيغة الفعل المضارع الذي يفيد الإستدامة والتجدد.

(١) سورة آل عمران ١٤٦ .

(٢) سورة النحل ١٢٥ .

الرابع : حاجة المسلمين لتلاوة النبي لآيات القرآن في ميدان المعركة
فينعم الله عز وجل على المسلمين في قضاء هذه الحاجة .

وما دام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتلو على المسلمين آيات القرآن
فأنهم في مأمن من الهزيمة والإنكسار .

الرابعة : تزكية وتطهير النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين
والمسلمات ، وفوزهم بدخول الإسلام وأداء الفرائض الذي هو باب للعفو
وغفران الذنوب ، قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ
فِي رَحْمَتِهِ﴾^(١).

الخامسة : قيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتعليم المسلمين
وإرشادهم إلى أحكام الحلال والحرام ، وإعانتهم للإمتثال لها والأخذ
بأيديهم في سبل الصلاح ، ولما أُنقذ المسلمون أحكام دينهم بفضل الله عز
وجل وأنزل سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي
دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾^(٢) فعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قد قرب أجله
وأنه قام بالتبليغ خير قيام ، ومنه آية البحث وما تحكيه من المصائب التي
نزلت بالمسلمين في ميادين القتال لإصرار وعناد الذين كفروا وإقامتهم على
عبادة الأوثان .

ومن معاني الجمع بين الآيتين أن تلاوة النبي الآيات على المسلمين
وتزكيته لهم وتعليمه إياهم الكتاب والحكمة حرز من صيرورتهم سبباً في
نزول الخسارة والمصيبة بهم ، لأن كلاً من هذه النعم التي جاءت مع النبوة
الخاتمة واقية من إتياع الهوى ومن إرادة الحياة الدنيا والغنائم .

المسألة العاشرة : تقدير الجمع بين الآيتين : أولاً أصابتكم مصيبة وقد
من الله عليكم وفيه وجوه :

(١) سورة الجاثية ٣٠.

(٢) سورة النصر ١-٢.

الأول : نزول رحمة الله عز وجل ساعة الشدة والمحنة ، إذ أن مجئ آية البحث بالبيان لوقائع معركة أحد نصر من الله للمسلمين ، وضياء يهديهم إلى سبل الغلبة والعز والرفعة .

وهل بيان آية البحث من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) ، الجواب نعم ، لما فيها من تعضيد المسلمين ، وتنمية ملكة تحمل الأذى وتلقي المصائب بحسن التوكل على الله .

ومن خصائص الإنسان ومصاديق قوله تعالى ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾^(٢) أنه يكون أشد ضعفاً عند المصيبة والبلاء الشديد ، فجاءت آية البحث لتدفع عن المسلمين الضعف وأسباب الجبن والخور ، قال تعالى ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾^(٣) .

ومن معاني قوله تعالى ﴿اللَّهُ مَعَكُمْ﴾ نزول آية البحث التي تبين علة مصيبة عظمت حلت بالمسلمين ، وتخبر المسلمين عن كون الله قادراً على نصرهم .
الثاني : دعوة المسلمين لاستحضار قدرة الله المطلقة في ساعة الشدة والخسارة ، وفيه بعث للسكينة في نفوسهم فلا شئ في المصيبة في سبيل الله إلا الأجر والثواب ، وتزول آثار المصيبة بعد مدة مديدة من وقوعها ، أما الثواب فهو باق إلى يوم القيامة .

ومن خصائص هذا الثواب أنه ينمو ويزداد مع تقادم الأيام ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٤) .

(١) سورة المنافقون ٨ .

(٢) سورة النساء ٢٨ .

(٣) سورة محمد ٣٥ .

(٤) سورة البقرة ٢٤٥ .

لقد جاءت خسارة المسلمين في معركة أحد بعد نصرهم العظيم في معركة بدر لينتبه المسلمون إلى قانون قدرة الله عز وجل على كل شئ وأنه سبحانه هو الذي ينصرهم في قادم الأيام كما نصرهم في معركة بدر .

ومن مصاديق قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) أن دفع المصيبة والبلاء عن الناس لا يقدر عليه إلا الله عز وجل ، وهو الذي ينعم على المسلمين بهذا الدفع ، ومن مصاديقه نزول آية البحث وإخبارها عن قانون قدرة الله المطلقة .

الثالث : من معاني ودلالات الجمع بين الآيتين أن الله قادر على صرف ما أصاب المسلمين يوم معركة أحد من الخسائر والجراحات التي أمت بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه ، وفيه مسائل :
الأولى : تنمية ملكة الدعاء عند المسلمين .

الثانية : أخذ المسلمين الحيلة والحذر المقرون بحسن التوكل على الله وتفويض الأمور إليه .

الثالثة : رجاء إبتلاء الذين كفروا بأنفسهم وجعلهم عاجزين عن الهجوم على المسلمين ، وهل يمكن القول بأن المراد من قوله تعالى ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ إرادة المعنى الأعم ، الجواب نعم ، ليشمل أموراً :
أولاً : ترك الرماة مواضعهم يوم معركة أحد .

ثانياً : مقدمات معركة أحد .

ثالثاً : الرضا بقبول الفدية عن أسرى معركة بدر .

ولو إحتجزهم المسلمون ولم يتم تسليمهم إلى قريش فماذا تكون النتيجة ، هل يقاتل المشركون حتى أخذهم وفكهم من الأسر أم أنهم ينشغلون بالتفاوض وعرض الأموال والقبول بشروط المسلمين بالكف عن الهجوم على المدينة مقابل إعادتهم لقريش .

الظاهر أنه الأول، فقد كفار قريش ومن معهم في حال حنق وغيظ وهناك من المنافقين من يقوم بتحريضهم وإنشاد الشعر الذي يندبهم لأخذ الثأر، لتكون مسألة أسرى بدر معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه :

الأول : كثرة عدد الأسرى الذين وقعوا في أيدي المسلمين إذ بلغ عددهم سبعين أسيراً، ومن النادر أن يكون جيش يتألف من ثلاثمائة ونيف يأسر سبعين من جيش عدد أفرادهم ألف ، ويحمل أسلحة أرقى وأشد فتكاً، ورواحل أكثر عدداً، ولكنها المعجزة والآية والبرهان من عند الله بصدق رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونصرة الله وملائكته له وفي التنزيل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾^(١).

الثاني : سقوط وجوه من قريش في الأسر ، لهم شأن في مكة وبين القبائل ، وعندما قدم الأسرى وأدخلوا المدينة كانت سودة بن زمعة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند آل عفراء تواسيهم على عوف ومعوذ إبني عفراء من قبل أن يضرب على أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم الحجاب .

(تَقُولُ سَوْدَةُ وَاللَّهِ إِنِّي لَعِنْدَهُمْ إِذْ أَتَيْنَا ، فَقِيلَ هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى ، قَدْ أَتَى بِهِمْ قَالَتْ فَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ وَإِذَا أَبُو يَزِيدَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو فِي نَاحِيَةِ الْحَجَرَةِ مَجْمُوعَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ بِحَبْلِ قَالَتْ فَلَا وَاللَّهِ مَا مَلَكَتْ نَفْسِي حِينَ رَأَيْتُ أَبَا يَزِيدَ كَذَلِكَ أَنْ قُلْتُ : أَيُّ أَبَا يَزِيدَ أُعْطِيتُمْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَّا مَتَمَّ كِرَامًا ، فَوَاللَّهِ مَا أَنْبَهَنِي إِلَّا قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْبَيْتِ يَا سَوْدَةُ أَعْلَى اللَّهِ وَرَسُولُهُ تُحَرِّضِينَ ؟ قَالَتْ .

قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا مَلَكَتْ نَفْسِي حِينَ رَأَيْتَ أَبَا يَزِيدَ مَجْمُوعَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ أَنْ قُلْتُ مَا قُلْتُ^(١) ، لقد وجه لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سؤالاً إنكارياً من غير ذم وتوبيخ مع أنه جاء من المعركة، وحال الحرب والقتال.

الثالث : تولي الذي يؤسر أسيراً شؤونَه والعناية به.

الرابع : دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين لأخذ فداء مناسب، وعدم التفريط في مقداره .

الخامس : إعطاء الفداء كله للذي يقوم بالأسر، فلا يأخذ منه النبي صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً.

السادس : إجراء معاملة الفداء بين ذوي الأسير وصاحبه الذي أسره.

السابع : قيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بفك عدد من الأسرى من غير مقابل.

الثامن : يتولى الأسير الذي ليس عنده مال وهو يقرأ ويكتب تعليم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة في معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالسعي لإرتقاء المسلمين في المعارف والعلوم، وأنه لا يخشى دراسة العلماء للقرآن للقطع بنزوله من عند الله عز وجل، وفي التنزيل ﴿وَكُنتُمْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٢).

وهل يمكن القول بأن كثرة تحقيق العلماء في النصوص غير القرآن تخرج إختلافاً أكثر بينها ، الجواب نعم ، ليكون كل من الإختلاف والكثرة في الآية أعلاه من الكلبي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة في مراتب والزيادة والقوة والضعف ، وقيل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم استرق بعض الأسرى ممن لم يصل سن البلوغ .

(١) الروض الأنف ٩٥/٣.

(٢) سورة النساء ٨٢.

التاسع : إستمرار مسألة فكاك أسرى معركة بدر نحو سنة من تأريخ وقوع المعركة ، وقد وقعت معركة أحد بعد ثلاثة عشر شهراً من معركة بدر ، وكأنه ليس من مدة بين إنتهاء مسألة فكاك الأسرى وبين خروج جيش المشركين من مكة بلحاظ مدة قطعهم المسافة بين مكة والمدينة ، ليكون من الراجح إرادة المشركين إتمام فك الأسرى خشية الإجهاز عليهم أو إشتراط تبادل أسرى إذا وقع جماعة من المسلمين في أيدي المشركين في معركة أحد ، فتفضل الله عز وجل وعصم المسلمين الأسر .

العاشر : دفع كفار قريش أموالاً طائلة عن فكاك الأسرى ، وكان مقدار الفدية متفاوتاً ، فمنهم من دفعوا عند أربعة آلاف درهم فضة مثل أبي عزيز ، واسمه زرارة بن عمير ، وهو أخو مصعب بن عمير الشهيد في معركة أحد ، إذ قامت أمه بدفعها عنه ، فهي صاحبة مال وفير ، ومثل أبي وداعة .

ومنهم من وقع مائة أوقية كالعباس بن عبد المطلب ومنهم من دفع ثمانين أوقية مثل عقيل بن أبي طالب ، ودفعها عنه العباس ، ومنهم من دفعوا عنه أربعين أوقية .

مما أدى إلى إنفاق قريشاً أموالاً طائلة ليصير هذا الإنفاق سبباً في تعطيل شطر من تجارة قريش ، وبرزخاً دون تسخيرهم أموال أخرى لقتال المسلمين .

الحادي عشر : قيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بفكاك عدد من الأسرى من غير فداء مثل :

١- المطلب بن حنطب من بني مخزوم أسره بعض بني الحارث ، فبقي عندهم مدة فخلوا سبيله .

٢- صيفي بن أبي رفاعة من بني مخزوم ، تركه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيد الذين أسروه ، فأخذوا عليه عهداً أن يعث إليهم بفدائه ، فخلوا سبيله ، ولم يف لهم ، عن ابن اسحاق^(١) .

٣- أبو عزة الشاعر ، وهو عمرو بن عبد الله بن عثمان من بني جمح ، وكان فقيراً وذات بنات ، فكلم رسول الله بأن يفكه من الأسر لأنه ذو حاجة ، وعنده عيال ، فأخذ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا يظهر عليه أحداً أبداً وأطلقه من الأسر ، وقال أبو عزة يمدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

مَنْ مَبْلَغَ عَنِّي الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ... بِأَنَّكَ حَقٌّ وَالْمَلِكُ حَمِيدٌ
وَأَنْتَ أَمْرٌ تَدْعُو فِي الْحَقِّ وَالْهَدَى ... عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ الْعَظِيمِ شَهِيدٌ
وَأَنْتَ أَمْرٌ بُوِثَتْ فِيْنَا مَبَاءَةٌ ... لَهَا دَرَجَاتٌ سَهْلَةٌ وَصَعُودٌ
فَإِنَّكَ مِنْ حَارِبَتِهِ لِمَحَارَبٍ ... شَقِيٍّ وَمَنْ سَأَلَمْتَهُ لَسَعِيدٌ
وَلَكِنْ إِذَا ذُكِرْتَ بَدْرًا وَأَهْلُهُ ... تَأَوَّبَ مَا بِي : حَسْرَةً وَقَعُودٌ^(٢) .

الثاني عشر : من الأسرى من فكه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بلا بدل ، مقابل إطلاق سراح أحد المسلمين والذي لم يؤسر في قتال إنما ذهب إلى مكة معتمراً ، إذ فك النبي صلى الله عليه وآله وسلم أسر عمرو بن أبي سفيان بن حرب ، فقد قيل لأبي سفيان : أفد عمراً ابنك . فقال : أجمع علي دمي ومالي ؟ قتلوا حنظلة وأفدي عمراً ، دعوه في أيديهم يسكونه ما بدا لهم .

واتفق أن خرج سعد بن النعمان بن أكال من الأنصار معتمراً وكان شيخاً مسلماً له غنم له بالبقيع .

ولم يظن أنه يجبس في مكة لأنه جاء لأداء مناسك العمرة ، وكان عهد قريش لا يعرضون لأحد جاء حاجاً أو معتمراً إلا بخير .

(١) ابن كثير / السيرة النبوية ٤٧٢/٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٦٥٩/١ .

ولكن أبا سفيان عدا عليه وحبسه بابنه عمرو ، وأم عمرو أخت أبي معيط بن أبي عمرو . وقال أبو سفيان :

(أَرْهَطَ ابْنُ أَكَّالٍ أَجَبِيؤُا دُعَاءَهُ ... تَعَاقَدْتُمْ لَأَ تُسَلِّمُوا السَّيِّدَ الْكَهْلَا
فَإِنْ بَنِي عَمْرٍو لِنَّامَ أَذْلَةً ... لَئِنْ لَمْ يَفْكَوْا عَنْ أَسِيرِهِمُ الْكَبْلَا
فَأَجَابَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ فَقَالَ

لَوْ كَانَ سَعْدٌ يَوْمَ مَكَّةَ مُطْلَقًا ... لَأَكْثَرَ فِيكُمْ قَبْلَ أَنْ يُؤْسَرَ الْقَتْلَا
بِعُضْبِ حُسَّامٍ أَوْ بِصَفْرَاءِ نَبْعَةٍ ... تَحْنُ إِذَا مَا أَنْبَضَتْ تَحْفِزُ النَّبْلَا) ^(١).
ويرى في شعر أبي سفيان التحريف والتعريض والتعريض بغير حق ،
ولم يخاطب في شعره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما خاطب قوم
المحجوز عند قريش بالإضافة إلى أنه لم يصدق عليه أسير فلم يؤخذ في قتال
أو حرب ، إنما جاء شوقاً للبيت الحرام في طاعة لله عز وجل ، لتكون هذه
الحادثة من الأسباب في تنزيه البيت الحرام من الذين كفروا وبطشهم
وسلطانهم .

وأجاب حسان بن ثابت أبا سفيان فقال :

لَوْ كَانَ سَعْدٌ يَوْمَ مَكَّةَ مُطْلَقًا ... لَأَكْثَرَ فِيكُمْ قَبْلَ أَنْ يُؤْسَرَ الْقَتْلَا
بِعُضْبِ حُسَّامٍ أَوْ بِصَفْرَاءِ نَبْعَةٍ ... تَحْنُ إِذَا مَا أَنْبَضَتْ تَحْفِزُ النَّبْلَا) ^(٢).
ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وأخبروه بحجز أبي سفيان لصاحبهم ، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي
سفيان ليفكوه به ، فلم يقل لهم النبي إن هذا أسير ، وصاحبكم معتمر لا
يجوز أسره ، إنما أعطاهم عمرو فبعثوه إلى أبي سفيان ، فخلى سبيل سعد ،
فان قلت لقد كان بدل فكاك الأسير يعطى إلى الذي أسره ، فكيف حال
الذي أسر عمرو بن أبي سفيان ، وهل دفع له رسول الله محمد صلى الله
عليه وآله وسلم بدلاً عنه .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٦٥٠/١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٦٥٠/١ .

الجواب إنما كان الذي أسره هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

(قال ابن هشام: وكان الذي أسره على بن أبي طالب) ^(١).

الثالث عشر: كان في الأسر أبو العاص والذي أسره خراش بن الصمة أحد بني حرام ، عن ابن هشام ، وقال ابن كثير الذي أسره أبو أيوب خالد بن زيد ، ويتصف أبو العاص بكثرة المال والأمانة والسعي في التجارة وأمه هالة بنت خويلد أخت خديجة بنت خويلد (وكانت خديجة هي التي سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يزوجه بابنتها زينب وكان لا يخالفها، وذلك قبل الوحي.

وكان عليه السلام قد زوج ابنته رقية، أو أم كلثوم، من عتبة بن أبي لهب، فلما جاء الوحي قال أبو لهب: اشغلوا محمدا بنفسه.

وأمر ابنه عتبة فطلق ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل الدخول) ^(٢) ثم مشوا إلى أبي العاص ، وقالوا له : فارق صاحبك فأبى عليهم ، فقالوا له : فارقها ونحن نزوجك بأي امرأة من قريش شئت ، فلم يسمع كلامهم ، ولم يفارقها ، وكان فيه سبب فكه من الأسر إذ بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فداء أبي العاص بمال ، ومن ضمنه قلادة كانت خديجة أهدتها لها ليلة الدخول ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رق لها ، وقال إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها فافعلوا وأخذ عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عهداً أن يخلي سبيل زينب بأن تهاجر إلى المدينة ، وثم نزل بعدها تحريم المسلمات على المشركين في السنة السادسة للهجرة بعد صلح الحديبية ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٦٥٠/١ ، السيرة النبوية لابن كثير ٤٨٢/٢.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٤٨٤/٢.

بِإِيمَانِهِمْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِمْ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُمْ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَأَتَوْهُنَّ مَا نَفَقُوا^(١).

رابعاً : إنخزال ثلث جيش المسلمين في الطريق إلى معركة أحد مع رأس النفاق عبد الله بن أبي سلول .

وجاءت خاتمة آية البحث لبيان عظيم قدرة وسلطان الله عز وجل في دفع أضرار المصيبة عن المسلمين ، وفي نصرهم وبيان أن الحرب سجال ، وفي التنزيل ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(٢).

الثالث : دعوة المسلمين للشكر لله عز وجل بأن جاءت المصيبة للمسلمين بعد أن من الله عليهم من وجوه :
أولاً : بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
ثانياً : الهداية إلى التصديق برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ثالثاً : توالي نزول آيات القرآن .
رابعاً : بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهرائي المسلمين .
خامساً : تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لآيات القرآن على المسلمين ، فقد ورد في الآية السابقة قوله تعالى ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ وفيه دعوة للمسلمين عامة للتفكير بما يترشح عن التلاوة من العلوم والمنافع الجليلة التي تتغشى المسلمين والمسلمات كافة .

سادساً : تعليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الكتاب وتأويل آيات القرآن للمسلمين ، وورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه^(٣).

(١) سورة الممتحنة ١٠.

(٢) سورة الزمر ٣٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/١.

ليتعدد المنّ من عند الله عز وجل على المسلمين بنزول القرآن وأحكامه وسننه ببعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتلاوته آيات القرآن وتأديبه المسلمين وتفقههم في الدين .

سابعاً : بيان حاجة أهل الأرض للوحي والتنزيل .

فمع نزول آيات القرآن وإتصافه بكون ﴿تَبَيَّنَ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) ، فقد أنعم الله عز وجل على المسلمين بقيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتعليم المسلمين مفاتيح الحكمة ، وإشراقات العلوم لتكون واقية من المصيبة ، وسلاحاً للسلامة من أضرارها إذا أصابتهم .

ليكون من معاني الجمع بين الآيتين وجوه :

الأول : أولاً أصابتكم مصيبة وقد منّ الله عليكم إذ بعث فيكم رسولاً من أنفسكم .

الثاني : أولاً أصابتكم مصيبة بعد أن منّ الله عليكم .

الثالث : أولاً أصابتكم مصيبة بعد أن تلى عليكم النبي آيات الله .

الرابع : أولاً أصابتكم مصيبة والنبي يتلو عليكم آيات الله قبل وأثناء وبعد وقوع المصيبة .

الخامس : أولاً أصابتكم مصيبة والرسول يعلمكم الكتاب .

السادس : أولاً أصابتكم مصيبة والرسول يعلمكم الحكمة .

السابع : أولاً أصابتكم مصيبة بعد أن هداكم الله للإيمان .

وهذه المعاني والوجوه تخفيف عن المسلمين ، ومادة لتلقيهم المصيبة بالرضا والشكر لله عز وجل على كل حال ، ومن مصاديق الشكر في المقام أمور :

الأول : الخروج من معركة أحد بسلامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من القتل ، وهذه السلامة هبة من الله ، ومن مصاديق المنّ الذي تذكره الآية السابقة .

الثاني : ثبات المسلمين في مقامات الإيمان وعصمتهم من الشك حتى في حال المصيبة ، وفي التنزيل ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(١).

الثالث : نزول آية البحث التي تشهد للمسلمين بأنهم تلقوا المصيبة في سبيل الله وأنه سبحانه هو الذي يجازيهم على هذا الأذى في مرضاته .
ويمحتمل الجزاء في المقام وجوهاً :

الأول : إرادة الجزاء في الحال ومنه نزول الملائكة لنصرة المسلمين .

الثاني : الجزاء في الدنيا من غير تعيين بوقت مخصوص .

الثالث : المراد الجزاء في الآخرة لأنها دار الثواب .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وهو من مصاديق ملك الله للسموات والأرض والدنيا والآخرة.

وفي التنزيل ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

المسألة الحادية عشرة : لقد أخبرت آية البحث عن قيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتعليم المسلمين الكتاب والحكمة ، ويمحتمل هذا التعليم من جهة المتلقي وجوهاً :

الأول : إرادة أهل البيت والصحابة .

الثاني : المقصود عموم المسلمين والمسلمات مدة أيام النبوة ووجود النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهرائي المسلمين .

الثالث : إرادة المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة .

والصحيح هو الأخير ، وهو من أسرار تفضل الله عز وجل بحفظ وسلامة القرآن من النقص والزيادة والتبديل ، لأن كل آية منه من مصاديق

(١) سورة إبراهيم ٢٧.

(٢) سورة النحل ٩٦.

هذا التعليم وشاهد عليه، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلُّنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾^(١).

وقد جاءت السنة النبوية القولية والفعلية بوحي من عند الله عز وجل ليتعاهدها المسلمون ويتخذوها ضياءً وبراساً، وهل في حفظ الله عز وجل للقرآن الذي تذكره الآية أعلاه منافع للمسلمين بخصوص المواعظ والحكم المستقراة من معركة أحد، الجواب نعم.

ويحتمل أوان نزول مصيبة الخسارة في معركة أحد وجوهاً :
الأول : قبل تعليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الكتاب والحكمة للمسلمين .

الثاني : بعد تعليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الكتاب للمسلمين وقبل تعليمه لهم الحكمة .

الثالث : بعد تعليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم شطراً من الكتاب وشطراً من الحكمة للمسلمين .

الرابع : بعد تعليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين الكتاب والحكمة وأستيفاء مصاديق هذا التعليم .

والمختار هو الثالث أعلاه ، وان في هذا الشطر الكفاية والوقاية من وقوع المصيبة لولا أنها جاءت من جهة ذات المسلمين بترك الرماة مواضعهم فان قلت لماذا لم يمنع الله عز وجل الرماة من ترك مواضعهم .

وعن (شهر بن حوشب عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: "يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ" ثم قرأ: { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ }^(٢) رواه ابن مردويه من طريق محمد بن بكّار، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة، وهي أسماء بنت يزيد بن السكن، سمعها

(١) سورة الحجر ٩.

(٢) سورة آل عمران ٨.

تحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر في دعائه: "اللهم مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك".

قالت: قلت: يا رسول الله، وإن القلب ليتقلب؟ قال: "نعم، ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاعه".

فنسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب^(١).

الجواب أن الآية التالية جاءت بالجواب بقوله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّمْيِ الْجُمُعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

ليبان المواعظ والعبر من هذه المصيبة لتكون باباً للشواوب للمسلمين وحرزاً في المعارك اللاحقة ، وهل يصح أن هذه المصيبة من مصاديق قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الجواب نعم ، ويكون هذا التعليم على وجوه:
الأول : تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين الكتاب ، وتعليمه لهم الحكمة في ذات المصداق المتحد .

الثاني : تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين الكتاب وتلاوة آيات القرآن .

الثالث : تفقه المسلمين في الدين .

الرابع : تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين الحكمة ومنه أبواب الخير وسنن الصلاح ، وتهذيب اللسان ، وتأويل آيات القرآن والعمل بمضامينها .

وفيد الجمع المركب بين الكتاب والحكمة في تعليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين على أنه لم يعلمهم إلا ما هو خير وما فيه الصلاح

(١) تفسير ابن كثير ١٣/٢.

(٢) سورة آل عمران ١٦٦.

والفلاح وفيه دعوة للناس جميعاً لينهلوا من القرآن والسنة ، ومن الوجه الأول أعلاه وإجماع تعليم الكتاب والحكمة آية البحث بلحاظ أنها آية من الكتاب ومدرسة في الصبر وتحمل الأذى في جنب الله .

وعن الأصبع بن نباته (فقال سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن في الجنة شجرة يقال له شجرة البلوى يؤتى بأهل البلاء يوم القيامة فلا يرفع لهم ديوان ولا ينصب لهم ميزان يصب عليهم الأجر صبا وقرأ { إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب })^(١) .

ليان أن المصيبة التي نزلت بالمسلمين باب للأجر والثواب ، وسبيل لنزول رحمته ، ومنها السلامة العامة لهم يوم الخندق ، وصيرورة قتل الإمام علي عليه السلام عمرو بن ود العامري يومئذ سبباً لإلقاء الرعب في قلوب المشركين .

لقد كان الذين كفروا يسعون بحقد وحنكة ومكر فبعد معركة بدر درسوا الحال ورأوا أنهم زحفوا بنحو ألف رجل ، وكانت النتيجة سبعين قتيلاً وسبعين من الأسرى بأيدي المسلمين ، مع لحوق الخزي والذل بالذين كفروا وأدركوا أنهم ساروا إلى معركة بدر بمناجاة الحمية العاجلة ، فاستعدوا لمعركة أحد لأكثر من سنة ، وجاءوا بثلاثة أضعاف جيشهم في معركة بدر ، لبيان قوة شوكة العدو ، وأن الإسلام إنتصر بمعجزة وآية من عند الله ، وتفضل الله ورزق المسلمين الصبر والسلامة من الفتن

الوجه الثاني : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرُ بِنَا

يَعْمَلُونَ ﴾^(٢) وفيه مسائل :

(١) المعجم الكبير ٩٢/٣ .

(٢) سورة التوبة ٤٠ .

المسألة الأولى : إبتدأت آية البحث بصيغة الإستفهام الإنكاري ﴿أَوَلَمْ نَكُنَّا﴾

ليكون كلاماً وسؤالاً من عند الله للمسلمين والمسلمات بلحاظ واقعة معركة أحد ، وإبتدأت آية السياق بصيغة الجملة الخبرية ﴿هُمُ دَرَجَاتٌ﴾ .

ليكون من معاني الدرجات بلحاظ أول آية البحث وجوه :

الأول : المسلمون درجات في المصيبة التي تنزل بهم من جهة كمها وكيفها وعددها ، فمنهم من تأتته مصيبة واحدة في السنة ومنهم من لا تأتته ، ومنهم من تتكرر عليه وتكون ذات وطأة على النفس .

الثاني : المسلمون درجات في تلقي المصيبة إذ يلجأون إلى الصبر والإستجارة بالعبادة ، قال تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١) .

الثالث : المسلمون درجات في الأجر والثواب عند المصيبة ، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: الميزان بيد الرحمن يرفع أقواماً ويضع آخرين^(٢) .

الرابع : يتناجى المسلمون بالصبر والتحمل وإظهار الرضا بأمر الله عز وجل عند المصيبة ، ليأتيهم الأجر من جهات :

الأولى : نزول المصيبة بلحاظ أنها تأتتهم في طاعتهم لله ورسوله ودفاعهم عن الإسلام ، لذا ذكرت الآية المسلمين بقوله تعالى ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾^(٣) .

(١) سورة البقرة ٤٥ .

(٢) جمع الجوامع ١/٢٠١٤٥ .

(٣) سورة آل عمران ١٦٥ .

وقد تقدم في الآية السابقة قوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾^(١) لبيان أن المصيبة نزلت بالمسلمين بما هم مؤمنون ، وفيه واقية لهم من اللوم والتبكيث .

الثانية : ثبات المسلمين على الإيمان عند نزول المصيبة لبيان قانون وهو أن الإيمان عند المسلمين مستقر وليس متزلزلاً ، وعن النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك^(٢).

الثالثة : إتخاذ المسلمين المصيبة موعظة وسبيلاً للإرتقاء في درجات الإيمان .

الرابعة : تعاهد المسلمين لأداء الفرائض والواجبات العبادية حتى مع حال المصيبة والضرر .

الخامسة : عصمة المسلمين من الفرقة والشقاق والإرتداد في حال المصيبة .

وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٣) وكان الآية أعلاه تقول واعتصموا بحبل الله عند المصيبة ولا تفرقوا في حال وقوعها بلحاظ أن الإمتناع عن الفرقة والشقاق عند المصيبة وخسارة المعركة من الشواهد على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن الإعجاز الغيري لآية البحث أنها برزخ دون تفرق المسلمين عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند المصيبة وفي حال الشدة ، وقد

(١) سورة آل عمران ١٦٤ .

(٢) ابن بطة / الإبانة الكبرى ٢٢٢/٦ .

(٣) سورة آل عمران ١٠٣ .

تقدم قبل خمس آيات قوله تعالى ﴿وَكُنْتُ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفُسًا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(١).

ولم تذكر الآية أعلاه مسألة المصيبة أو المصائب التي تنزل بساحة المسلمين مما يدل بالدلالة الإلزامية على عدم إنقضاض وتفرق المسلمين عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في حال وقوع المصيبة ، وهو من الشواهد على مجئ الآية بصيغة الخطاب للمسلمين عطفاً على صفة الإيمان في الآية السابقة .

المسألة الثانية : بعد أن أخبرت آية السياق عن سمو ورفعة مراتب المسلمين وأنهم في درجة عالية عند الله لإيمانهم وتصديقهم بالنبوة والكتاب وصبرهم في طاعة الله واجتنابهم المعاصي الذي هو من أبهى معاني الصبر ، قال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَيَّ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(٢) تفضل الله عز وجل وأخبر عن نزول مصيبة بالمسلمين وهذه المصيبة عامة لقوله تعالى ﴿أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ لبيان قانون وهو أن المصيبة التي تنزل بساحة المؤمنين تزيد في درجاتهم عند الله لأنهم يتلقونها بسبب إيمانهم وصبرهم وجهادهم .

ومن أسرار تقدم آية السياق ، وما فيها من الإخبار عن درجات المؤمنين على آية البحث ، وما تتضمنه من الإخبار عن وقوع المصيبة بالمسلمين وجوه:

الأول : نيل المسلمين الدرجات العالية عند الله قبل وقوع الخسارة في معركة أحد .

الثاني : بلوغ الشهداء الدرجات السامية قبل شهادتهم ، وعندما ضحوا بأنفسهم في سبيل الله أحرزوا أسمى الدرجات لأنهم دافعوا عن الإسلام ،

(١) سورة النازعات ٤٠-٤١.

(٢) سورة آل عمران ١٥٩.

وصدّوا كفار قريش عند إرادتهم قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنع توالي نزول آيات القرآن.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : من قاتل في سبيل الله من رجل مسلم فواق ناقة وجبت له الجنة ومن سأل الله القتل من عند نفسه صادقا ثم مات أو قتل فله أجر شهيد ومن جرح جرحا في سبيل الله أو نكب نكبة فإنها تجي يوم القيامة كأغزر ما كانت لونها كالزعفران وريحها كالمسك ومن جرح جرحا في سبيل الله فعليه طابع الشهداء^(١).

الثالث : ما يتلقاه المؤمنون من الخسارة والنكسة والإنكسار في سبيل الله رفعة ودرجة عند الله ، وهو طريق لدرجة أسمى من ذات السنخية وغيرها ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٢).

الرابع : تقدير الجمع بين الآيتين : يا أيها الذين آمنوا أنتم درجات سامية عند الله ، ولما أصابتكم مصيبة صارت درجاتكم أسمى وأرفع ، وهذا المعنى من إعجاز نظم القرآن ، ومجئ المواساة وشعاع الأمل مع الأذى والضرر .

الخامس : بيان قانون وهو عدم خسارة المسلمين حتى مع وقوع المصيبة والبلاء عندهم ، فاذا جاءهم خير ورحمة ونصر من الله زادت درجاتهم عدداً ورفعة ، وهل زيادة الدرجات مطلوبة بذاتها أم أنها بلغة لغيرها من الخير والفلاح .

الجواب لا تعارض بين الأمرين ، لذا فان قوله تعالى ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ۚ ۞ ﴾^(٣) بشارة الرزق الكريم وحال السراء والظفر والنصر .

(١) السنن الكبرى للنسائي ١٨/٣.

(٢) سورة الزمر ١٠.

(٣) سورة آل عمران ١٦٣.

ومن أسرار لفظ الدرجات بصيغة الجمع بيان السعة والمندوحة في فضل الله على المسلمين ، وأن الله عز وجل حفظ لهم إيمانهم وعملهم الصالحات حتى إذا ما نزلت المصيبة بهم جاءت الدرجات واقية من أضرارها .

وهو من الإعجاز في قوله تعالى ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١) ، وكونه بشارة الفوز بالرزق الكريم ومحو الضرر في الحياة الدنيا، فمن معاني قوله تعالى أعلاه ترتب النفع العظيم العاجل والآجل على بلوغ مرتبة الدرجات العالية عند الله، ويكون تقدير الآية على هذا المبنى على وجوه:

الأول : هم درجات عند الله بفضل ومن منه تعالى .

الثاني : هم درجات عند الله بحسب الصلاح والنفوس .

الثالث : هم درجات عند الله، ليجتهد الناس في طاعة الله، وطلب مرضاته ، وفي التنزيل ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢) .

الرابع : هم درجات عند الله فيرزقهم الله في الدنيا رزق حسناً .

الخامس : هم درجات عند الله فيمحو الله عنهم البلاء والآفات والشُرور .

السادس : هم درجات عند الله في الدنيا .

السابع : هم درجات عند الله في عمل الصالحات .

الثامن : هم درجات عند الله في الصبر .

التاسع : هم درجات عند الله في التقوى .

وهل تدفع هذه الدرجات المصيبة ، الجواب نعم ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿يَخُوفُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١) فمن فضل الله عز وجل

(١) أنظر الجزء السادس والأربعين بعد المائة من هذا السفر المبارك، والذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية .

(٢) سورة آل عمران ١٣٣ .

أن الدرجات التي إرتقى لها المؤمنون بإيمانهم وصلاتهم حرز وواقية من الخسارة ، فصرف عن المسلمين وذويهم المصائب والخسارة والأدران ، حتى إذا ما حلت بهم مصيبة مثل الخسارة في معركة أحد ، وتساءلوا عن سببها جاء الجواب من عند الله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾^(٢).

ومن الإعجاز أن الآية لم تخاطب المسلمين عن علة وسبب الخسارة إنما توجه فيها الأمر من الله عز وجل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول للمسلمين ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾^(٣) وهو من مصاديق المن الإلهي الذي تذكره الآية السابقة .

المسألة الثالثة : من معاني الجمع بين آية البحث وآية السياق دعوة المسلمين للتوجه بالشكر إلى الله عز وجل ، من وجوه منها :

الأول : الشكر لله عز وجل على نعمة فوزهم بالدرجات الرفيعة ، وإرتقائهم فيها ، وتقدير آية السياق : يا أيها الذين آمنوا أتمم درجات عند الله فأشكروا له).

الثاني : مجئ المصيبة للمسلمين بعد بلوغهم الدرجات السامية ، وفي هذا الترتيب نوع تخفيف من وطأة المصيبة عن المسلمين مما يبعث الحسرة والأسى في قلوب الذين كفروا ، وهل هو من مصاديق اسم الإشارة للبعيد في قوله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(٤).

الجواب نعم ، وبينما يلاقي ويعاني المسلمون من سقوط سبعين شهيداً يوم أحد ، وإصابة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بجراحات عديدة وصلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمسلمين وهو قاعد لشدة جراحاته وصلوا وراءه قعوداً .

(١) سورة الرعد ٣٩.

(٢) سورة آل عمران ١٦٥.

(٣) سورة آل عمران ١٦٥.

(٤) سورة آل عمران ١٦٥.

(قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَذَكَرَ عُمَرُ مَوْلَى غُفْرَةَ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى الظُّهْرَ يَوْمَ أَحَدِ قَاعِدَا مِنَ الْجِرَاحِ الَّتِي أَصَابَتْهُ وَصَلَّى الْمُسْلِمُونَ خَلْفَهُ قُعُودًا) ^(١).

لذا قيل بجواز صلاة الإمام عن قعود عند الجراحة والضرورة إلا أنه هل يصلي خلفه المأمومون عن قعود ومحاكاة له أم أن الحال في معركة أحد كان خاصاً بإمامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكثرة الجراحات بالصحابة يومئذ ، وتلقي أهل البيت والصحابة الجراحات .
وحتى الشهداء كانت جراحاتهم بليغة (عن أنس بن مالك قال: لقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين ضربة، فما عرفه إلا أخته، عرفته بينانه).

قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم، أن عبدالرحمن بن عوف أصيب فوه يومئذ فهتهم، وجرح عشرين جراحة أو أكثر، أصابه بعضها في رجله فخرج. ^(٢).

وأصيب سعد بن الربيع باثنتي عشرة جراحة وكلها تؤدي إلى الموت، وقاتلت أم عمارة نسيية بنت كعب المازنية يوم أحد وهي ممن شهد بيعة العقبة ، فقد خرجت أول النهار ومعها سقاء فيه ماء لتلقف الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن أولادها وزوجها ، واستبشرت حينما رأت في أول المعركة أن النصر للمسلمين وأن الفتح يقترب منهم ، قال تعالى بخصوص واقعة أحد ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ﴾ ^(٣) وعندما رأت إنهزام أكثر الصحابة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم توجهت صوبه، وأخذت تدافع عنه بضروب :
أولاً : مباشرة أم عمارة القتال بنفسها .

(١) السيرة النبوية / ابن هشام ٨٦/٢.

(٢) السيرة النبوية / ابن كثير ٦٨/٣.

(٣) سورة آل عمران ١٥٢.

ثانياً : الدفاع والذب عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالسيف، فتلك الساعة لا يكفي الصراخ والعيول أو الذب بالعصا فلا بد من السيف للدفاع ، قال تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(١).

ثالثاً : الرمي بالقوس ، إلى أن أصيبت بجراحات ظلت ظاهرة في بدنها. وعن أم سعد بنت سعد بن الربيع قالت (فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور، فقلت لها: من أصابك بهذا ؟ قالت: ابن قمئة أقماه الله، لما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقبل يقول: دلوني على محمد لا نجوت إن نجا).

فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير، وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كانت عليه درعان)^(٢).

الثالث : شكر المسلمين لله عز وجل على الثواب العظيم الذي يترتب على أفعالهم بخصوص معركة أحد :

أولاً : إجتماع المسلمين ونفيرهم عند دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم وإحاطتهم علماً بقدوم جيش المشركين ،

ثانياً : تراحم المؤمنين في بذل النفس ، والمال في الدفاع عن النبوة والتنزيل .

ثالثاً : إستشارة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه بخصوص صيغ وكيفية قتال العدو، وهل يبقون في المدينة حتى دخوله عليهم، أم يخرجون إلى لقاءه.

(١) سورة الأنفال ٦٠.

(٢) السيرة النبوية ابن كثير ٦٨/٣ .

رابعاً : تسليم المسلمين بأن القرار والأمر يرجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رزقه الله من الوحي ، قال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

خامساً : إنصتات المسلمين لأوامر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل الخروج إلى المعركة : قال تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾^(٢).

سادساً : صدور المسلمين عن أوامر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بخصوص كيفية وموضع ملاقات العدو ، وهو لا يتعارض مع مشورتهم ، فقد عودهم النبي ونمى عندهم هذه المشورة في معركة بدر . وظهر الاختلاف والتباين في الرأي بين الصحابة ، ولكنه من الإجماع المركب ، إذ كانوا في سنخية الرأي فريقين :

الأول : الذين يريدون إنتظار قدوم جيش المشركين إلى مشارف المدينة ، وقتالهم داخلها إذا إختاروا القتال .

الثاني : الذين إشتاقوا للخروج لقتال العدو وعدم الصبر والبقاء في المدينة ، إذ كانوا يلحون على النبي بالخروج طلباً للشهادة وعشقاً للقاء الله عز وجل ، قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنِي إِلَاحِدَىٰ الْحُسَيْنَيْنِ وَخَنُ تَرْتَضُونَ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾^(٣).

ولم يمهلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم طويلاً فيجب أن لا ينشغل القائد بكثرة الإستشارة ، فدخل بيته وخرج وقد لبس لأمة الحرب إيذاناً بالخروج إلى لقاء القوم .

(١) سورة النجم ٣-٤.

(٢) سورة آل عمران ١٢١.

(٣) سورة التوبة ٥٢.

وهل كان النبي يعلم بأن المصيبة ستنزل بالمسلمين في واقعة أحد،
الجواب نعم، وقد تجلّى بالرؤيا التي رآها وأخبر بها وتأويلها أصحابه.

المسألة الرابعة : لقد أكرم الله عز وجل المسلمين بالإيمان والإقتداء
بالأنبياء في مناهج الصلاح والهداية إلى المسارعة في فعل الخيرات ومنها
الإستجابة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في النفير للدفاع عن بيضة
الإسلام ، نعم تخلف منهم جماعة في معركة بدر ليس عن نفاق ومكر
وتكاسل في طلب العدو ، إنما ظنوا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم
وأصحابه خرجوا لقافلة أبي سفيان المحملة بالبضائع والقادمة من الشام
عندما بلغهم نبأ مرورها في الطريق إلى مكة.

وعندما رجع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المعركة إستقبلوه
واعتذروا له .

أما في معركة أحد فقد تهيأ المسلمون جميعاً وخرجوا من غير أن
تتخلف طائفة منهم ، وهو المستقرأ من قوله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ
تُبَوِّى الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ (١) .

ولو دار الأمر بين إرادة عموم المؤمنين في الآية أعلاه وبين التقييد
والحصر ببعضهم ، فالأصل هو الأول .

ولكن المنافقين إنخزلوا أي انقطعوا وسط الطريق إلى معركة أحد ،
واعتذروا بأنه لا يقع قتال ، أي بنفس الاعتذار الذي تقدم به بعض
الصحابة في التخلف عن معركة بدر مع الفارق أن هؤلاء الصحابة كانوا
صادقين بينما أراد المنافقون التورية والكذب والتخلية بين النبي محمد صلى
الله عليه وآله وسلم وبين المشركين ، الذين كانوا يطلبونه ، ويريدون قتله .

المسألة الخامسة : تقدير الجمع بين آية البحث وآية السياق : هم درجات
عند المصيبة).

لقد جعل الله عز وجل الإنسان خليفة في الأرض إمتحاناً وإختباراً له في كيفية قضاء يومه وليلته ولم يتركه وحيداً منفرداً في ملاقاته أسباب الإمتحان وضروب الإختبار بل تفضل وأمدّه بالعقل وكأنه نبوة مصاحبة له يدعوه إلى فعل الخير ، ويحجبه عن إرتكاب السيئات وهو من معاني تسمية العقل لأنه يعقل صاحبه عن القبيح والمذموم.

ولم يرد لفظ (العقل) و(العقول) و(العقلاء) في القرآن، نعم ورد (تعقلون) في القرآن، أربعاً وعشرين مرة، و(يعقلون) إثنيتين وعشرين مرة، وفي التنزيل ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١).

وتفضل الله عز وجل وبعث الأنبياء، وأنزل الكتب السماوية لينجح الإنسان في إختبار الدنيا ، ويتجاوز قناطر الإبتلاء ، وهذا النجاح من معاني خلافته في الأرض ، إذ أنها تتضمن المدد والعون من عند الله للفرد والجماعة والأمة ، لذا فحين أصر كفار قريش على الهجوم والقتال يوم بدر أنزل الله الفأ من الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، قال تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾^(٢).

ترى لماذا أنزل الله عز وجل هذا العدد الكثير من الملائكة مع أن نزول ملك واحد يكفي لهزيمة كفار قريش يومئذ.
والجواب من جهات :

(١) سورة الروم ٢٤.

(٢) سورة الأنفال ٩.

الأولى : بيان فضل الله عز وجل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين وهذا النزول المبارك من مصاديق قوله تعالى ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(١).

الثانية : تجلي مصداق الإستجابة من الله عز وجل لدعاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فممن الإعجاز في سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الدفاعية إنقطاعه إلى الدعاء ليلة ونهار معركة بدر (وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك")^(٢).
(عن ابن مسعود قال ما سمعت مناشدا ينشد حقا له أشد من مناشدة محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر وجعل يقول اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد ثم التفت كأن شق وجهه القمر فقال كأنما أنظر إلى مصارع القوم عشية)^(٣).

الثالثة : بعث الفزع والخوف في قلوب الذين كفروا ولما قال تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾^(٤) فانه سبحانه تفضل ببعث المتعدد من الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة : بيان كثرة عدد الملائكة وشوقهم لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين .

الخامسة : يدل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدُرٍّ وَآتَمُّ أَذَلَّةً﴾^(٥) على قانون وهو وهو أن نصر الله للمسلمين يكون بآتم وأحسن كيفية .

(١) سورة النساء ١١٣.

(٢) السيرة النبوية ابن كثير ٤١١/٢.

(٣) الخصائص الكبرى ٣٣٩/١.

(٤) سورة آل عمران ١٥١.

(٥) سورة آل عمران ١٢٣.

السادسة : بعث السكينة في نفوس المسلمين بقرب المدد والعون لهم من السماء بآلاف من الملائكة .

السابعة : حث المسلمين والمسلمات على الإجهاد بالدعاء رجاء العون والمدد منه سبحانه ، وهل يختص نزول الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بميدان المعركة وحال القتال .
الجواب لا ، إنما هو أعم وأوسع لذا ذكرت الآية لفظ الإستجابة وبصفة الربوبية ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ .

الثامنة : إذا أعطى الله فانه يعطي بالأوفى والأتم ، ومنه نزول الملائكة (عن ابن حزم، قال: صف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه قبل أن تنزل قريش، وطلعت قريش رسول الله يصفهم، وقد أترعوا حوضاً، يفرطون فيه من السحر، ويقذفون فيه الآنية. ودفع رايته إلى مصعب بن عمير، فتقدم بها إلى موضعها الذي يريد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يضعها فيه.

ووقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إلى الصفوف، فاستقبل المغرب، وجعل الشمس خلفه، وأقبل المشركون فاستقبلوا الشمس، فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالعدوة الشامية ونزلوا بالعدوة اليمانية عدوتا النهر والوادي جنبناه فجاء رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله، إن كان هذا منك عن وحي نزل إليك فامض له، وإلا أراها بعثت بنصرك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قد صفت صفوفي ووضعت رايتي، فلا غير ذلك! ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ربه تبارك وتعالى، فنزل عليه جبرئيل بهذه الآية: " إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألفٍ من الملائكة مردفين " ، بعضهم على إثر بعض^(١).

التاسعة : بيان قوله تعالى ﴿مُرْدِفِينَ﴾ كيفية نزول الملائكة أي بعضهم

على أثر بعض .

العاشرة : إخبار القرآن بأن نزول ألف من الملائكة إنما هو بشرى

ومصدق بشارة من عند الله ، قال تعالى ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾^(١) ولم

يكن المدد من الملائكة وحدهم إذ أنزل الله عز وجل الماء من السماء لتليد

الموضع لتثبت الأقدام وحوافر الخيل بعد أن كانت رمالاً وسبخات^(٢) إذ

نزل المسلمون يوم بدر كثيب أعفر ، تسبخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وقد

سبقهم المشركون ، وأصبح بعض المسلمين محدثين أو على جنابة ، إلى

جانب العطش الذي ألم بهم ، فأنزل الله عز وجل المطر ، ومن منافعه منع

وسوسة الشيطان عنهم ، فلا يقال أين نصر الله وفيكم رسوله وتزعمون

أنكم أولياؤه خاصة وأن بعض المسلمين أحدث وأصبح مجنباً ، وأصاب

عامتهم الظمأ ، وهم يرون المشركين على الماء .

(أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب وموسى بن عقبة قالا مكث

رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قتل ابن الحضرمي شهرين ، ثم أقبل

أبو سفيان بن حرب في غير لقريش من الشام ومعها سبعون راكباً من بطون

قريش كلها وفيهم مخزومة بن نوفل ، وعمرو بن العاص ، وكانوا تجاراً بالشام

ومعهم خزائن أهل مكة ، ويقال : كانت غيرهم ألف بعير ولم يكن لأحد

من قريش أوقية فما فوقها إلا بعث بها مع أبي سفيان إلا حويطب بن عبد

العزى ، فلذلك كان تخلف عن بدر فلم يشهده ، فذكروا لرسول الله صلى

الله عليه وسلم وأصحابه وقد كانت الحرب بينهم قبل ذاك ، وقتل ابن

الحضرمي وأسر الرجلين عثمان والحكم .

(١) سورة آل عمران ١٢٦ .

(٢) الروض الأنف ٣/ ١٢٣ .

فلما ذكر غير أبي سفيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عدي بن أبي الزغباء الأنصاري من بني غنم وأصله من جهينة وبسبس - يعني ابن عمرو - إلى العير عينا له ، فسارا حتى أتيا حياً من جهينة قريباً من ساحل البحر ، فسألوهما عن العير وعن تجار قريش ، فأخبروهما بخبر القوم ، فرجعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه فاستنفر المسلمين للعير وذلك في رمضان .

وقدم أبو سفيان على الجهنيين وهو متخوف من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقال : أحسوا من محمد فأخبروه خبر الراكبين عدي بن أبي الزغباء وبسبس ، وأشاروا له إلى مناخهما .

فقال أبو سفيان : خذوا من بحر بعيرهما ففته فوجد فيه النوى ، فقال : هذه علائف أهل يثرب وهذه عيون محمد وأصحابه ، فساروا سراعاً خائفين للطلب .

وبعث أبو سفيان رجلاً من بني غفار يقال له ضمضم بن عمرو إلى قريش أن انفروا فاحموا غيركم من محمد وأصحابه فإنه قد استنفر أصحابه ليعرضوا لنا .

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب ساكنة بمكة وهي عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت مع أخيها العباس بن عبد المطلب ، فرأت رؤيا قبل بدر وقبل قدوم ضمضم عليهم ففزعت منها ، فأرسلت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب من ليلتها ،

فجاءها العباس فقالت : رأيت الليلة رؤيا قد أشفقت منها وخشيت على قومك منها الهلكة .

قال : وماذا رأيت؟ قالت : لن أحدثك حتى تعاهدني أنك لا تذكرها ، فإنهم إن سمعوها آذونا وأسمعونا ما لا نحب ، فلما عاهدها العباس فقالت : رأيت راكباً أقبل من أعلى مكة على راحلته يصيح بأعلى صوته : يا آل غدر اخرجوا في ليلتين أو ثلاث ، فأقبل يصيح حتى دخل

المسجد على راحلته ، فصاح ثلاث صيحات ومال عليه الرجال والنساء والصبيان ، وفزع له الناس أشد الفزع
قال : ثم أراه مثل على ظهر الكعبة على راحلته ، فصاح ثلاث صيحات

فقال : يا آل غدر ويا آل فجر اخرجوا في ليلتين أو ثلاث ، ثم أراه مثل على ظهر أبي قبيس كذلك يقول : يا آل غدر ويا آل فجر حتى أسمع من بين الأخشبين من أهل مكة ،

ثم عمد إلى صخرة فنزعها من أصلها ، ثم أرسلها على أهل مكة فأقبلت الصخرة لها حس شديد حتى إذا كانت عند أصل الجبل ارفضت ، فلا أعلم بمكة داراً ولا بيتاً إلا وقد دخلتها فلقة من تلك الصخرة ، فقد خشيت على قومك .

ففزع العباس من رؤياها ، ثم خرج من عندها فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة من آخر تلك الليلة - وكان الوليد خليلاً للعباس - فقص عليه رؤيا عاتكة وأمره أن لا يذكرها لأحد ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ، وذكرها عتبة لأخيه شيبة ، فارتفع الحديث حتى بلغ أبا جهل بن هشام واستفاض في أهل مكة ، فلما أصبحوا غدا العباس يطوف بالبيت ، فوجد في المسجد أبا جهل ، وعتبة ، وشيبة بن ربيعة ، وأميه ، وأبي ابني خلف ، وزمعة بن الأسود ، وأبا البختري ، في نفر من قريش يتحدثون.

فلما نظروا إلى العباس ناداه أبو جهل : يا أبا الفضل إذا قضيت طوافك فهلم إلينا ، فلما قضى طوافه جاء فجلس إليهم فقال له أبو جهل : ما رؤيا رأتها عاتكة؟! فقال : ما رأت من شيء.

فقال أبو جهل : أما رضيتم يا بني هاشم كذب الرجال حتى جئتمونا بكذب النساء ، انا وإياكم كفرسي رهان فاستبقنا المجد منذ حين.

فلما تحاكت الركب قلت من أنبي فما بقي إلا أن تقولوا منا نبية ، فما أعلم في قريش أهل بيت أكذب امرأة ولا رجل منكم ، وأذاه أشد الأذى.

وقال أبو جهل : زعمت عاتكة أن الراكب قال : اخرجوا في ليلتين أو ثلاث، فلو قد مضت هذه الثلاث تبينت قريش كذبكم وكتبت سجلاً إنكم أكذب أهل بيت في العرب رجلاً وامراً،

أما رضيتم يا بني قصي^(١) إن ذهبتم بالحجابه والندوة والسقاية واللواء والوفادة حتى جئتمونا بنبي منكم؟ فقال العباس : هل أنت منتَه فإن الكذب منك ومن أهل بيتك؟ فقال من حضرهما : ما كنت يا أبا الفضل جهولاً خرقاً . ولقي العباس من عاتكة فيما أفشى عليها من رؤياها أذى شديداً .
لقد أنعم الله عز وجل على الناس مجتمعين ومتفرقين بالرؤيا، ومنها رؤيا البشارة والإنذار، وفيها منافع للناس عامة والمؤمنين خاصة، أما المنافع لعامة الناس فهي الموعظة والإعتبار، والإنزجار عن فعل القبيح وما تتضمن الرؤيا التحذير منه .

وأما الخاصة فتعلق بالمؤمنين بالإعتبار والإنزجار وبالدعاء ودفع الصدقة لصرف البلاء ومحو الضرر ويكون هذا الدعاء من مصاديق قوله تعالى ﴿يُنْحُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢)، وحينما جاء خبر قافلة أبي سفيان تناجى كفار قريش للخروج للقتال، ولم يستحضروا رؤيا عاتكة ولم يتعظوا منها، ولكنها بقيت شاهداً تأريخياً، ودليلاً على الرحمة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورؤيا أهل البيت للإنذار، وكيف أنها من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣).

فلما كان مساء الليلة التي رأت عاتكة فيها الرؤيا، جاءهم الراكب الذي بعث أبو سفيان، وهو ضمضم بن عمرو الغفاري فصاح وقال : يا آل غالب بن فهر انقروا فقد خرج محمد وأهل يثرب يعترضون لأبي سفيان

(١) أي قصي بن كلاب جد النبي صلى الله عليه وآله وسلم والذي بنى دار الندوة.

(٢) سورة الرعد ٣٩.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

فاحرزوا غيركم ، ففرغت قريش أشد الفزع وأشفقوا من رؤيا عاتكة ، وقال العباس : هذا زعمتم كذا وكذب عاتكة ، فنفروا على كل صعب وذلول .

وقال أبو جهل : أظن محمد أن يصيب مثل ما أصاب بنخلة ، سيعلم أنمنع غيرنا أم لا . فخرجوا بخمسين وتسعمائة مقاتل ، وساقوا مائة فرس ، ولم يتركوا كارهاً للخروج يظنون أنه في قهر محمد وأصحابه ، ولا مسلماً يعلمون اسلامه ، ولا أحداً من بني هاشم إلا من لا يهتمون إلا أشخصوه معهم ، فكان ممن أشخصوا العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث ، وطالب بن أبي طالب ، وعقيل بن أبي طالب في آخرين ، فهناك يقول طالب بن أبي طالب :

لَا هُمْ إِمَّا يَغْزُونَ طَالِبَ ... فِي عَصَبَةِ مُحَالَفٍ مُحَارِبٍ
فِي مِقْنَبٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَانِبِ ... فَلْيَكُنِ الْمَسْلُوبُ غَيْرَ السَّالِبِ
وَلْيَكُنِ الْمَغْلُوبُ غَيْرَ الْغَالِبِ^(١)

فساروا حتى نزلوا الجحفة نزلوها عشاء يتزودون من الماء ومنهم رجل من بني عبد المطلب بن عبد مناف يقال له جهيم بن الصلت بن مخزومة فوضع جهيم رأسه فأغفى ثم فزع فقال لأصحابه : هل رأيتم الفارس الذي وقف علي أنفاً؟ فقالوا : لا ، إنك مجنون .

فقال : قد وقف علي فارس أنفاً ! فقال : قتل أبو جهل وعتبة وشيبة وزمعة وأبو البختري وأمّية بن خلف فعد أشرافاً من كفار قريش فقال له أصحابه : إنما لعب بك الشيطان ورفع حديث جهيم إلى أبي جهل فقال : قد جئتم بكذب بني المطلب مع كذب بني هاشم سيرون غداً من يقتل .

وقد ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم غير قريش جاءت من الشام وفيها أبو سفيان بن حرب ومخرمة بن نوفل، وعمرو بن العاصي وجماعة من قريش فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلك حين خرج إلى بدر على نقب بني دينار ورجع حين رجع من ثنية الوداع، فنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نفر ومعه ثلثمائة وسبعة عشر رجلاً وفي رواية ابن فليح : ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً وأبطأ عنه كثير من أصحابه وتربصوا وكانت أول وقعة أعز الله فيها الإسلام فخرج في رمضان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدمه المدينة ومعه المسلمون لا يريدون إلا العير فسلك على نقب بني دينار والمسلمون غير معدين من الظهر إنما خرجوا على النواضح يعتقب الرجل منهم على البعير الواحد وكان زميل رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب عليه السلام ومرثد بن أبي مرثد الغنوي حليف حمزة فهم معه ليس معهم إلا بعير واحد فساروا حتى إذا كانوا بعرق الظبية لقيهم راكب من قبل تهامة - والمسلمون يسرون - فوافقه نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن أبي سفيان ؟ فقال : لا علم لي به.

فلما يسوا من خبره فقالوا له : سلم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : وفيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : نعم قال : أيكم هو ؟ فأشاروا إليه ، فقال الأعرابي : أنت رسول الله كما تقول ؟ قال : نعم

قال : إن كنت رسول الله كما تزعم فحدثني بما في بطن ناقتي هذه ؟ فغضب رجل من الأنصار من بني عبد الأشهل يقال له سلمة بن سلامة بن وقش فقال للأعرابي : وقعت على ناقتك فحملت منك. فكره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما قال سلمة حين سمعه أفحش فأعرض عنه^(١).

(فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سيروا فإن الله قد وعدكم إحدى الطائفتين أنها لكم فوق في قلوب ناس كثير الخوف وكان فيهم من تخاذل من تخويف الشيطان فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون مسابقين إلى الماء وسار المشركون سراعاً يريدون الماء فأنزل الله عليهم في تلك الليلة مطراً واحداً فكان على المشركين بلاء شديد منعه أن يسيروا وكان على المسلمين ديمة خفيفة لبد لهم المسير والمنزل وكانت بطحاء فسبق المسلمون إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل فاقتحم القوم في القليب فما حوها حتى كثر ماؤها وصنعوا حوضاً عظيماً ثم غوروا ما سواه من المياه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هذه مصارعهم إن شاء الله بالغداة^(١)).

المسألة السادسة : تقدير الجمع بين الآيتين : هم درجات قل ما أصابكم من عند أنفسكم صحيح أن آية السياق جاءت بصيغة الغائب ﴿هُم دَرَجَاتٌ﴾ إلا أن المراد هم المؤمنون، ترى لماذا لم تقل الآية أنتم درجات ، الجواب المراد في الآية المعنى الأعم للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة منذ هبوط آدم إلى الأرض وإلى يوم القيامة ، لبيان عظيم فضل الله عز وجل على الناس وعلى المؤمنين خاصة.

ومن إعجاز القرآن تضمنه الإكرام للمؤمنين من الأمم السالفة، وحفظه لصبرهم وجهادهم في سبيل الله.

وليس من حصر للوجوه التي يكون فيها تقدير الضمير في ﴿هُم دَرَجَاتٌ﴾ على عدد أتباع الأنبياء والرسل قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم منها مثلاً :

الأول : أتباع إبراهيم عليه السلام درجات عند الله .

الثاني : أتباع موسى عليه السلام درجات عند الله .

الثالث: أتباع عيسى عليه السلام درجات عند الله .

الرابع: المسلمون درجات عند الله، قال تعالى ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(١).

الخامس: البشارة للمؤمنين بأرفع الدرجات وأسمى المراتب يوم القيامة، قال تعالى ﴿وَلَا خَيْرَ أَكْبَرَ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾^(٢).

لقد نزلت المصيبة بالمسلمين يوم معركة أحد ، وهي متعددة من جهات :
الأولى: إنخزال ثلث جيش المسلمين في الطريق إلى معركة أحد بتحريض من رأس النفاق عبد الله بن أبي بن أبي سلول .

الثانية: كثرة الشهداء إذ سقط سبعون شهيداً^(٣).
لقد كانت الدعوة الإسلامية في بداياتها والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرون ليسوا من أهل يثرب الذين هم من قبيلتين ، وهما الأوس والخزرج ، ويجمعهما أصل وجد واحد.

وهم من قبائل الأزد الكهلانية القحطانية ، هاجروا من اليمن أوان إنهيار سد مأرب فأقاموا في يثرب من الحجاز، وهي المدينة المنورة.
والأوس هم بنو الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو.
والخزرج هم بنو الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وقال حسان بن ثابت الأنصاري

(إما سألت فإنا معشر نجب ... الأسد نسبنا والماء غسان)^(٤).

(١) سورة المجادلة ١١.

(٢) سورة الإسراء ٢١.

(٣) أنظر الجزء السابع بعد المائة الذي جاء خاصاً بترجمة شهداء أحد .

(٤) السيرة النبوية ابن هشام ١١٧/١.

والمراد من غسان إنما هو (ماء بسد مأرب كان يشرب منه ولد مازن بن الأسد بن الغوث فأخذوا اسمهم منه وعرف نسلهم بالغساسنة و(آل غسان)).

الثالثة : إصرار كفار قريش ومن حالفهم وجاء معهم على القتال مع بلوغ آيات القرآن لهم ، فمن إعجاز القرآن الذي لم يستقرأ الشطر الأعظم منه ، أمور :

الأول : بداية نزول القرآن في مكة .

الثاني : إتصاف السور المكية بالقصر ، وتضمنها التخويف والإنذار والوعيد وسوء عاقبة الذين كفروا مع قوة الألفاظ والبيان ذي صبغة الاختصار كما في قوله تعالى ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾^(١).

والقارعة من أسماء يوم القيامة ، ومن الآيات أن أثر وموضوعية سماع سورة القارعة إستمر حتى بعد هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة إذ ينصت لها المؤمنون بتدبر واتعاظ .

الثالث : تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم آيات القرآن .

الرابع : سرعة حفظ السور المكية ، وتلاوة أهل البيت والصحابة الأوائل لها .

(وأخرج أبو يعلى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه فإن كان غائباً دعا له ، وإن كان شاهداً زاره ، وإن كان مريضاً عاده . ففقد رجلاً من الأنصار في اليوم الثالث فسأل عنه فقالوا : تركناه مثل الفرخ لا يدخل في رأسه شيء إلا خرج من دبره . قال : عودوا أخاكم .

فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نعوذه ، فلما دخلنا عليه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كيف تجدك؟

قال : لا يدخل في رأسي شيء إلا خرج من دبري . قال : ومم ذاك؟
قال يا رسول الله : مررت بك وأنت تصلي المغرب فصليت معك ، وأنت
تقرأ هذه السورة { القارعة ما القارعة } إلى آخرها { نار حامية }
فقلت : اللهم ما كان من ذنب أنت معذبي عليه في الآخرة فعجل لي
عقوبته في الدنيا فنزل بي ما ترى.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بشس ما قلت ، ألا سألت
الله أن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار ، فأمره
النبي صلى الله عليه وآله وسلم فدعا بذلك ودعا له النبي صلى الله عليه
وسلم ، فقام كأنما نشط من عقال^(١).

الخامس : إنصات أهل مكة وأفراد القبائل الذين يأتون للحج والعمرة
لآيات القرآن ونقل الركبان لها في الأمصار والقرى ، وهو من مصاديق
تسمية مكة بأم القرى ، ويكون تبليغ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
رسالته إلى مكة وما حولها ، قال تعالى ﴿ وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾^(٢).

ومن أسباب وعلل تسمية مكة أم القرى وجوه:
الأول : تفضل الله عز وجل بجعل البيت الحرام في مكة ، قال
تعالى ﴿ إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾^(٣).

الثاني : قدوم الناس إلى مكة لأداء مناسك الحج والعمرة من أيام أئبنا
آدم عليه وإلى يوم القيامة ، ويدل قوله تعالى خطاباً إلى إبراهيم ﴿ وَأَذِّنْ
فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾^(٤).

(١) الدر المنثور ١٠/٣٣٥.

(٢) سورة الأنعام ٩٢.

(٣) سورة آل عمران ٩٥.

(٤) سورة الحج ٢٧.

الثالث : بيان قانون وهو ما من قرية في مشارق ومغارب الأرض إلا ويستقبل أهلها أو شطر منهم البيت الحرام ومكة خمس مرات في اليوم.

الرابع : بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول جبرئيل عليه في مكة، فإن قلت قد نزل شطر من القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة ويسمى المدني، وهذا الصحيح، إذ أن هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة من مصاديق كون مكة هي أم القرى.

الخامس : تسمية فتح مكة بالفتح المبين، قال تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١).

السادس : إنقطاع الهجرة بعد فتح مكة.

السابع : وفود المسلمين والمسلمات من كل قرية وبلد في كل عام إلى مكة للحج، وليس من بلدة نالت هذه المرتبة، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

الثامن : ترشح الإنذار من مكة على المدن والقبائل الأخرى بسبب حج وعمره الناس للبيت الحرام، وتجارة قريش.

و(عن ابن عباس في قوله { ولتنذر أم القرى }^(٣)) قال: مكة ومن حولها . قال: يعني ما حولها من القرى إلى المشرق والمغرب^(٤).

التاسع : دخول الناس في الإسلام بعد فتح مكة، فإن قلت قد وقعت بعد فتح مكة مباشرة واقعة حنين، والجواب نعم، هذا صحيح، ولكن المسلمين إنتصروا بها إنتصاراً مباركاً قطع دابر الشرك في الجزيرة إلى يوم القيامة.

(١) سورة الفتح ١.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة الأنعام ٩٢.

(٤) الدر المنثور ٩٨/٤.

العاشر : نشوء ونباء قرى ومدن كثيرة حول مكة وبسبب فتحها.

الحادي عشر : إتساع وإنتشار الإسلام بعد فتح مكة.

الثاني عشر : إمتناع الناس في الحملة عن قتال المسلمين بعد فتح مكة.

(سأل الشامي الإمام علي عليه السلام: لم سميت مكة أم القرى ؟ قال عليه السلام: لان الأرض دحيت من تحتها. وسأل عن أول بقعة بسطت من الارض أيام الطوفان، فقال له: موضع الكعبة، وكانت زبرجدة خضراء^(١)). ليكون من معاني تسمية مكة أم القرى بخصوص تلاوة القرآن أن أول نزوله في مكة ليشع ضياؤه إلى أرجاء الأرض ، ويدخل الناس في الإسلام وكانت هذه البداية سبباً لبيعة العقبة وهجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ، وخروج الأنصار معه لقتال ثلاثة آلاف من كفار قريش في معركة أحد .

الثالثة : اشتداد القتال بين المسلمين والذين كفروا يوم معركة أحد .

لقد جاء المشركون لغايات خبيثة يهيئون لها الأذهان ويسخرون لها الأموال لأكثر من سنة إبتداء من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، حيث خسروا معركة بدر إلى شوال من العام الذي تلاه إذ وقعت معركة أحد .

المسألة الرابعة : كان إبتداء المعركة بنصر المسلمين رحمة وفضلاً من الله

عز وجل ، وهو من مصاديق المنّ الذي ذكرته الآية السابقة ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾^(٢) فان قلت لم تذكر الآية

السابقة نصر المسلمين في معركة بدر ، أو نصرهم في بداية معركة أحد ، إذ

أنها ذكرت وجوهاً من منّ الله وهي :

الأول : بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) البحار ٦٤/٥٤ .

(٢) سورة آل عمران ١٦٤ .

الثاني : بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصفة الرسالة ، وهي أكبر درجة من النبوة .

الثالث : إلتساب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين وهو منهم بالنسب والإيمان ووحدة الأمة في قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الرابع : الشهادة للمسلمين بأنهم مؤمنون لقوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) ولم تقل الآية (لقد من الله على المسلمين) لبيان قانون وهو أن النعم تأتي للناس على وجوه :

الأول : النعم على البشر بصفة الإنسانية وأنهم ولد آدم ، (و عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كلكم لآدم وآدم من تراب)^(٣).

الثاني : النعم على أتباع الأنبياء .

الثالث : النعم التي يتفضل بها الله عز وجل على المسلمين .

الرابع : النعم التي تأتي للمؤمنين ، وتكون هذه النعم على وجوه :

الأول : ما ينتفع منه عامة الناس ببركة المؤمنين .

الثاني : ما يختص به المؤمنون .

الثالث : ما تترشح منافعه على آباء المؤمنين .

الرابع : ما تأتي منافعه للجيران .

الخامس : النعم التي يتفضل بها الله على المؤمنين ، فتتفع منها

ذراريهم ، وفي قصة موسى والخضر ورد قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ

لِفُلَانَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة آل عمران ١٦٤.

(٣) البحار ٣١/٥٣.

رُبُّكَ أَنْ يُلْغَا أَشَدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَزُهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿١﴾.

وبين كل وجه من الوجوه أعلاه والوجه أو الوجوه التي سبقتها عموم وخصوص مطلق، وهناك نعم خص الله بها المؤمنين في الدنيا ، أما في الآخرة فإن هذا القانون جلبي وواضح وهل شواهد في الدنيا الجواب نعم، وفيه الآية السابقة وما تذكره من النعم التي تفضل بها الله عز وجل على المؤمنين ، ومنها دفع الضرر الفادح الذي يترتب على الخسارة في معركة أحد وإنسحاب ثلث الجيش وسط الطريق إلى المعركة لولا أن من الله عز وجل على المؤمنين.

وحضور النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم معركة أحد من هذا المن ، من وجوه :

الأول : مصاحبة الوحي والتنزيل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليكون من مصاديق الفرقان في قوله تعالى ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْأَجْمَعَانِ﴾ (٢) بلحاظ إمتياز جيش المسلمين بأية عظمى وأفرادهم بوجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهرائهم وتوالي الوحي عليه .

الثاني : تلقي المسلمين الوحي الذي يأتي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقبول والتصديق .

الثالث : مصاحبة الملائكة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الرابع : إجتهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالدعاء ، ولا يخيب جيش يدعو له نبي رسول ، قال تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٣).

(١) سورة الكهف ٨٢.

(٢) سورة الأنفال ٤١.

(٣) سورة غافر ٦٠.

الخامس : تلقى جيش المسلمين مجتمعين ومتفرقين الأوامر بالوحي والتنزيل .

السادس : عندما اشتد القتال ودارت الريح وأنكسر المسلمون ثبت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في موضعه ، فحال دون تحقيق كفار قريش أي نصر .

ترى ماذا لو لم يحضر النبي صلى الله عليه وآله وسلم معركة بدر أو معركة أحد ، وهل يتحقق نصر للمسلمين ، وهل ينجون من الخسارة والهزيمة ، الجواب : لقد كان حضور النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كل من معركة بدر وأحد حاجة للإسلام والمسلمين ، ولم يخرج إلا بالوحي والأمر من عند الله .

ومن الآيات التي نزلت في واقعة أحد الخطاب من الله عز وجل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(١) ، لتبين وجوه إعجازية في قوله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢) .

وتكشف آيات القرآن حقيقة خالدة وهي أن نصر المسلمين في بداية معركة أحد وعد من الله عز وجل لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُمُ بِإِذْنِهِ...﴾^(٣) .

ويحتمل هذا الوعد وجوهاً :

الأول : الرؤيا التي رآها النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل معركة أحد .

(١) سورة آل عمران ١٢٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٢١ .

(٣) سورة آل عمران ١٥٢ .

الثاني : مجئ آيات من القرآن تدل على الوعد بالنصر .

ويحتمل هذا الوعد وجوهاً :

أولاً : الوعد بالنصر بخصوص معركة أحد .

ثانياً : الوعد بالنصر في أول معركة أحد لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ

وَعْدَهُ إِذْ تَحْسَبُونَهُمْ بِأَذْنِهِ...﴾^(١).

ثالثاً : إرادة الوعد بالنصر في معارك الإسلام ونتائجها ، قال تعالى

﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَبَجَعَلَهُمْ أَتَمَّةً وَبَجَعَلَهُمُ

الْوَارِثِينَ﴾^(٢).

رابعاً : إرادة النصر في معركة بدر بلحاظ ورود الآية بصيغة الماضي

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ﴾.

خامساً : تقييد تنجز الوعد بصبر المسلمين لقوله تعالى ﴿بَلَىٰ إِنْ

تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا يَمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ

مُسَوِّمِينَ﴾^(٣) (عن عروة قال : كان الله وعدهم على الصبر والتقوى أن

يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وكان قد فعل ، فلما عصوا أمر

الرسول وتركوا مصافهم ، وتركت الرماة عهد الرسول إليهم أن لا يبرحوا

منازلهم وأرادوا الدنيا ، رفع عنهم مدد الملائكة ، وأنزل الله { ولقد

صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه }^(٤) فصدق الله وعده وأراهم الفتح ،

فلما عصوا أعقبهم البلاء)^(٥).

(١) سورة آل عمران ١٥٢.

(٢) سورة القصص ٥.

(٣) سورة آل عمران ١٢٥.

(٤) سورة آل عمران ١٥٢.

(٥) الدر المنثور ٣/٤٥٦.

سادساً : تعلق الوعد بأمر آخر غير النصر في المعركة .

سابعاً : لقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه (فكان النصر للمسلمين ولكن الرماة تركوا مواضعهم فجاءهم العدو من الخلف وتفرق أكثر المسلمين .

الثالث : مجئ آيات القرآن التي تتضمن الإخبار عن ظهور الإسلام ، وعز المؤمنين .

الرابع : إستقراء معنى الوعد من قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(١) وتقدير الآية : ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة وسينصركم بأحد وأنتم أعزة).

وإذ أنعم الله عز وجل على المؤمنين فإنه سبحانه يمنع وصول ضدها لهم ويدل عليه مفهوم المخالفة لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٢) فلقد إستقر الإيمان في قلوب المسلمين ، ولم يغيروا حالهم بل زادتهم عداوة الذين كفروا إيماناً وتقوى ، وفي التنزيل ﴿الَّذِينَ قَالَتْ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٣) ليكون زحف الجيوش الكبيرة على المؤمنين وبلوغ نبأهم إليهم سبباً في أمور:

الأول : زيادة إيمان المسلمين ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَاتَّاهُمُ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) سورة الرعد ١١.

(٣) سورة آل عمران ١٧٣.

(٤) سورة محمد ١٧.

الثاني : تفويض المسلمين أمورهم إلى الله ، وفي التنزيل ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾^(١).

الثالث : لجوء المسلمين في ساعة الشدة والضيقة إلى الله عز وجل ، وهو من مصاديق زيادة الإيمان الذي تذكره الآية أعلاه ليكون معنى حرف العطف في ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا﴾ على وجوه :

أولاً : المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه .

ثانياً : إرادة عطف المسبب على السبب .

ثالثاً : عطف المبرز الخارجي على في قلوب المسلمين من الإيمان ، وفيه شاهد على تنزههم من النفاق ، وعلى خلو قلوبهم من الشك وسلامتهم من الوهن والضعف والخور .

رابعاً : عطف سبب تقوية المعطوف عليه .

الرابع : الرضا والثقة المطلقة بأن الله عز وجل هو نعم الوكيل وكفايته لهم في تفويض أمورهم إليه .

وذاًت الكلمة قالها إبراهيم عليه السلام فجاءه الفرج والأمن والسلامة ، إذ أنه كان يدعو نمروذ وقومه إلى عبادة الله فحبسوه في بيت وأخذوا يجمعون له الحطب لحرقه ، حتى أن المرأة منهم تمرض فتندر إن شافها الله لتقوم بجمع الحطب لإبراهيم .

وحينما قذفوه في النار رفع رأسه إلى السماء وقال (اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ، ليس أحد يعبدك غيري ، حسبي الله ونعم الوكيل . فقذفوه في النار ، فنادها فقال { يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم }^(٢).

(١) سورة الطلاق ٣.

(٢) سورة الأنبياء ٦٩.

وكان جبريل هو الذي ناداها . فقال ابن عباس : لو لم يتبع برداً سلاماً لمات إبراهيم من بردها ، ولم يبق يومئذ في الأرض نار إلا طفئت ظنت أنها هي تعنى ، فلما طفئت النار نظروا إلى إبراهيم ، فإذا هو ورجل آخر معه ورأس إبراهيم في حجره يمسح عن وجهه العرق ، وذكر أن ذلك الرجل ملك الظل^(١) وقيل لم تحرق النار إلى وثاقه .

الوجه الثالث : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢) وفيه مسائل :

المسألة الأولى : مجئ كل من الآيتين بصيغة الخطاب مع إتحاد الجهة وإرادة المسلمين ، وظاهر كل من الآيتين أن المقصود وقائع القتال بين المسلمين والذين كفروا ، ولكن الآية أعم في موضوعها ودلالاتها ، والمختار إتصال وإستدامة مضامين كل من الآيتين لتغشى المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة ، وهذا المعنى لا يتعارض مع كون معركة أحد هي موضوع نزول كل من آية البحث والسياق .

لقد خاض النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون معارك الدفاع الأولى عن الإسلام ليتفقه المسلمون في شؤون القتال ، ويعلموا أنهم يلاقون عدواً ظالماً يزحف عليهم بما هو أكثر منهم عدداً وعدة ، وفيه تنمية للملكة الصبر وحسن التوكل على الله عند المسلمين ، وفي التنزيل ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا...﴾^(٣).

(١) الدر المنثور ٤/ ٨٨.

(٢) سورة آل عمران ١٥٦.

(٣) سورة الملك ٢٩.

ومن إعجاز نظم القرآن إمكان عطف آية البحث على آية السياق في الموضوع والدلالة ، ولما خاطب الله عز وجل المسلمين بأنهم الذين آمنوا بينت آية البحث ما لحقهم من الأذى والأضرار الجسيمة التي أصيبوا بها يوم أحد ، ليكون نداء الإيمان الذي ابتدأت به آية السياق واقية من تلك الأضرار وآثارها .

المسألة الثانية : من معاني الجمع بين الآيتين أن المصيبة التي تلم بالمسلمين قد تصاحبها مصائب أخرى وهي على أقسام :

الأول : مقدمة المصيبة .

الثاني : ما يتفرع عن المصيبة من البلاء .

الثالث : مصيبة أخرى تأتي بالعرض وإن لم تكن هناك ملازمة أو صلة بين المصيبتين ، وجاءت آية البحث لتخبر عن مصيبة الخسارة في معركة أحد أما آية السياق فأنها تخبر عن إبتلاء وإفتتان المسلمين بمصيبة أخرى ، وهي تعريض وشماتة الذين كفروا بمن يقتل من المسلمين ، وتخويفهم الذين يخرجون للقتال أو التجارة والكسب منهم بالقتل ولو بقوا في المدينة لكانوا في سلام وأمن .

لتنهى آية السياق المسلمين عن محاكاة الذين كفروا في قولهم هذا لأن هذه المحاكاة من مصاديق الأقسام الثلاثة أعلاه ، إذ تكون مقدمة لمصيبة، وتتفرع عن مصيبة أحد وتأتي بمصيبة أخرى ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ نَأْصَابِكُمْ مِصْيَبَةً﴾^(١) ترجيح تعدد المصائب والويلات على المسلمين لولا فضل الله والمدد الذي تفضل به الله سبحانه ، ليكون من معاني نداء الإيمان في المقام البشارة من الله عز وجل بصرف المصائب المتفرعة عن الخسارة في معركة أحد .

المسألة الثالثة : تقدير الجمع بين آية البحث وآية السياق : يا أيها الذين آمنوا أولما أصابتكم مصيبة) .

من النعم التي خص الله عز وجل بها المؤمنين عند نزول المصيبة وجوه:
الأول : تقدم النعمة على المصيبة .

الثاني : التذكير بالنعمة عند حلول المصيبة .

الثالث : دعوة المسلمين إلى ذكر الله عز وجل عند المصيبة ، وفي التنزيل ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١).

الرابع : إغاثة المسلم والمسلمة للتحلي بالصبر عند نزول المصيبة ، ووردت أحاديث عديدة تبين الأجر والثواب على تلقي وتحمل المصيبة ، وعن أم سلمة قالت حدثنا أبو سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا أصاب أحدكم مصيبة فليقلل إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم عندك احتسب مصيبتى فأجرني فيها وأبدلني بها خيرا منها^(٢).

وتنقضي أيام المصيبة وتخف وطأتها على النفس ، ولكن الأجر والثواب على الصبر عليها متصل ، وفيه مضاعفة لفضل ورحمة من الله سواء ذات الثواب الذي يأتي في ساعة المصيبة والمترتب عنها أم مطلقاً.

وكلما استحضر المسلم ذات المصيبة وما لاقاه يأتيه الثواب (عن فاطمة بنت الحسين ، أنها سمعت أباها الحسين بن علي عليه السلام يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة ، فيذكرها وإن قدم على عهدا ، فيحدث لها استرجاعا إلا أحدث الله له عند ذلك وأعطاه الله ثوابه يوم أصيب بها)^(٣).

المسألة الرابعة : من إعجاز نداء الإيمان أنه مواساة على المصيبة التي تصيب المسلمين مجتمعين أو متفرقين من جهات :

(١) سورة البقرة ١٥٦.

(٢) السنن الكبرى للنسائي ٢٦٤/٦.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني ٣٣١/٦.

الأولى : المواساة قبل المصيبة لأن نداء الإيمان سبب في الصبر .
الثانية : نداء الإيمان مواساة للمسلمين عند المصيبة ، وتقديره على

وجوه :

أولاً : يا أيها الذين آمنوا اصبروا .
ثانياً : يا أيها الذين آمنوا أبشروا بالأجر والثواب على الصبر .
الثالث : يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله عند المصيبة .

الثالثة : نداء الإيمان مواساة للمسلمين بعد وقوع المصيبة ، وليس من حصر لموضوعية وأثر كل جهة من هذه الجهات وتبقى الثالثة أعلاه متصلة ومتجددة إلى يوم القيامة في نفعها ، وهو لا يتعارض مع إقتباس أجيال المسلمين المواعظ من مواساة نداء الإيمان للمسلمين قبل وقوع المصيبة وبعدها ، وهذا المعنى من أسرار تقدم نداء الإيمان في النظم وفي آية السياق وقبل آية البحث التي تخبر عن إصابة المسلمين بالبلاء والخسارة لتهون الخسارة في الوجود الذهني والواقع اليومي للمسلمين ، ويبعثهم نداء الإيمان على أمور :

الأول : الإجتهد في طاعة الله ، لذا ورد قبل ثلاث آيات قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ أَتَّبِعْ رِضْوَانُ اللَّهِ﴾^(١) ليكون من معانيه أن اتباع رضوان الله سبب لتجاوز أضرار وآثار المصيبة .

الثاني : بعث الثقة في نفوس المسلمين لما في نداء الإيمان من الشهادة لهم ببلوغ مراتب الهداية والفلاح .

الثالث : نداء الإيمان دعوة إلى المسلمين للتوكل على الله وسؤاله النصر والغلبة .

الرابع : هداية نداء الإيمان المسلمين إلى الصبر عند المصيبة ، والصبر في طاعة الله .

الخامس : من معاني نداء الإيمان إنتفاء الجزع واليأس والقنوط عند المسلمين .

المسألة الخامسة : تقدير الجمع بين آية البحث والسياق (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا عند المصيبة) .

ومن خصائص الحياة الدنيا نزول المصيبة بالإنسان منفرداً وبالجماعة والأمة ، وتأتي هذه المصيبة بأفة سماوية أو أرضية أو بفعل فاعل ، ولا يقع فرد منها إلا بمشيئة وإذن من عند الله عز وجل ليكون نداء الإيمان سبباً للثبات على الإيمان ، وحرزاً من الشك والوهم عند المصيبة ، وواقية من الغرور والركون إلى الدعة ورغد العيش وظن إستدامته ، وقال تعالى في الثناء على المؤمنين ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾^(١) للتأكيد على خصال كريمة يتصف بها المؤمنون منها لزوم الوفاء بالعهد والإخلاص في طاعة الله وطاعة رسوله في البأساء والضراء والتحلي بالصبر عند الشدة والضيق وملاقاة العدو الكافر ، وهي خصال لا يقدر على حيازتها مجتمعة إلا المؤمنون وهو من أسرار تكرار خطاب الله عز وجل للمسلمين بنداء الإيمان ، كأن يقول لهم ، اصبروا على المصائب وتحملوا وطأتها وأشكروا الله عز وجل على أمور :

الأول : مجئ مصيبة المسلمين في معركة أحد بعد مرور أكثر من سنة على معركة بدر .

الثاني : حصول إنتصارات متعددة للمسلمين بعد معركة بدر ، وإن لم يحصل قتال وملاقاة للجيش كما وصفه الله عز وجل بقوله ﴿يَوْمَ التَّتَمَّى الْجَمْعَانِ﴾^(٢) سواء بخصوص معركة بدر^(٣) أو معركة أحد^(١) .

(١) سورة البقرة ١٧٧.

(٢) سورة الأنفال ٤١.

(٣) أنظر سورة الأنفال ٤١.

الثالث : نزول آية البحث وما فيها من الإخبار عن قانون وهو أن المسلمين في عين الله عز وجل ، وأنه سبحانه يصبر ما يقع لهم من المصائب ، وما يلقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأذى من قومه ، وفيه ترغيب للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم ، قال تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ يَكُونُوا عَاقِبَةُ الْأُمَمِ﴾ (١).

وكان آية البحث تقول للمسلمين إستعدوا للنصر والغلبة وتدارك المصيبة وآثارها بدليل خاتمة آية البحث وبيانها لقانون وهو قدرة الله المطلقة ومنها قدرته سبحانه على نصرهم .

المسألة السادسة : تقدير الجمع بين الآيتين : يا أيها الذين آمنوا قد أصبتم مثلها).

لقد أنعم الله عز وجل على المسلمين ببدء الإيمان وبالنصر في معركة بدر، حتى إذا نزلت المصيبة والخسارة الفادحة بهم في معركة أحد تأتتهم المواساة وأسباب بعث الهمة في نفوسهم من جهات:

الأولى : وجود النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهراني المسلمين .

الثانية : إمامة وقيادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم محمد صلى الله عليه وآله وسلم لجيش المسلمين ، ويعلم المسلمون أن حضور النبي صلى الله عليه وآله وسلم المعركة وثباته في الميدان مع إنهمزام أكثر أصحابه إنما هو بأمر من الله عز وجل ، وفيه دعوة للناس للتسليم بصدق نبوته وحث لهم للإيمان ونبذ محاربته.

الثالثة : مصاحبة نداء الإيمان للمسلمين في الحضر والسفر ، وحال الحرب والسلام .

(١) أنظر آل عمران ١٥٥/١٦٦.

(٢) سورة الحج ٣٩.

الرابعة : مجئ آية البحث بإخبارها عما أصاب المسلمين ، وتضمنها الإخبار بأن الله عز وجل يعلم بما أصاب المسلمين مع بيان علة وسبب هذه المصيبة وهو قصور وتقصير المسلمين أنفسهم .

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين الظفر في ميادين القتال ، فاذا ما خسروا في معركة فانه سبحانه يؤدبهم على كيفية الإلتعاض من هذه الخسارة مثلما يدعوهم إلى الإلتفاف من نصرهم في معارك الإسلام الأولى .

ومن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في السنة الدفاعية أنه لم يلق هزيمة في معركة من معارك الإسلام مع إتصافها في كل مرة بأمور: الأول : قلة عدد المسلمين وكثرة عدد المشركين ، فمثلاً كان عدد المسلمين في معركة بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر ، وكان عدد المهاجرين منهم والذين ضرب لهم بسهم ثلاثة وثمانون ، وكان عدد الخزرج من الأنصار مائة وسبعين .

أما جيش المشركين فكان عدده نحو ألف رجل .

الثاني : النقص في عدة ورواحل المسلمين في مقابل كثرتها ووفرتها عند جيش المشركين ، فمثلاً كان مع المسلمين في معركة بدر فرسان ، وكان عند المشركين سبعون منها .

الثالث : إبتداء المشركين بالقتال في كل معركة ، إذ يخرج منهم جماعة أو أفراد يطلبون المبارزة بينما يبدأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعظهم ونصحهم ودعوتهم إلى قول لا إله إلا الله ، لبيان الإعجاز في هذا القول من جهات:

الأولى : كلمة التوحيد برزخ دون القتال .

الثانية : قول لا إله إلا الله حقن للدماء .

الثالثة : الأمن من الذل والخزي الذي يلحق من يمتنع عن كلمة التوحيد .

الرابعة : نطق أي إنسان بكلمة التوحيد منعة الإسلام، وفرد من الأخوة الإيمانية.

وإخبارهم بأن هذا القول وحده برزخ دون القتال وسفك الدماء، وفيه حجة فلما إحتجت الملائكة على جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) مع أنه ينشر الفساد والدماء، كما ورد في التنزيل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(٢).

كان جواب الله عز وجل على سؤالهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) لتمر الأحقاب فينزل الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه مع قلة عددهم ويسمعون النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدفع القتل وسفك الدماء بكلمة التوحيد والترغيب فيها ، وكيف أنه يدرء الموت حتى عن المفسدين بهدايتهم إلى كلمة التوحيد مع أن الملائكة نزلوا لنصرته والبطش بعده ، مما يدل على أنه لا يريد سفك الدماء .

ومن إعجاز القرآن أنه يذكر عند المصيبة النعم العظيمة التي تفضل الله عز وجل بها في ذات الموضوع الذي أصيب به المسلمون ، فحينما فقد المسلمون سبعين شهيداً يوم النصف من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، ذكرت آية البحث أن كسب ونصر المسلمين سابق لأوان المصيبة لتكون آية البحث دعوة سماوية لإستحضار المسلمين والمسلمات لوقائع معركة بدر والإنتصار فيها.

وتبين آية البحث أن واقعة بدر ونصر الله عز وجل فيها للمسلمين ذخيرة عند الشدائد ، ومن الإعجاز فيها أنها برزخ دون ديب الخوف إلى نفوس المسلمين ، وهي مانع من ظهور اليأس والقنوط على ألسنة المسلمين

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

أو مجتمعاتهم ، وقد إستمرت مسألة فداء أسرى بدر نحو سنة أي لم تنته إلا قبل أيام معدودة من واقعة أحد ، وفيه شاهد على قوة منعة المسلمين ، وانعدام حال الذل التي كانوا عليها .

ويصح القول بأن الجمع بين الآيتين من معاني قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) فحتى مع الخسارة يتفاخر المسلمون بنصر الله عز وجل السابق لها ، وفيه بشارة بالنصر اللاحق.

المسألة السابعة : تقدير الجمع بين الآيتين : يا أيها الذين آمنوا أولما أصابتكم مصيبة قلتم أنى هذا لقد أكرم الله عز وجل المسلمين من جهات:
الأولى : كون المسلمين من البشر، قال تعالى ﴿وَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾^(٢).

الثانية : بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة : هداية المسلمين للتصديق بنبوّة محمد ، وفي التنزيل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾^(٣).

الرابعة : جعل أول معارك المسلمين نصراً عظيماً للإسلام.

الخامسة : إخبار آية البحث عن نزول المصيبة بالمسلمين.

السادسة : ذات ذكر الله عز وجل للمصيبة التي ألمت بالمسلمين إكرام وفضل منه تعالى ، وهو من الشواهد على كونهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٤).

السابعة : تلاوة المسلمين لآية البحث كل يوم من أيام الحياة الدنيا.

(١) سورة المنافقون ٨.

(٢) سورة الإسراء ٧٠.

(٣) سورة الأعراف ٤٣.

(٤) سورة آل عمران ١١٠.

الثامنة : تعاهد المسلمون لآية البحث رسماً وحروفاً وكلمات، وتلاوة وتفسيراً وتأويلاً، فمن البديهيات عند المسلمين أن قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ أَصَابِكُمْ مِصْبَةً﴾^(١) يتعلق بواقعة أحد.

التاسعة : إخبار آية البحث عما قاله المسلمون عند المصيبة كما ورد في التنزيل (قلتُم آنى هذا) لبعث السكينة في نفوس المسلمين بأن الله عز وجل يسمع كلامهم ومناجاتهم فيما بينهم، ويوجب على هذه المناجاة فضلاً منه تعالى، وهذه الإجابة من مصاديق الآية السابقة ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾^(٢).

لقد ورد لفظ يسألونك خمس عشرة مرة في القرآن، ويتفضل الله عز وجل بالأمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالإجابة كما في قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ...﴾^(٣).

أما آية البحث فأنها تتضمن الأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يجيب المسلمين على مناجاتهم فيما بينهم ويخبرهم عن علة الخسارة يوم أحد، ومن مصاديق ثبات المسلمين في منازل الإيمان تلقيهم قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم بوجوه:

الأول : التصديق.

الثاني : التدبر والتفكر.

الثالث : التدارك، ومنع حدوث ذات أسباب المصيبة في معارك الإسلام اللاحقة.

(١) سورة آل عمران ١٦٥.

(٢) سورة آل عمران ١٦٤.

(٣) سورة البقرة ١٨٩.

الرابع : الشكر لله عز وجل على نعمة التنزيل ، وبيان حال المسلمين فيه لتكون الزيادة في قوله تعالى ﴿لَنْ شُكْرُكُمْ لَا يَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١)، في المقام على وجوه متعددة.

الخامس : تنمية ملكة الصبر في نفوس المسلمين ، وحسن التوكل على الله عز وجل.

ومن معاني نداء الإيمان الذي ابتدأت به آية السياق بلحاظ آية البحث وجوه:

الأول : تفضل الله عز وجل بالخطاب للمسلمين.

الثاني : علم الله عز وجل بما أصاب المسلمين، لبيان أن المصيبة لم تقع إلا بإذن من الله عز وجل، وفي التنزيل ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

الثالث : تقدير الجمع بين الآيتين: يا أيها المسلمون ارضوا بأمر الله عز وجل بالمصيبة واعلموا أنها لم تقع إلا بعد أن أنعم عليكم بالنصر والغلبة وقتل طائفة من الذين كفروا، وأسر طائفة أخرى منهم.

الرابع : بيان قانون وهو أن الإيمان سبب لتلقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأمر من عند الله بإخبار المسلمين عن علة وأسباب ما أصابهم.

الخامس : الإيمان برزخ دون الخلاف والفتنة بين المسلمين بخصوص أسباب الخسارة في واقعة أحد.

السادس : بيان مصداق لقانون وهو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يعاقب أصحابه على التقصير في القتال، والهزيمة من ميدان المعركة بل لم يرد أنه وبخهم ووجه لهم اللوم والتقريع على المنبر وأمام الناس، وهو من الإعجاز في سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) سورة إبراهيم ٧.

(٢) سورة التوبة ٥١.

ومن عادة الملوك إلقاء اللوم على القواد عند التعرض للهزيمة، وقد يعاقبون بأشد ضروب العقوبة أو يرمون بعضهم بالخيانة، ولكن الله عز وجل تفضل على المسلمين وأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم بأن المصيبة من أنفسكم، ليدل قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾^(١)، على رفق ورأفة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالمسلمين وهو من مصاديق ما تقدم قبل ست آيات ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾^(٢)، من جهات:

الأولى : من مصاديق رحمة الله عز وجل في المقام أمره تعالى للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل).

الثانية : تجلي اللين والرفق من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمسلمين بقول هو من عند أنفسكم، والوقوف عند هذا القول.

الثالثة : من مصاديق لين ورأفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمسلمين نزول القول الذي يقوله النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين من عند الله عز وجل وعلى نحو الأمر الذي يفيد الوجوب والقطع، وفي التنزيل في وصف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

ومن إعجاز القرآن أن الوجوب فيه متجدد إلى يوم القيامة، فقد إنقضت أيام معركة أحد، وانتقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة، ولكن أمر الله عز وجل له ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ باق بين ظهراني المسلمين، يتلونه رجالاً ونساءً خمس مرات في اليوم في مشارق الأرض ومغاربها لبيان مصداق لقوله تعالى ﴿هُمُ

(١) سورة آل عمران ١٦٥.

(٢) سورة آل عمران ١٥٩.

(٣) سورة التوبة ١٢٨.

دَرَجَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ ﴿١﴾ بلحاظ أن المهاجرين والأنصار يوم أحد كانوا على مراتب وطوائف :

الأولى : الذين ثبتوا مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ميدان المعركة سواء الذين أسشهدوا أو الذين تلقوا الجراحات ، قال تعالى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٢) ، ولو قتل أحد المسلمين يومئذ وهو مدبر ، ويريد الفرار فهل هو من الشهداء، الجواب نعم، ويصدق عليه أنه ثبت في موضعه وبذل دمه في سبيل الله ، والملاك أنه قُتل في سبيل الله.

الثانية : عموم الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يرجعوا من وسط الطريق مع رأس النفاق عبد الله بن أبي بن أبي سلول، فذات الخروج من المدينة درجة ، وعدم الإنسياق وراء إغواء رأس النفاق درجة أخرى ، قال تعالى ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ (٣).

الثالثة : الرماة الذين تركوا مواضعهم مع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شدد عليهم بعدم تركها على كل حال.

و(عن البراء، قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم جيشا من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير، وقال: لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهرنا علينا فلا تعينونا. فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة.

فقال عبدالله: عهد إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ألا تبرحوا.

(١) سورة آل عمران ١٦٣.

(٢) سورة الأحزاب ٢٣.

(٣) سورة آل عمران ١٢٢.

فأبوا، فلما أبوا صرفت وجوههم^(١).

الرابعة : الذين فروا من وسط الميدان عند إشتداد القتال ، ثم رجعوا وأحاطوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ﴾^(٢).

لقد كان يوم معركة أحد يوم من من الله عز وجل على المسلمين من وجوه نعجز عن تفاصيلها، وبيان منافعها في ذات اليوم ، وفي أيام الحياة الدنيا إلى يوم ينفخ في الصور ، وفي عالم الآخرة .
لتكون معاني ووجوه تقدير أول آية البحث من اللامتاهي في الموضوع وبيانه ووقائعه ومنافعه منها :

الأول : لقد من الله على المؤمنين بالإيمان بالله ، فقد شاعت قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عبادة الأوثان والتقرب إليها ، ولتحاذاها وسيلة للتقرب إلى الله ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٣).

و(عن ابن عباس قال : وقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم على قريش وهم في المسجد الحرام، وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بعض النعام وجعلوا في آذانها السيوف وهم يسجدون لها.

فقال : يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل ، ولقد كانا على الإسلام. فقالت له قريش : يا محمد إنا نعبدها حباً لله ، ليقربونا إلى الله زلفى ، فقال الله تعالى : قل يا محمد إن كنتم تحبون الله

(١) السيرة النبوية ابن كثير ٤٨/٣.

(٢) سورة آل عمران ١٥٣.

(٣) سورة الزمر ٣.

وتعبدون الأصنام ليقرّبوكم إليه فاتبعوني يحببكم الله، وأنا رسوله إليكم وحبته عليكم وأنا أولى بالتعظيم من الأصنام (١).

الثاني : لقد من الله على المؤمنين بحبهم له ، وحبهم لهم ، وهو من أعظم النعم في الدنيا ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٢) لذا تفضل الله عز وجل وفرض على كل مسلم ومسلمة قراءة سورة الفاتحة ومنها الآية أعلاه عدة مرات في اليوم .

وعن أنس قال (أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال متى الساعة قال ويهلك وما أعددت للساعة قال ما أعددت لها شيئاً إلا أنني أحب الله ورسوله قال قال النبي صلى الله عليه وسلم فإنك مع من أحببت قال قال أصحابه نحن كذلك قال نعم وأنتم كذلك قال ففرحوا يومئذ فرحاً شديداً قال فمر غلام للمغيرة بن شعبة قال أنس وكان من أقراني قال النبي صلى الله عليه وسلم إن يؤخر هذا فلن يدركه الهرم حتى تقوم الساعة وقال عفان ففرحنا به يومئذ فرحاً شديداً (٣).

الثالث : لقد من الله على المؤمنين بتصديقهم بنبوة ورسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ أن قوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (٤) يتضمن قوانين متعددة منها :

أولاً : المن والطول من الله عز وجل على المسلمين .

ثانياً : الصلة التي بين الله عز وجل والمسلمين هي صلة المعبود بالعباد، وصلة الرب الواحد المتان بالذين يتلقون المن الذي لا غنى عنه .

(١) الكشف والبيان ٥٨/٣.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

(٣) مسند أحمد ٧١/٢٦.

(٤) سورة آل عمران ١٦٤.

ثالثاً : التسليم بأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نبي من الأنبياء اختاره الله عز وجل لنزول الوحي عليه من غير واسطة بشر .

رابعاً : التصديق بأن النبي محمداً نبي رسول من عند الله عز وجل اختصه الله عز وجل بالشرعية المتكاملة الناسخة لغيرها من الشرائع ، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (١) .

خامساً : بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بلسان المؤمنين من قومه وما فيه من التخفيف عنهم، وتجلي الإعجاز في لغة القرآن ، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢) .

الرابع : وصف المسلمين بأنهم مؤمنون كما في الآية السابقة نعمة عظمية وموعظة وحجة وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ (٣) .

لقد تساءل المسلمون سؤالاً تقريرياً وإنكارياً بقوله تعالى ﴿قُلْتُ أَنَّى هَذَا﴾ إذ سألوا عن سبب المصيبة والخسارة التي لحقتهم يوم معركة أحد .

وأخبرهم الله عز وجل بأنه يسمع تساؤلهم واستفسارهم ويتفضل بالإجابة عليه ليبقى هذا التساؤل والإجابة من عند الله عز وجل عليه وثيقة سماوية إلى يوم القيامة .

المسألة الثامنة : تقدير الجمع بين الآيتين : قل يا أيها الذين آمنوا لقد خاطب الله المسلمين بنداء الإيمان تسعاً وثمانين مرة ، وهو من من وطول الله عز وجل عليهم وعلى الناس من جهات :

الأولى : تفضل الله عز وجل بنداء المسلمين بصفة الإيمان، وهل نداء الإيمان من مصاديق المن في قوله تعالى ﴿وَيُرِيدُ أَنْ يَمْلِكُنَا عَلَى الَّذِينَ

(١) سورة المائدة ٣ .

(٢) سورة يوسف ٣ .

(٣) سورة الأنعام ١٤٩ .

اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَبَجَلَهُمْ أَثَمَةً وَبَجَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿١﴾، الجواب نعم، لما فيه من التشريف والإكرام لهم، ومن الآيات ترشح المنافع العاجلة عن التشريف ومصاديق الرضا من عند الله عز وجل.

الثانية : تعدد وكثرة نداء الإيمان في القرآن .

الثالثة : إختصاص المسلمين بنداء الإيمان في القرآن ، فلم يرد نداء الإيمان في القرآن ويقصد منه أمة أخرى غير المسلمين .

الرابعة : توجه نداء الإيمان في القرآن إلى المسلمين بأجيالهم المتتالية على نحو العموم الإستغراقي والمجموعي، وورد ذات اللفظ ﴿الذين آمنوا﴾ في القرآن على وجوه :

الأول : إرادة خصوص المسلمين ، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ

آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢﴾ وقوله تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُسُكُمُ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾.

الثاني : إرادة خصوص المهاجرين والأنصار ، كما في قوله تعالى

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿٤﴾.

(١) سورة القصص ٥.

(٢) سورة البقرة ٦٢.

(٣) سورة البقرة ٧٦.

(٤) سورة الأنفال ٧٤.

الثالث: إرادة عموم المؤمنين من المسلمين وأتباع الأنبياء من الملل السماوية السابقة ، قال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا نُنَصِّرُ اللَّهَ قَرِيبٌ ۖ﴾^(١).

الرابع : إرادة خصوص المؤمنين من الملل السابقة ، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾^(٢).

لقد شهد الله عز وجل للمسلمين بالإيمان ، وهو دعوة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يشهد لهم بالإيمان ، وتقدير الجمع بين الآيتين قل يا محمد للمسلمين والمسلمات يا أيها الذين آمنوا (وهو من مصاديق ما تقدم من قوله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾^(٣) .
ومن رشحاته مسائل :

الأولى : تلقي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إيمان المسلمين بالقبول والرضا ، فحالما ينطق الإنسان بالشهادتين فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقبل إسلامه ويلحقه بصفوف صلاة الجماعة ، ويأمر أحد الأصحاب بتعليمه أحكام الشريعة وآيات القرآن .

الثانية : نشر شأيب الأخوة الإيمانية بين المسلمين .

الثالثة : الوثاقة بالمسلمين وعدم طرو الشك في أفعالهم ، وقد كانوا يحيطون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حال الحضر والسفر ، وفي

(١) سورة البقرة ٢١٤.

(٢) سورة هود ٥٨.

(٣) سورة آل عمران ١٥٩.

ميادين القتال ، ليس من برزخ أو حرس يفصل بينهم وبينه ، وليس من بواب على باب بيته الملاصق للمسجد النبوي .

ومن الآيات في هذا الزمان صيرورة قبره الذي هو غرفة عائشة جزءاً من المسجد النبوي لتتجلى معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من جهات :

الأولى : سلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الإغتيال مع كثرة الأعداء وسهولة وصولهم إليه في المجالس ، وقد تمكنوا من الوصول إليه في ميدان معركة أحد وأصابوه بالجراحات وظنوا أنهم قتلوه .

وعند الخروج إلى معركة أحد تدافع عدد ممن يبلغ عمره خمس عشرة سنة من المسلمين للخروج إليها ، فردهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم أسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، ورافع بن خديج ، مما يدل على رفق النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصبيان وعدم زج غير البالغ في المعركة مع الحاجة إلى الرجال يومئذ .

(قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَتَعَبَّاتُ قُرَيْشٍ وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ رَجُلٍ وَمَعَهُمْ مَثَا فَرَسٍ قَدْ جَنَّبُوهَا ، فَجَعَلُوا عَلَى مَيْمَنَةِ الْخَيْلِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهَا عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ) ^(١) .

الثانية : عصمة المسلمين من التجراً والتعدي على مقام النبوة .

الثالثة : عدم إنقطاع تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين ، ليكون من معاني قوله تعالى في الآية السابقة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ^(٢) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قريب من المسلمين في كل ساعة من ساعات الليل والنهار ، يعلمهم ويهديهم إلى سبل الرشاد .

(١) سيرة ابن هشام ٦٦/٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٦٤ .

الرابعة : بيان رشحات من قوله تعالى ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١).

وهل يصح تقدير الآية : قولوا نحن الذين آمنوا) الجواب نعم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾^(٢) وفيه بحث للعز والفخر في نفوس المسلمين والمسلمات ، ودعوة لهم لتعاهد الإيمان بالتقوى والصلاح ، وقد وردت الآيات التي تخبر عن بلوغ المسلمين حال الأمن من الخوف والفرع والحزن باقتران العمل الصالح بالإيمان ومصاديقه ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣) ليكون من معاني آية البحث إعانة المسلمين على الصبر في تلقي المصيبة لأنه مصاحب للإيمان .

وتبين آية البحث أن المؤمنين غير معصومين من الخطأ وأسباب ترتب المصيبة ، ولكن الذي يمتازون به هو الأجر والثواب على المصيبة ، وهذا الأجر أكبر وأعظم من ذات المصيبة في زمانه ونفعه وحضوره ، فهو برزخ دون تكرار المصيبة ليس من جهة إتعاض المسلمين وإقتباسهم الدروس من الأخطاء والمصائب فحسب ، فهذا أمر جلي وهو نعمة دائمة على المسلمين ، ولكن ذات الأجر يحضر في الوقائع والأحداث فيكون سبباً لصرف البلاء والمصيبة عن المسلمين ، ليكون من معاني وتقدير قوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٤) أي يمحو الله ما يشاء من المصائب عن المسلمين بالأجر الذي نالوه بسبب إسترجاعهم وذكرهم عند المصيبة .

(١) سورة آل عمران ١٦٤.

(٢) سورة المطففين ٢٦.

(٣) سورة الأحقاف ١٣.

(٤) سورة الرعد ٣٩.

المسألة التاسعة : تقدير الجمع بين الآيتين : قل يا أيها الذين آمنوا هو من عند أنفسكم) .

تبين آيات القرآن جهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في سنته القولية والفعلية ، وعدم إنحصار هذا الجهاد بملاقاة الذين كفروا ، بل يشمل تعليم المسلمين ، وهدايتهم إلى مقامات الصبر عند الشدائد فمع ما لاقاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم معركة أحد من جهة كثرة الجراحات وشدة الأذى الذي أصابه بفقد سبعين شهيداً من أصحابه ومنهم عمه حمزة إلا أنه يبذل وسعه في صلاح المسلمين وإرشادهم إلى التحلي بالصبر وإتخاذ المصيبة طريقاً لتحقيق النصر .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يحرص على أداء الصلاة جماعة في صلاة المغرب والعشاء من ذات يوم معركة أحد ، وهل هذا الحرص من الوحي ، الجواب نعم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

لتكون هذه الصلاة حرزاً وواقية من ديبب اليأس والقنوط إلى نفوس أصحابه والأجيال المتعاقبة من المسلمين بلحاظ أن السنة النبوية نبراس ومدرسة يقتبس منها المسلمون المواعظ ، ويلجأون إليها عند الإستدلال وإقامة البرهان وضروب الحاجة وعند رجاء الأجر والثواب ، فهذا القصد علة تامة لإستحضار السنة النبوية وصيرورتها باباً للثواب المتجدد .

فمن خصائص الحياة الدنيا أن الثواب يأتي باضعاف من سخرية العمل الصالح ، وأما السيئات فقد لا تجلب حتى مثلها ، إنما تدهمها أسباب التوبة واللوم الذاتي عند الإنسان ، وهذا اللوم حرز من التماذي في فعل السيئات ، وتعجيل الإنتقام من عند الله .

ليكون من معاني قوله تعالى ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^(١) أن النفس اللوامة واقية من حلول العقاب العاجل وسبب لإمهال الله عز وجل للعبد وإرتقاء لوم النفس إلى توبة وإنابة ، وهو من مصاديق رحمة الله عز وجل بالإنسان وجعله ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢).

وهل في آية البحث دفاع من الله عن نفسه لأن الخسارة بسبب المسلمين أنفسهم وترك الرماة مواضعهم ، الجواب لا تصل التوبة إلى هذا المعنى والله عز وجل أعظم وأكرم من أن يدافع عن نفسه ، إنما هو يدافع عن المؤمنين ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّافٍ كَفُورٍ﴾^(٣).

وآية البحث حجة لله عز وجل و وأنه سبحانه لم يأذن بنزول المصيبة بالمسلمين إلا بعد أن قصروا في المقدمات والأسباب .

المسألة العاشرة : تقدير الجمع بين الآيتين : يا أيها الذين آمنوا إن الله على كل شيء قدير ، وفيه بيان قانون من الإرادة التكوينية وهو أن الله عز وجل لا تستعصي عليه مسألة ، وهو سبحانه يفعل ما فيه الخير والصلاح واستدامة سنن التقوى في الأرض ، وهو المستقرأ من قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٤).

فمن قدرة الله عز وجل المطلقة تهئية مقدمات ولوازم عبادة الناس له من جهات :

(١) سورة القيامة ٢.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة الحج ٣٨.

(٤) سورة الذاريات ٥٦.

الأولى : الآيات الكونية الخارقة التي تصاحب الإنسان وتجذبه إلى الهدى والإيمان ، قال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(١).

الثانية : صيرورة عبادة الله علة لخلق الإنسان وحاضرة معه من حين خلقه ، ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) النفخ من روح الله في آدم ، وديب الحياة فيه بقيد العبادة والتقوى .

ويدل عليه ما ورد من الأخبار والنصوص بخصوص عالم الذر ، وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال (سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له بأي شئ سبقت ولد آدم ؟ قال: إنني أول من أقر بربي، إن الله أخذ ميثاق النبيين " وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا: بلى " فكنت أول من أجاب)^(٣).

وعن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾^(٤).

قال: مسح ربك ظهر آدم، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة بنعمان^(٥) هذا الذي وراء عرفة، وأخذ ميثاقهم (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا))^(٦).

(١) سورة فصلت ٥٣.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

(٣) البحار ٣٥٢/١٦.

(٤) سورة الأعراف ١٧٢.

(٥) نعمان واد ترتبط أجزاءه بالجهة الجنوبية لجبل عرفة ، ويبعد عن مكة نحو أربعة وعشرين كيلو متراً ، وهو أكبر الأودية في مكة المكرمة ، ويقع بينها وبين الطائف ، وتغنى به الشعراء ومنهم مجنون ليلى قيس ابن الملوح في قصيدته الموسومة بالمؤنسة

الثالثة : بعثة الأنبياء وتعاقبهم وتعدد الأماكن والأمصار التي بعثوا فيها ، ومنهم من كان يتنقل ويسبح في الأرض مثل الرسول عيسى بن مريم ، ووردت تسميته بالمسيح في القرآن ، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَشْرِكُ بِكَلِمَةِ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾^(٣) وفي تسميته المسيح وجوه :

الأول : كان عيسى عليه السلام كثير السياحة في الأرض ويتنقل بين القرى والأرياف .

الثاني : كان عيسى يسبح الأرض أي يقطعها في تنقله .

الثالث : كان عيسى عليه السلام مسيح القدمين أي مسطح القدمين .

وهي أطول قصيدة أنشدها وقيل كان يحفظها دون أشعاره والتي تبدأ بقوله :
تذكرت ليلي والسنين الخوالي ... وأيام لا أعدى على الدهر عادياً

ومنها

أعد الليالي ليلة بعد ليلة ... وقد عشت دهرأ لا أعد الليالي
وأخرج من بين البيوت لعلني ... أحدث عنك النفس بالليل خاليا
يميناً إذا كانت يميناً وإن تكن ... شمالاً ينازعني الهوى عن شماليا
ألا يا حمامي بطن نعمان هجتما ... على الهوى لما تغنيتما ليا
وأبكيتماني وسط صحبي ولم أكن ... أبالي بدمع العين لو كنت خاليا
ذكت نار شوقي في فؤادي فأصبحت ... لها وهج مستضرم في فؤاديا
خليلي ما أرجو من العيش بعدما ... أرى حاجتي تشرى ولا تشتري ليا
وقد يجمع الله الشيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن تلاقيا. ابن الجوزي / المدهش
(١٣٦/١)

(١) تفسير الطبري ٢٢٤/١٣.

(٢) سورة آل عمران ٤٥.

(٣) سورة آل عمران ٤٩.

الرابع : كان عيسى إذا مسح أحداً من ذوي الأمراض المزمنة والعاهات براء وتعافى باذن الله ، وفي التنزيل حكاية عنه ﴿وَأُبْرِيءُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَيِّبُ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١).

الخامس : أنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن ومعاني البركة ، وكان من عادات اليهود مسح المولود بمثل الدهن .

السادس : أن الله عز وجل مسحه أي سواه وخلقه خلقاً حسناً ، ويقال وجه مسيح أي جميل وحسن .

السابع : إنه عليه السلام مسح عند ولادته بالبركة .

الرابعة : الآيات والبراهين التي يجعلها الله عز وجل في ذات الإنسان وشواهد حاجاته ورغائبه وأسباب تيسيرها أو الموانع التي تحول دونها ، وكل فرد منها يذكر الإنسان بوجوب اللجوء إلى الله عز وجل ، وقد أنعم الله عز وجل على المسلمين إذ جعل كل واحد منهم ذكراً أو أنثى يتلو قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) والذي يدل على تسليم المسلمين والمسلمات وذرائعهم بالربوبية المطلقة لله عز وجل والحاجة إلى رحمته في سبل الهداية والنجاة .

فان قلت كان المسلمون يتلون هذه الآية في الصلاة قبل واقعة أحد ، فلماذا نزلت بهم المصيبة يومئذ ، والجواب من جهات :

الأولى : تتضمن آية البحث الخطاب من الله سبحانه للمسلمين علة نحو العموم الإستغراقي ، وبصفة الإيمان ، مما يدل على عدم مغادرتهم لمنازله قبل وأثناء وبعد المصيبة

(١) سورة النساء ١٧١.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

وفيه شاهد على ولاية ونصرة الله عز وجل لهم في كل الأحوال ،
ويدل عليه قوله تعالى ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا وَعَلَى
اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

الثانية : لم تنزل المصيبة بالمسلمين إلا بسبب إصرار الذين كفروا على
محاربتهم لطاعتهم لله عز وجل ورسوله الكريم ، وتلقوها بالصبر وقصد
القربة ورجاء الثواب ، فليس من خسارة عندهم .
وقد أكرم الله عز وجل المسلمين إذ واساهم وصبرهم بقوله تعالى
﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا
يَرْجُونَ﴾^(٢).

الثالثة : آية البحث من آيات الهداية إلى الصراط المستقيم .
الرابعة : توفيق ورشاد المسلمين بتقيدهم بأحكام الصراط والهدى عند
المصيبة وبعدها .

الخامس : ما صرفه الله عز وجل عن المسلمين من الضرر بسبب
تقيدهم بالصراط وأحكامه أكثر مما لحق بهم .
ويحتمل موضوع ومناسبة الألم في الآية أعلاه وجوهاً :
الأول : تألم المسلمين من الجراحات ، وفقد الأجيال في معركة أحد ،
وتألم الذين كفروا من خسارتهم وقتلاهم وذلتهم في معركة بدر .
الثاني : إختصاص معركة أحد بمضامين الآية أعلاه ، والمراد هو ألم
المسلمين من جراحاتهم في معركة أحد وألم المشركين من جراحاتهم
وفقدتهم طائفة منهم في معركة أحد ، وكان عدد قتلاهم يومئذ إثنين
وعشرين ، قاله ابن إسحاق^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٢٢.

(٢) سورة النساء ١٠٤.

(٣) أنظر السيرة النبوية لابن كثير ٩٣/٣.

وإن قلت قد سمى الله عز وجل هذا العدد من المشركين بأنه طرف بقوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١).

فهل يسمى الذين قتلوا من المسلمين يومئذ طرفاً أيضاً ، وأن المسلمين فقدوا طرفاً ، خاصة وأنهم أكثر من ثلاثة أضعاف عدد قتلى المشركين ، الجواب جاء لفظ الطرف في الآية أعلاه بمعنى الطائفة والجانب ، وفي التنزيل ﴿وَأَمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾^(٢) ، ولم يقطع الله عز وجل جانباً أو طائفة من المسلمين ، فقد خسر المسلمون الشهداء ولكنهم لم يموتوا ولم ينقطعوا إذ صاروا أحياء في جنات الخلد عند الله عز وجل ولم ينقطع ذكرهم إلى يوم القيامة ، كما أنعم الله عز وجل بأبناء وأخوة لهم يقومون مقامهم ، قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٣).

الثالث : إرادة ألم وحرقة المسلمين على الذين كفروا لصدهم عن سبيل الله ، وإمتناعهم عن دخول الإسلام .

الرابع : ألم المسلمين من جراحات معركة أحد ، وألم المشركين من جراحات معركة بدر ، ومعركة أحد .

وباستثناء الوجه الثاني أعلاه فإن الوجوه الأخرى من مصاديق الألم الذي تذكره الآية أعلاه ، لبيان المآثر الذي يتصف به المسلمون في مقدار وكم الألم إلى جانب التباين والتضاد في الأسباب والغايات التي تتجلى في رجاء المسلمين النصر في الدنيا ، والثواب العظيم في الآخرة ، وفيه نكتة وهي أن المصيبة تبعث المسلمين على الصبر ، وتجعلهم في شوق إلى لقاء الله

(١) سورة آل عمران ١٢٧.

(٢) سورة هود ١١٤.

(٣) سورة آل عمران ١٦٩.

سبحانه لما نالوه من الثواب بنزولها بهم وهم يدافعون عن النبوة والتنزيل ، وفي التنزيل ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

المسألة الحادية عشرة : تقدير الجمع بين الآيتين : أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم (...).

من الإعجاز في الآيات التي تتعلق موضوعها بمحنة أحد بيانها لقانون وهو شهادة الله عز وجل للمسلمين بالإيمان ، وتحملهم الأذى وتلقيهم الجراحات البليغة كمؤمنين ، ومغادرة طائفة منهم الحياة الدنيا شهداء في سبيل الله .

وليس في هذه الآيات لفظ الخسارة إنما ذكرت المصيبة بلحاظ أن الأصل فيها عدم وجود خسارة حقيقة وصدقاً عند المسلمين إلا أن يكون أذى يتعقبه الأجر والثواب ، قال تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(٢).

و(عن سعيد بن المسيب قال : أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فاتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته وانتشل ما في كنانته ثم قال : يا معشر قريش قد علمتم إنني من أركم رجلاً ، وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي فيه شيء ، ثم افعلوا ما شئتم ، وإن شئتم دللتكم على مالي وقنيتي بمكة وخليتم سبيلي).

قالوا : نعم .

فلما قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ربح البيع ، ربح البيع . ونزلت {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} (٣) (١).

(١) سورة العنكبوت ٥.

(٢) سورة آل عمران ١١١.

(٣) سورة البقرة ٢٠٧.

ومن معاني الجمع بين الآيتين تأكيد إقامة الحجة لله عز وجل على المسلمين والناس عامة.

فقد إبتلى الله عز وجل الذين كفروا بالخسارة الفادحة في أول معاركهم مع المسلمين ، ثم جاءت معركة أحد لتتزل المصيبة بالمسلمين ، فيكون من الحجة والبرهان في المقام أن معارك الإسلام لم تبدأ بخسارة المسلمين مع أنهم الأقل عدداً وعدة يومئذ .

لقد كان الإلتناء إلى الإسلام فيصلاً بين المؤمن وعادات وأقاويل الذين كفروا ، فمن الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم توالي آيات القرآن ونزولها تدريجياً وعلى مراحل زمانية ليصغي إليها المسلم ، ويقتبس منها المواعظ والعبر ، ويكون معها غنياً عن الحاجة إلى الذين كفروا وجاءت آية السياق لتخبر حن حقيقة وهي لزوم قيام المسلمين بالدفاع عن بيضة الإسلام ، وقيامهم بالضرب في الأرض للكسب ، قال تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ (٢) .

فمع هذا الكره يأتي تحريض المنافقين على القعود ، وسوء تأويلهم وإخبارهم للناس بأن المسلم الذي يبقى في المدينة يكون في مأمن من القتل أو الموت وآفات الطريق ووحشة الغربة .

لقد تضمنت آية السياق نهى المسلمين عن التشبه بالذين كفروا والمنافقين في دعوتهم المؤمنين إلى القعود عن الجهاد ، وعن السعي في الأرض للتجارة والكسب ، لبيان قانون وهو لزوم تعاهد المسلمين للتضاد بينهم وبين الذين كفروا في عالم القول والفعل من جهة دعوة المسلمين لتعظيم شعائر الله

(١) الدر المنثور ١/٤٨٠.

(٢) سورة البقرة ٢١٦.

بالحجة والبرهان ، وعدم الإصغاء لأقاويل الذين كفروا ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ^(١).

المسألة الثانية عشرة : لقد وثقت آية السياق قبح أقوال وسوء مقاصد الذين كفروا ، وكيف أنهم يحرضون عوائل المؤمنين على ترغيهم بالعودة عن الجهاد وعن تلييه نداءات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الدفاع ، وأخبرت آية البحث عن وقوع الجراحات الشديدة بالمسلمين ، وهل هذه الجراحات مصداق لقول الذين كفروا هذا في صد المؤمنين عن الإنبعاث للتغير والمرابطة في الثغور، الجواب لا ، إنما هي رد عليهم لأنها في ماهيتها زجر ودفع للذين كفروا عن المدينة وأهلها .

لقد حفظت هذه الجراحات المال والأعراض والنفوس وصارت مقدمة ليعيش أهلها في عز وأمن وإلى يوم القيامة .

إن سقوط سبعين شهيداً من المسلمين في معركة أحد سبب لتجاهر الذين كفروا بأقوالهم وسماع الناس لها ، فتفضل الله عز وجل بآية السياق ليقطع الطريق عليهم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَكْرُوا مَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ^(٢) .

ليكون الجمع بين آية البحث وآية السياق معجزة من جهات :

الأولى : مضامين كل من الآيتين .

الثانية : إبتداء آية السياق بنداء الإيمان وعطف آية البحث عليها .

وفيه شاهد على وحدة الموضوع بينهما .

الثالثة : توجه الخطاب في كل من الآيتين إلى المسلمين وبصيغة الإيمان ،

ليكون من معاني النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والذي إبتدأت به آية السياق

(١) سورة آل عمران ١١٩.

(٢) سورة آل عمران ٥٤.

دعوة المسلمين لبذل الوسع في سبيل الله حتى مع المصيبة ، ومع إنشغال المسلمين بالمصيبة وأسفهم على فوات النصر المبين في معركة أحد جاءت آية السياق لتدعوهم إلى التوقي والحيلة والحذر من كيد المنافقين ، وكأن عدواً بين ظهرائهم يترصدهم قبل وأثناء وبعد المعركة يث السموم وينشر الإشاعات ، لتكون آية السياق برهان الكشف ، وميزان البيان عن خصال المنافقين ، ومن الإعجاز فيها أنها ذكرتهم بصفة الكفر بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا...﴾^(١) لتكون صفة الكفر في المقام جامعة لكل من :

الأول : الذين كفروا وجحدوا بنبو محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أهل المدينة وما حولها ، فان قلت قد قيدت الآية الجهة التي يتوجه لها قول الذين كفروا بأنه إلى إخوانهم بقوله تعالى ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ وهل القدر المتيقن منه قول المنافقين للأنصار الذين يخرجون مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الجهاد .

الجواب المراد من الآية المعنى الأعم من جهات :

الأولى : جهة صدور القول بأن المؤمنين لو لم يخرجوا للقتال لما قتلوا .

الثانية : مضمون القول وشموله لأمر :

أولاً : الخروج للقتال .

ثانياً : الضرب في الأرض للتجارة والكسب .

ثالثاً : مرابطة المؤمنين خشية مdahمة العدو ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢) .

رابعاً : هجرة المسلمين من مكة وما حولها إلى المدينة المنورة .

(١) سورة آل عمران ١٥٦ .

(٢) سورة آل عمران ٢٠٠ .

الثالثة : الغايات والمقاصد التي يطلبها المسلمون في سفرهم وخروجهم من المدينة ، فلقد أغاظ الذين كفروا ما أنفتح على المسلمين من أبواب الرحمة والرزق الكريم والشأن العريض وتنقلهم في البلاد بصبغة الإيمان من غير خوف من القوم الظالمين ، وصيرورة هذا التنقل مناسبة كريمة للدعوة إلى الله عز وجل ، فيكون قول الذين كفروا على وجوه :

أولاً : إذا سمع الذين كفروا بنية المؤمن الخروج من المدينة للتجارة والكسب تناجوا بينهم لويبقى معنا يسلم من القتل ، وسعوا في الإيحاء والإيحاء إلى عائلته وأهله بأن في خروجه القتل والموت.

ثانياً : إذا علم الذين كفروا بأن المؤمنين خرجوا للغزو والدفاع عن بيضة الإسلام ، قالوا انتظروا سيأتون بهم قتلى ، ولو بقوا عندنا لما ماتوا وما قتلوا .

ثالثاً : إذا بلغ الذين كفروا خروج نفر من المؤمنين للرباط في الثغور أظهروا الخشية والشفقة عليهم ، وقالوا لو بقوا عندنا لم يقتلوا أي ما لهم وللرباط .

فجاءت آية السياق لتحصين عوائل المسلمين وبيوتات المدينة من أضرار ما يبثه المنافقون ، قال تعالى ﴿لَنْ يَنْتَهِيَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

الثاني : المنافقون الذين يخفون في قرارة نفوسهم الكفر والجحود بالنبوة والتنزيل ، ولكنهم يظهرون الإسلام .

الثالث : كفار مكة الذين أصروا على قتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .

الرابع : أتباع وأنصار كفار قريش .

الخامس : الأعراب الذين لم يدخلوا الإسلام .

فجاءت آية السياق بذكرهم بلفظ الذين كفروا ليفيد العموم ومن منافعه في المقام أمور :

الأول : التخفيف عن المسلمين بذكر الذين كفروا بصيغة العموم المتحد.

الثاني : تقدم ذكر الذين آمنوا في آية السياق مع إكرامهم بنداء الإيمان بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الثالث : بيان قانون وهو أن ملة الكفر واحدة .

الرابع : تنبيه وتحذير المسلمين من الذين كفروا وأقاويلهم وإشاعاتهم .

الخامس : تأكيد التباين بين المسلمين والذين كفروا حتى إذا ما نزلت المصيبة بالمسلمين فانهم لم ولن يستمعوا إلى أقاويل الذين كفروا إنما يلجأون إلى القرآن والسنة .

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة التالية ، وفيها وجوه :

الوجه الأول : صلة هذه الآية بالآية التالية ، وهو قوله تعالى ﴿وَمَا

أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذُنَ اللَّهِ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) وفيها مسائل :

المسألة الأولى : صيغة الخطاب في الآيتين سور الموجبة الكلية ، إذ يتوجه الخطاب في كل منهما من عند الله عز وجل إلى المسلمين بأمور :

الأول : البيان والكشف والوضوح ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿هَذَا

بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

الثاني : التخفيف عن المسلمين من وقع المصيبة ، وتفضل الله عز وجل

بالتخفيف عنهم من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٦٦.

(٢) سورة آل عمران ١٣٨.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

الثالث : إكرام المسلمين بحضور الخطاب الإلهي لهم ساعة المصيبة.
الرابع : منع الخلاف بين المسلمين أو الغيبة والإفتراء أثر المصيبة وقصور بعض المسلمين بترك مواضعهم.

الخامس : تفقه المسلمين في الدين.

السادس : إزدياد مهارة المسلمين في فنون القتال لتكون كل من معركة بدر ومعركة أحد من المصاديق الواقعية القهرية لقوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(١).
السابع : تشريف وإكرام المسلمين.

وهو من مصاديق المن الذي ذكرته الآية السابقة ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾^(٢) وكل آية من القرآن هي من مصاديق هذا المن من وجوه :
أولاً : نزول الآية القرآنية .

ثانياً : تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الآية القرآنية على المسلمين حين نزولها ، فليس ثمة فترة بين نزول الآية وتلاوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لها فحالما ينفصل الوحي عنه ويغادره الملك يقوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتلاوة الآية أو الآيات التي نزلت ، ويدعو الكتاب لكتابتها .

ثالثاً : تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للآية القرآنية في الصلاة وخارجها ، وليس من حصر لأوان ومناسبة تلاوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم للآية القرآنية ، وأحياناً تكون تلاوته لها على المسلمين جواباً على سؤال أو بياناً لحكم ، وهذا التعدد من مصاديق قوله تعالى ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ

(١) سورة الأنفال ٦٠.

(٢) سورة آل عمران ١٦٤.

آيَاتِهِ^(١) ودلالته على إتصال تتابع وتجدد تلاوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم آيات القرآن على المسلمين.

ومن الإعجاز في المقام ما تتضمنه آية البحث من الأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قُلْ﴾ ليكون القول فيها على وجوه :

الأول : قلنا .

الثاني : قلتم .

الثالث : قل .

الرابع : قولي .

الخامس : قلن .

رابعاً : تلاوة المسلمين للآية القرآنية .

خامساً : عمل المسلمين بمضامين الآية القرآنية .

ويتحد موضوع المصيبة لفظاً وموضوعاً إذ ذكرت مادة (أصاب) في آية البحث، ووردت في آية السياق مرة واحدة ﴿أَصَابَكُمْ﴾.

وهل يدل هذا التكرار على رجحان توالي المصائب على المسلمين ، الجواب إن قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ برزخ دون هذا التكرار .

المسألة الثانية : لقد ذكرت آية البحث مصيبة نزلت بالمسلمين وحلت بساحتهم من غير تعيين لأوانها وإن تجلّى موضوعها ، وجاءت آية السياق لتبين أوانها وماهيتها لتمنع الخلاف بين المسلمين في المصيبة التي حلت بهم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران ١٦٤.

(٢) سورة الحجرات ١٠.

فتبين ذات الآية القرآنية معاني الآية الأخرى ، ومن صيغ التخفيف عن المسلمين في المقام تعقب آية السياق البيانية لآية البحث ، وتقدير الجمع بينهما : أولاً أصابتكم مصيبة يوم التقى الجمعان).

وجاءت الآية بصيغة الجمع ﴿أَصَابَكُمْ﴾ لبيان أن فقد أي شهيد من المسلمين خسارة ومصيبة لهم جميعاً .

لقد دخلت المصيبة بيوت مكة يوم بدر وكانت بفقد أبنائهم وإخوانهم . ولم يأت هذا الفقد مجرداً بل هو مقرون بالذل والعار للذين كفروا من جهات :

الأول : قتل المشركين وهم يحاربون النبوة والتنزيل .
الثاني : إشتراك الملائكة في قتل الذين كفروا ، قال تعالى في خطاب وأمر للملائكة ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾^(١).

الثالث : إقتران قتل طائفة من الذين كفروا بهزيمة الذين بقوا من جيش المشركين ليكونوا نذراً إلى قومهم ، وكل واحد منهم شاهد في نفسه وهزيمته على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الرابع : نزول القتل بالذين كفروا بعد خروجهم في قطع الرحم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرين ومحاربتهم حسداً وعدواناً ونزلت مصيبة واقعة أحد بالمسلمين ، ولكنها أدنى من أن تشف صدور الذين كفروا لأن جراحاتهم بليغة، وللعرب والفرع الذي ألقاه الله في قلوبهم واستحوذ على جوانحهم وجوارحهم، قال تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾^(٢).

(١) سورة الأنفال ١٢.

(٢) سورة آل عمران ١٥١.

لقد كان الملاك هو سلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ،
وبقاؤه حياً ومع هذا فانه صلى الله عليه وآله وسلم لم ينهزم ولم يتقهقر من
ميدان المعركة .

المسألة الثالثة : تقدير الجمع بين الآيتين على وجهين :

الأول : أو لما أصابتكم مصيبة يوم التقى الجمعان .

الثاني : أو لما أصابتكم مصيبة يوم أحد بعد نصركم يوم بدر يوم التقى
الجمعان .

لقد ورد لفظ ﴿التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾^(١) ثلاث مرات في القرآن اثنتين
بخصوص معركة أحد وتعلق واحدة بمعركة بدر كما ورد لفظ
﴿الْجَمْعَانِ﴾ بخصوص موسى وأصحابه في ملاقات آل فرعون .

(عن ابن عباس . أن الله أوحى إلى موسى : أن أسر بعبادي . وكان بنو
إسرائيل استعاروا من قوم فرعون حلياً وثياباً . إن لنا عيداً نخرج إليه فخرج
بهم موسى ليلاً وهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف ونيف . فذلك قول فرعون {
إن هؤلاء لشرذمة قليلون}{^(٢) وخرج فرعون ومقدمته خمسمائة ألف سوى
الجنين والقلب ، فلما انتهى موسى إلى البحر أقبل يوشع بن نون على
فرسه ، فمشى على الماء ، واقتحم غيره بخيولهم فوثبوا في الماء ، وخرج
فرعون في طلبهم حين أصبح وبعدما طلعت الشمس ، فذلك قوله {
فأتبعوهم مشرقين .

فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون { فدعا موسى
ربه فغشيتهم ضبابة حالت بينهم وبينه وقيل له : اضرب بعصاك البحر .

(١) سورة آل عمران ١٦٦ .

(٢) سورة الشعراء ٥٤ .

ف فعل {فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم} ^(١) يعني الجبل . فانفلق منه اثنا عشر طريقاً .

فقالوا : انا نخاف أن توحد فيه الخيل . فدعا موسى ربه فهبت عليهم الصبا فجف ، فقالوا : انا نخاف أن يغرق منا ولا نشعر ، فقال بعصاه فنقب الماء فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضاً ، ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر .

وأقبل فرعون حتى انتهى إلى الموضع الذي عبر منه موسى وطرقه على حالها فقال له أدلاؤه : إن موسى قد سحر البحر حتى صار كما ترى ، وهو قوله {واترك البحر رهوا} ^(٢) يعني كما هو . فخذ ههنا حتى نلحقهم وهو مسيرة ثلاثة أيام في البحر .

وكان فرعون يومئذ على حصان ، فأقبل جبريل على فرس أنثى في ثلاثة وثلاثين من الملائكة ، ففرقوا الناس وتقدم جبريل فصار بين يدي فرعون وتبعه فرعون ، وصاحت الملائكة في الناس : الحقوا الملك . حتى إذا دخل آخرهم ولم يخرج أولهم؛ التقى البحر عليهم فغرقوا .

فسمع بنو إسرائيل وجبة البحر حين التقى فقالوا : ما هذا؟

قال موسى: غرق فرعون وأصحابه . فرجعوا ينظرون فألقاهم البحر على الساحل . ^(٣)

لقد ذكرت آية بيدر نصر المسلمين ونزوله من عند الله ، ولم يتم إلا بمشيئته سبحانه ، الذي أثنى على نفسه في القرآن بنسبة هذا النصر له وحده بقوله ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرِّ وَأَتَمُّ أَدْلَةٍ﴾ ^(٤) فلم يكن هذا النصر بجهود المسلمين وإن

(١) سورة الشعراء ٦٣ .

(٢) سورة الدخان ٢٥ .

(٣) الدر المشور ٣٩٣/٧ .

(٤) سورة آل عمران ١٢٣ .

وإن بذلوا الوسع في القتال ، وأخلصوا في طاعة الله تعالى ، وتفانوا في الدفاع عن النبوة والتنزيل ساعة لمعان السيوف ، نعم يمكن تقدير الآية أعلاه على وجوه :

الأول : ولقد نصركم الله ببدر إستجابة لدعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : لقد نصركم الله ببدر بالمدد من الملائكة.

الثالث : لقد نصركم الله ببدر بسيف علي وسيوف الصحابة.

الرابع : لقد نصركم الله ببدر بإصابة الذين كفروا بالجبن والخور.

الخامس : لقد نصركم الله ببدر بقوله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ

رَمَى﴾^(١).

أما خسارة المسلمين في معركة أحد فان الله عز وجل أخبر بأنها وقعت بإذنه لبيان عظيم الثواب الذي ينتظر المسلمين على هذه الخسارة.

أما الشهداء فقد انتقلوا إلى النعيم الأبدي ، وحلوا ضيوفاً على الكريم الجبار الذي بيده خزائن السموات والأرض ، ونالوا مرتبة الشفاعة وحازوا الفخر في الدنيا والآخرة .

وعن (طلحة بن عبيد الله خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما أشرفنا على حرة واقم تدلينا منها فإذا قبور بمحنية^(٢) فقلنا يا رسول الله هذه قبور اخواننا فقال هذه قبور اصحابنا ثم خرجنا فلما جئنا قبور الشهداء قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه قبور اخواننا)^(٣).

(١) سورة الأنفال ١٧.

(٢) المحنية إنعطاف الوادي.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ٥ / ٢٤٩ .

وأما الذين إشتروا في المعركة وصبروا في الميدان فقد شيدوا صرحاً من البناء الجهادي وألقوا الفزع والخوف في قلوب الذين كفروا إلى يوم القيامة ونالوا درجة الشهداء وإن ماتوا على فراش الموت و(عن معاذ بن جبل انه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول من قاتل في سبيل الله من رجل مسلم فواق ناقة فقد وجبت له الجنة، ومن سأل الله القتل من عند نفسه صادقاً ثم مات أو قتل فله أجر شهيد.

ومن جرح جرحاً في سبيل الله أو نكب نكبة فانها تجئ يوم القيامة كأغزر ما كانت لونها كالزعفران وريحها كالمسك ، ومن خرج في سبيل الله فعليه طابع الشهداء^(١).

المسألة الرابعة : تقدير الجمع بين الآيتين : وما أصابكم يوم التقى الجمعان قد أصبتم مثليه) .

لقد نصر الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين يوم بدر نصراً عظيماً ، ولم يعلم المسلمون أن الله عز وجل سيذكرهم بهذا النصر عند نزول الخسارة بهم يوم معركة أحد ، وهو من إعجاز القرآن فتأتي آية بالإخبار عن واقعة لتترشح البركة والفيض عنها ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢).

وتتجلى الرحمة في آية البحث بجذبها المسلمين إلى مقامات الصبر والرضا بقضاء الله وإعلان الثبات في مقامات الهدى بتعاهد الفرائض والعبادات.

ومن معاني الجمع بين الآيتين طرد الحزن والكآبة عن المسلمين ، ففي ساعة الشدة والمصيبة ينزل القرآن بتذكيرهم بالنصر العظيم في معركة بدر

(١) السنن الكبرى للبيهقي ١٧٠/٩.

(٢) سورة الأنعام ١٥٥.

وبعضامين الآية القرآنية التي تضمنت الإخبار عن هذا النصر بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدُرٍّ وَآتَمَّ أَذِلَّةً فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) ومن الإعجاز فيها أنها تضمنت الأمر والدعوة إلى أمرين :

الأول : تقوى الله .

الثاني : الشكر لله عز وجل على نعمة النصر .

فهل قصر المسلمون في أحد هذين الأمرين ، وصار هذا التقصير سبباً في الخسارة يوم أحد .

الجواب من تقوى الله الذي أمرت به الآية وجوب طاعة أوامر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢) ليكون من معاني قوله تعالى ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ هو أن مخالفة الرماة لأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم تقصير ، ليكون من معاني خاتمة الآية التالية وليعلم المؤمنين ، أي الذين يتعظون مما أصابهم ويتقيدون بسنن التقوى . وهل فيه تعريض بالرماة الذين تركوا مواضعهم ، الجواب لا ، إذ أن الآية التي بعد التالية تدم المنافقين على نحو الخصوص بقوله تعالى ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقُوا﴾^(٣) .

المسألة الخامسة : تقدير الجمع بين الآيتين : أولما أصابتكم مصيبة فيأذن الله .

قيدت آية البحث نزول المصيبة بإذن الله ، ويحتمل وجوهاً :

الأول : إرادة وقائع معركة أحد .

الثاني : مجئ جيش المشركين من مكة للقتال .

(١) سورة آل عمران ١٢٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٣٢ .

(٣) سورة آل عمران ١٦٧ .

الثالث : الجراحات التي أصابت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
الرابع : إنتقال سبعين من الشهداء إلى الرفيق الأعلى يوم معركة أحد ،
 قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(١).

الخامس : الجراحات التي ألمت بأهل البيت والصحابة .
السادس : حلول الأسى والحزن في بيوت المدينة المنورة .
 ففي طريق العودة من أحد مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على
 بيوت بني عبد الأشهل فسمع نساءهم يبكين قتلاهم ، فجرت دموع رسول
 الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال (لكن حمزة لا بواكي له)^(٢) .
 وهل ذرفت دموع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على خصوص
 فقد عمه حمزة أم على شهداء معركة أحد مطلقاً، الجواب هو الثاني .
السابع : حرمان المسلمين من الغنائم يوم أحد ، بعد أن صارت قاب
 قوسين أو أدنى لإنكسار وتراجع جيش المشركين في بداية المعركة ، قال
 تعالى بخصوص أول ساعات معركة أحد ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُمُ
 بِأُذُنِهِ﴾^(٣).

الثامن : إنهزام أكثر المسلمين من ميدان معركة أحد وهذا الإنهزام
 وحده مصيبة قائمة بذاتها .

وهل من المصيبة شعور المشركين بنشوة النصر يوم أحد ، الجواب لا ،
 فلم يتم أو يتحقق لهم النصر يومئذ ودونه خطر القتاد، بدليل أنهم ندموا
 وسط الطريق إلى مكة وأرادوا الإغارة على المدينة من جديد فخرج النبي
 صلى الله عليه وآله وسلم خلفهم فانهزموا .

(١) سورة البقرة ١٥٤ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٩٦/٣ .

(٣) سورة آل عمران ١٥٢ .

وقد حرص عدد من الصحابة ليلة الرجوع من معركة أحد على المبيت عند باب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع كثرة جراحاتهم خشية أن يكرّ المشركون على المدينة لإرادة قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. لتجلى أعلى مراتب الصبر والتقوى ، ويتبين للناس قانون إخلاص المسلمين وصدق إيمانهم وتفانيهم في رضوان الله وحرصهم على الذب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإدراكهم لقانون وهو أن وجوده بين ظهرانيهم منّ ونعمة عظيمة من جهات :

الأولى : إستدامة التنزيل ، فلا ينزل القرآن على غير النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من قبل ومن بعد ، وبمغادرته إلى الرفيق الأعلى إنقطع نزول آيات القرآن .

الثانية : تعليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين الكتاب والحكمة على نحو يومي بصعوده المنبر في المسجد النبوي ، وهو من مصاديق الآية السابقة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١).

الثالثة : إمامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين في الصلاة .
الرابعة : فوز سرايا المسلمين بقيادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم في ميادين القتال .

الخامسة : إضافة علوم مستفيضة من السنة النبوية القولية والفعلية تنتفع منها الأجيال المتعاقبة .

السادسة : نيل المسلمين العفو والمغفرة بوجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

(عن عبادة بن الصامت قال : قال رجل : يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال : الصبر والسماحة .

قال : أريد أفضل من ذلك . قال : لا تنهم الله في شيء من قضائه .

وأخرج البيهقي عن الحسن قال : الإيمان الصبر والسماحة الصبر عن محارم الله وأداء فرائض الله (١).

الوجه الثاني : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ

تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قَاتِلًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ (٢) وفيه مسائل :

المسألة الأولى : من الإعجاز في نظم آيات القرآن وإتصافه بتسيير تفقه المسلمين بمعاني الآيات وإعانتهم على التدبر في مضامينها القدسية إبتداء شطر من آيات القرآن بحرف العطف الواو ، وعددها (٢٢٣٢) آية وهو عدد كبير وأغلبها حرف عطف ، وتأتي بعدها الآيات التي تبدأ بهمزة القطع وعددها ٩٨٢ آية ، كما مبين في الجدول الآتي :

إحصاء الآيات بلحاظ الحرف الذي تبدأ به :

عدد الآيات التي تبدأ بحرف الواو : ٢٢٣٢

عدد الآيات التي تبدأ بهمزة القطع : ٩٨٢

عدد الآيات التي تبدأ بحرف الفاء : ٦٩٨

عدد الآيات التي تبدأ بحرف القاف : ٥٣٨

عدد الآيات التي تبدأ بحرف الياء : ٣٤٣

عدد الآيات التي تبدأ بهمزة الوصل : ٢٣٦

عدد الآيات التي تبدأ بحرف اللام : ٢٦٦

عدد الآيات التي تبدأ بحرف الميم : ١٥٥

عدد الآيات التي تبدأ بحرف الكاف : ١١٩

عدد الآيات التي تبدأ بحرف الثاء : ١٠٩

عدد الآيات التي تبدأ بحرف الهاء : ٨٧

عدد الآيات التي تبدأ بحرف الذال : ٦٥

(١) الدر المنثور ١/ ١٠٧.

(٢) سورة آل عمران ١٦٧ .

- عدد الآيات التي تبدأ بحرف الباء : ٦٣
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف التاء : ٦٣
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف السين : ٥٥
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف الراء : ٤٧
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف العين : ٤٤
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف الحاء : ٣١
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف الخاء : ٣١
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف النون : ٢٦
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف الجيم : ١٤
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف الطاء : ٧
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف الصاد : ٦
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف الضاد : ٦
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف الشين : ٤
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف الدال : ٣
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف الزاي : ٣
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف الغين : ٢
- عدد الآيات التي تبدأ بحرف الظاء : ١
- إحصاء الآيات حسب الحرف الذي تنتهي به :
- عدد الآيات التي تنتهي بحرف النون : ٣١٢٤
- عدد الآيات التي تنتهي بالألف - لفظاً - : ١١٨٩
- عدد الآيات التي تنتهي بحرف الميم : ٦٦٥
- عدد الآيات التي تنتهي بحرف الراء : ٤٥١
- عدد الآيات التي تنتهي بحرف الدال : ١٩٨
- عدد الآيات التي تنتهي بحرف الباء : ١٦٢
- عدد الآيات التي تنتهي بالتاء المربوطة - ة : ١٢٢

- عدد الآيات التي تنتهي بحرف اللام : ٦٧
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الهاء : ٤٩
عدد الآيات التي تنتهي بحرف القاف : ٤١
عدد الآيات التي تنتهي بحرف التاء : ٣٤
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الياء : ٢٦
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الظاء : ١٣
عدد الآيات التي تنتهي بحرف العين : ١٣
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الطاء : ١٢
عدد الآيات التي تنتهي بحرف السين : ١١
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الزاي : ١٠
عدد الآيات التي تنتهي بهمزة القطع : ١٠
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الصاد : ١٠
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الجيم : ٩
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الكاف : ٨
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الفاء : ٣
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الثاء : ٢
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الذال : ٢
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الشين : ٢
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الحاء : ١
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الضاد : ١
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الواو : ١
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الخاء : ٠
عدد الآيات التي تنتهي بحرف الغين : ٠

بينما يكون عدد الآيات التي تنتهي بحرف الواو هو آية واحدة أي أن حرف الواو يكون أكثر الحروف التي تبدأ بها الآيات وأقلها من جهة الإنتهاء

به باستثناء الحرف الذي لم تختتم به آية من آيات القرآن مثل الخاء والغين ،
وحتى إنتهاء الآية أعلاه من سورة النجم فأئما هو يأتي بالواو من جهة اللفظ
والقراءة وليس الرسم ﴿وَاعْبُدُوا﴾ لأنه وفق الرسم يكون الألف هو الذي
تختتم به الآية.

ومن الإعجاز أن هناك سوراً تبدأ بحرف الواو سواء لإرادة العطف أو
القسم وهي :

- الأولى : والصافات صفأ^(١).
- الثانية : والذاريات ذروا^(٢).
- الثالثة : والطور^(٣).
- الرابعة : والنجم إذا هوى^(٤).
- الخامسة : والمرسلات عرفاً^(٥).
- السادسة : والنازعات غرقا^(٦).
- السابعة : والسماء ذات البروج^(٧).
- الثامنة : والسماء والطارق^(٨).
- التاسعة : والفجر^(٩).
- العاشرة : والشمس وضحاها^(١٠).

(١) سورة الصافات ١.

(٢) سورة الذاريات ١.

(٣) سورة الطور ١.

(٤) سورة النجم ١.

(٥) سورة المرسلات ١.

(٦) سورة النازعات ١.

(٧) سورة البروج ١.

(٨) سورة الطارق ١.

(٩) سورة الفجر ١.

الحادي عشرة : والليل إذا يغشى ^(٢).

الثانية عشرة : والضحى ^(٣).

الثالثة عشرة : والتين والزيتون ^(٤).

الرابعة عشرة : والعاديات ضبحاً ^(٥).

الخامسة عشرة : والعصر ^(٦).

المسألة الثانية : تقدير الجمع بين الآيتين : أولما أصابتكم مصيبة ليعلم الله

المؤمنين) وفيه وجوه :

الأول : لقد جعل الله عز وجل الدنيا دار إختبار وإمتحان ، ومن وجوه الإمتحان ما يتعرض له المسلمون عامة فيتجلى حال المخلصين منهم والذين إستقر الإيمان في قلوبهم ، وينكشف المنافقون ، ويصيبهم الحزي في الدنيا والآخرة ، ولم يعلم أحد أن المصيبة تنزل بالمسلمين ليتبين لهم من هم المنافقون لولا آيات القرآن وبيانها لعله إذن الله عز وجل بنزول المصيبة بالمسلمين .

لقد بدأ الإسلام غريباً في مكة ، ولم يكن فيها منافقون ، ولكن حينما ظهر الإسلام في المدينة بعد هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونصر المسلمين في معركة بدر ، وقويت شوكة المسلمين .

وصار المسلمون يتمنون لقاء العدو والدفاع عن بيضة الإسلام وبذل النفس والمال في سبيله كما يدل عليه قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ

(١) سورة الشمس ١.

(٢) سورة الليل ١.

(٣) سورة الضحى ١.

(٤) سورة التين ١.

(٥) سورة العاديات ١.

(٦) سورة العصر ١.

مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١﴾ ظهرت طائفة من المنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان ويعلنون دخولهم الإسلام ، ويحضرون صلاة الجماعة خلف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولكنهم يخفون الكفر ويضمرون الشر للمسلمين ، ويتمنون أن تنزل بهم المصيبة فتفضل الله عز وجل بما لاقاه المسلمون من الخسارة يوم أحد ، لتقوم الحجة على المنافقين لأنهم يظهرون بألسنتهم خلاف ما يخفون من الكفر ومفاهيم الضلالة .

الثاني : بيان قانون وهو عند الشدائد يكون التمييز والفصل بين المؤمن والمنافق ، وهل تقع المصيبة من أجل هذا التمييز ، الجواب لا ، لأن الله عز وجل لا تستعصي عليه مسألة ، وهو الذي يفضح المنافقين بسبب أو من غير سبب لذا قدمت آية السياق علة ما أصاب المسلمين بأنه بإذن الله .
وفي الجمع بين الآيتين دعوة للمسلمين للتحلي بالإيمان في كل الأحوال ، والتنزه عن الشك وأوهام الضلالة .

الثالث : من إعجاز نظم القرآن أن قوله تعالى ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ (٢) ورد في الآية التالية ، ولم يرد في آية المصيبة ، وفيه مسائل :
الأولى : قلة خطر وضعف شأن المنافقين .

الثانية : كشف المنافقين ليس علة تامة لحدوث المصيبة والخسارة للمسلمين .

الثالثة : بيان تعدد أسباب الإمتحان التي يتعرض لها المسلمون ويكشف بها المنافقون .

وفي قوله تعالى ﴿وَإِنْ نَكُوثُ أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا إِنَّ أُمَّةَ الْكُفَرِ إِنَّهُمْ لَا آيَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْهَوْنَ﴾ (٣) ورد (عن زيد بن وهب في

(١) سورة آل عمران ١٤٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٦٦ .

(٣) سورة التوبة ١٢ .

قوله { فقاتلوا أئمة الكفر } قال : كنا عند حذيفة فقال : ما بقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة ولا من المنافقين إلا أربعة . فقال أعرابي : إنكم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم تخبروننا بأمور لا ندري ما هي ، فما بال هؤلاء الذين ييقرون بيوتنا ويسرقون اعلافنا؟! قال : أولئك الفساق ، أجل لم يبق منهم إلا أربعة ، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده^(١) .

الرابع : لما أخبرت الآية السابقة عن من الله عز وجل على المسلمين ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أفاد الجمع بين آية البحث والسياق على لطف ومن الله على المسلمين حتى في حال المصيبة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾^(٢) .

فليس من أمة يخبرها الله عز وجل بأن المصيبة التي أصابتها باذنه تعالى ، وبعد النصر المبين لها في معركة بدر ومصاحبة المن والفضل من الله عليهم لهذه المصيبة ، وتنقضي المصيبة في ساعتها ثم تأخذ وطأتها بالتضاؤل والانحسار خاصة بعد الذكر والإسترجاع ، ولكن من الله المصاحب لتلك المصيبة يكون على وجوه :

الأول : البقاء والثبات .

الثاني : النماء والزيادة في الخير .

الثالث : الخلف والعوض بالأحسن من عند الله (عن أم سلمة انها قالت سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله عز وجل انا لله وانا إليه راجعون اللهم اؤجرني في مصيبتى واخلف لي خيرا منها الا أخلف الله عز وجل له خيرا منها قالت فلما مات أبو سلمة .

(١) سورة آل عمران ١١٠ .

(٢) الدر المنثور ٢٠/٥ .

قلت : أي المسلمين خير من أبي سلمة أول بيت هاجر الي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم اني قتلها فاخلف الله عز وجل لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

قالت فارسل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له فقلت ان لي بنتا وانا غيور فقال اما ابنتها فندعو الله عز وجل ان يغنيها وادعو الله ان يذهب الغيرة^(١).

(عن أبيه ، عن جده ، قال : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجاءت التعزية ، سمعوا قائلاً يقول : إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفا من كل هالك ، ودركا من كل ما فات ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصائب من حرم الثواب)^(٢).

المسألة الثالثة : تقدير الجمع بين الآيتين : أو لما أصابتكم مصيبة يوم التقى الجمعان) .

من خصائص القرآن الإحاطة بالوقائع والأحداث وليبانه لتسلسلها الزماني ، وفيه مسائل :

الأول : حاجة المسلمين لضبط تواريخ الوقائع في الجملة .

الثانية : لزوم إستحضار المسلمين للوقائع حسب ترتيبها الزماني لما فيه من الحجة وضروب البرهان .

الثالثة : تجلي مصاديق المنّ الإلهي على المسلمين بضبط تأريخ الوقائع . لقد تضمنت آية البحث الإخبار عن سبق زمان معركة بدر على أوان معركة أحد ، فهل هو من الإعجاز التأريخي للقرآن ، أم أن القدر المتيقن من هذه السنخية من الإعجاز هو أخبار القرون الماضية والأمم السالفة.

الجواب هو الأول ، وقد يحتاج المسلمون ضبط تواريخ وترتيب الوقائع في أيام النبوة الشريفة أكثر من حاجتهم لترتيب وقائع أمم بائدة ، قال

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٦٥/٤ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٤٣٢/٨ .

تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

لقد سمى القرآن معركة بدر باسمها وأنها نصر عظيم من عند الله ، أما معركة أحد فلم تذكر باسمها في القرآن ولكن الله عز وجل سماها (يوم إلتقى الجمعان) ، وفي إشتراكها مع معركة بدر بذات الاسم نوع إعجاز ومواساة للمسلمين.

ومن الآيات في الأسماء في القرآن أنه لم يسم ملك مصر أيام يوسف عليه السلام بفرعون إذ لم يكن يطلق هذا الاسم على ملك مصر إلا بعد أيام يوسف بنحو مائتي سنة، لذا ورد إسمه في قصة موسى بأنه فرعون في آيات متعددة من القرآن، وفي التنزيل ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، وأصل هذا الاسم هو برعو، وقيل كان يعني القصر الملكي.

الرابعة : دعوة المسلمين للشكر لله عز وجل على منة وفضله بترتيب الوقائع التي حصلت للمسلمين ، فقد تقدم نصر المسلمين في معركة بدر على خسارتهم في معركة أحد بنحو ثلاثة عشر شهراً وفيه أمور :

الأول : المندوحة في الوقت لإصلاح المسلمين أنفسهم للقاء المعركة اللاحقة .

الثاني : دخول طوائف من الناس الإسلام بعد معركة بدر

الثالث : بلوغ المسلمين درجات رفيعة من العز .

الرابع : تبديد حماس قريش بالثار لقتلاهم في معركة بدر .

(١) سورة يوسف ١١١.

(٢) سورة الأعراف ١٠٤.

الخامس : عناية المسلمين بزراعاتهم .

السادس : إنتقال المسلمين إلى حال من الغنى بعد الفقر والفاقة ، إذ دخلت إلى المدينة الأموال من وجوه :

أولاً : كثرة الغنائم يوم بدر .

ثانياً : أخذ المسلمين الفداء من أسرى المشركين ، فصارت قريش ترسل الوفود ومعهم الأموال بفكاك أسراهم حتى العباس عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم دفع فدية عن نفسه وعن ابن أخيه عقيل بن أبي طالب (عن ابن عباس ، نزلت في العباس ففادي نفسه بالأربعين أوقية من ذهب) (١).

وكان فداء الأسرى متفاوتاً فمنهم من فدي بأربعين أوقية من الذهب ، ومنهم أقل (قال موسى بن عقبة : وأخذ من العباس مائة أوقية من ذهب . ومنهم من استؤجر على عمل بمقدار فدائه) (٢).

حتى الذي أنتفع من عمله وجهده من الأسرى ولم يؤخذ منه فداء فانه قام بتعليم صبيان المدينة القراءة والكتابة ، وكان كل أسير يعلم عشرة من الصبيان ، وفيه شاهد على صدق نزول القرآن من عند الله ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعو المسلمين والتابعين وأجيالهم اللاحقة إلى التعليم ويحثهم على الدراسة .

ثالثاً : إشتغال المسلمين في التجارة والضرب في الأرض ، للكسب وهو

الذي أغاظ الكفار والمنافقين ، كما ورد قبل بضع آيات بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (٣).

وفي الآية أعلاه مسائل :

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٤٦٢/٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٥١٢/٢ .

(٣) آل عمران ١٥٦ .

الأولى : دعوة المسلمين للتجارة والإنتفاع من الغنائم وفداء الأسرى للكسب والمضاربة ومعاملات البيع والشراء.

الثانية : كأن الآية تقول للمسلمين لا تنصتوا إلى أقوال الذين كفروا، ولا تسمعوا لهم ، وجاهدوا في سبيل الله وأضربوا في الأرض للتجارة. وفي الآية إنذار لكفار قريش بأن رحلة الشتاء والصيف تُسلب منهم وأن المسلمين هم الذين يتولون التجارة .

الثالثة : دعوة الناس لإجراء المعاملات التجارية مع المسلمين حيث الصدق والنزاهة والإمتناع عن اليمين الكاذبة ، والزجر عن التوسل بالأصنام.

وقد سافر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع عمه أبي طالب إلى الشام سنة ثلاث عشرة من بعد واقعة الفيل ، ونزلوا قرياً من صومعة بحيرا الراهب فنظر إلى غمامة تضلهم في الطريق حتى أضلت الشجرة التي نزل الركب في ظلها فنزل بحيرا (من صومعته وقد أمر بالطعام فصنع ثم ارسل إليهم انى قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش وأحب ان تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبيدكم وحرکم، فقال له رجل منهم والله يا بحيرا ان بك اليوم لشأنا ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيرا ما شأناك اليوم، قال له بحيرا صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحبيت ان أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم فاجتمعوا إليه. وتخلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم.

فلما نزل بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده فقال يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي قالوا له يا بحيرا ما تخلف أحد ينبغي له ان يأتيك الا غلام وهو أحدث القوم سنا فتخلف في رحالهم قال لا تفعلوا أدعوه فليحضر هذا الطعام معكم.

فقال رجل من قريش واللات^(١) والعزى^(٢) ان كان للوما بنا ان يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ثم قام إليه فاحتضنه واجلسه مع القوم.

فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرا فقال له : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى الا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، وانما قال له بحيرا ذلك لانه سمع قومه يحلفون بهما ، فزعموا ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا تسألني باللات والعزى شيئا فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما فقال له بحيرا فبالله الا ما أخبرتني عما أسألك عنه.

فقال له سلني عما بدا لك فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره ويخبره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده فلما فرغ اقبل على عمه ابي طالب فقال ما هذا الغلام منك قال ابني قال ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام ان يكون ابوه حيا قال فانه ابن اخي قال فما فعل ابوه قال مات وأمه حبلى به

قال صدقت فارجع بابن اخيك إلى بلده واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لبيغنه شرا فانه كائن لابن اخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى اقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام فزعموا ان نفرا من اهل الكتاب قد كانوا رأوا من

(١) اللات صنم وذكر أنه صخرة تتقرب لها وتعبدتها ثقيف، وقيل كان رجلاً فمات فقال عمرو بن لحي لم يمت ولكن دخل الصخرة، وعن ابن عباس: اللات رجل يلت سويق الحاج أي يعجن لهم العجين، وهناك أقوال أخرى فيه.

(٢) العزى من آلهة العرب، وقيل كان تمثالا على هيئة امرأة، ومن العرب من كان يعتقد أن اللات والعزى ومناة بنات الله .

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل ما رأى بحيرا في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه ابي طالب فأرادوه فردهم عنه بحيرا في ذلك وذكرهم الله تعالى وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفاته وأنهم ان أجمعوا لما ارادوا لم يخلصوا إليه حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما قال فتركوه وانصرفوا عنه^(١).

قال تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

ولم يرد لفظ ﴿تَجْعَلُوا اللَّهَ﴾ ولفظ ﴿عُرْضَةً﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه ويحتمل المراد من الصلح المذكور في الآية أعلاه وجهين :

الأول : الصلح والوثام وترك الخصومة والقتال بين المسلمين الذي ورد في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٣) ليكون من المطلق والمقيد، وتقييد الثاني للأول .

الثاني : إرادة الإطلاق ، وموضوع الآية أعلاه غير مقيد ، والمختار هو الثاني لذا تقدم عليه في الآية الأمر بالتقوى ليكون الصلح بما يرضي الله عز وجل ، وهو من مصاديق ما تقدم قبل ثلاث آيات ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾^(٤).

وفيه مسائل :

الأولى : إنه مصداق لقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٥).

(١) عيون الأثر ١/٦٢.

(٢) سورة البقرة ٢٢٤.

(٣) سورة الحجرات ١٠.

(٤) سورة آل عمران ١٦٢.

(٥) سورة الأنبياء ١٠٤.

الثانية : يغادر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحياة الدنيا ويبقى المسلمون يتوارثون الإصلاح بين الناس .

الثالثة : تأديب الله عز وجل للمسلمين بأن القيام بالصلح بين الناس لا يؤدي إلى تأليبهم وتعاضدهم ضد الإسلام والمسلمين .

الرابعة : الآية مصداق لإحتجاج الله عز وجل على الملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) إذ يأمر الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بالإصلاح بين الناس ، وحقن الدماء ومنع الإقتتال فيما بينهم .

ولما إحتجت الملائكة على جعل الإنسان خليفة في الأرض بقولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(٢) أجابهم الله بالآية أعلاه التي تأمر المسلمين بالإصلاح بين الناس بلباس التقوى لوجوه:

الأول : منع الفتنة بين أهل الأرض .

الثاني : صيرورة هذا الصلح سبباً للتدبر في الخلق .

الثالث : دعوة الناس للهداية والصراط المستقيم ، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو

إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣) .

الرابع : التوقي من الفساد في الأرض الذي حذرت منه الملائكة ، وفي التنزيل ﴿وَالصَّلَاحُ خَيْرٌ﴾^(٤) .

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) سورة يونس ٢٥ .

(٤) سورة النساء ١٢٨ .

ومن معاني الجمع بين الآيتين في المسألة الثالثة هذه (أولاً أصابتكم مصيبة يوم التقى الجمعان) أمور :

الأول : دعوة المسلمين لأخذ الحائط والحذر في معارك الإسلام اللاحقة .

الثاني : إحتمال إصابة المسلمين بالمصيبة في معارك لاحقة ، والحرب سجال .

الثالث : لزوم شكر المسلمين لله عز وجل لخروجهم من المعركة في سلامة من دينهم ، وهل تدل آية البحث على هذه السلامة ، الجواب نعم وهو الذي يتجلى بصيغة الخطاب في آية البحث ، وعطف السياق على الآية على آية نداء الإيمان بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١).

فلم يقف المسلمون عند التنزه عن محاكاة الذين كفروا في تحريضهم على القعود، بل خرجوا إلى الدفاع بشوق، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلَاقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(٢).

الرابع : دعوة المسلمين لذكر وبيان المصائب التي حلت بالذين كفروا من جهات :

الأولى : المصائب التي حلت بالذين كفروا في معركة بدر .

الثانية : دخول الحزن والأسى إلى كل بيوت مكة .

الثالثة : دخول طائفة جديدة من أهل مكة الإسلام ، وكان أكثرهم من فئة الشباب الذكور والأنثى لبيان موضوعية وشأن المرأة في اللبنيات الأولى

(١) سورة آل عمران ١٥٦.

(٢) سورة آل عمران ١٤٣.

للإسلام والذي تجلى بأبهى صورة بإيمان خديجة بنت خويلد زوج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإنفاقها أموالها كلها في سبيل الله .

الرابعة : تعطيل تجارة قريش إلى الشام واليمن ، وإنشغال الرجال في التحشيد والتعبئة لمعركة أحد ، ولم تكن تلك المعركة مقصودة باسمها ولكنهم كانوا يسعون لمعركة ثار ليستأصلوا فيها الإسلام ، فلم تنتهي المعركة إلا عن مصيبة بالمسلمين بما هم مؤمنون مع سلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القتل أو الأسر.

وهل هذه السلامة من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) الجواب نعم، فهي من فضل الله وأسباب حفظ وسلامة النبي حتى يتلقى كل آيات وسور القرآن ويقوم بتبليغها ، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

المسألة الرابعة : تقدير الجمع بين الآيتين : أولاً أصابتكم مصيبة فبإذن الله (فيخاطب الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين ويقول لهم : إن الخسارة التي تلقيتموها يوم أحد لم تقع إلا من عند أنفسكم وبإذن مني ، وهل يبلغ الشهداء هذا القول من عند الله أم أنه خاص بالأحياء من المسلمين.

الجواب هو الأول لأن الشهداء أحياء عند الله عز وجل . وعلى المختار بأنهم يعلمون بنزول هذه الآية ومضامينها وإن استشهدوا قبله ، فيحتمل علم الشهداء بهذه الآية من جهة أوانه وجوهاً :
الأول : علم شهداء أحد بآية البحث ساعة استشهادهم ، وهو من إكرام الله عز وجل لهم كما يدخلون الجنة قبل الأنبياء عامة المؤمنين .
الثاني : علم الشهداء بآية البحث ومضامينها ساعة نزول جبرئيل بها .

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة المائدة ٣.

الثالث : لما أخبر جبرئيل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بأية البحث علم الشهداء بها .

الرابع : لم يعلم الشهداء بأية البحث إلا بعد أن قام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتبليغها للمسلمين .

والمختار هو الأخير لأن الوحي بالقرآن من مختصات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن إعجاز القرآن الغيري جعل المسلمين يلجأون إليه ويصدرون عنه حتى في ساعة المصيبة ، فمن طبع الإنسان الإنقباض والجزع عند المصيبة والعزوف عن النصيحة والدعوة إلى تقبل المصيبة بالرضا ولكن القرآن قاهر للطبائع غير الصحيحة ، وهذا القهر من مصاديق تلاوة المسلمين عدة مرات في اليوم وعلى نحو الوجوب العيني لقوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(١) فما دامت المصيبة بإذن الله فان المسلمين يتلقونها بالقبول والرضا .

وهل قوله تعالى ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ شاهد على الأجر والثواب على المصيبة الجواب نعم .

قال تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾^(٢) .

المسألة الخامسة : تقدير الجمع بين الآيتين : أصابتكم مصيبة في معركة أحد ليعلم الله المؤمنين) .

لقد بعث الله عز وجل النبي محمداً وأنزل معه المعجزات الحسية التي كانت تترى على يديه من غير إنقطاع وهذه الكثرة في المعجزات وجلالها وظهورها وإتصافها بالتحدي وعجز الخلائق عن الإتيان بمثلها من مصاديق

(١) سورة الفاتحة ٦ .

(٢) سورة التغابن ١١ .

قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) فكل معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هي رحمة بالناس عقلية كانت أو حسية والذي لا يتعظ من معجزة تأتيه الأخرى وتلح عليه ثالثة وتنفذ رابعة إلى شغاف قلبه .
ومن أسماء الله عز وجل العالم والعليم، وعلام الغيوب، وهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون ، ويشني الله عز وجل على نفسه في القرآن بقوله ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^(٢) .

فجاءت الآية لبيان الإرادة تمييز الصادق في إيمانه عن الكاذب فيما يدعيه من الإيمان أي الثواب المؤمن، وكشف المنافق والكاذب ، وفيه دلالة على أن عدد المؤمنين في زيادة وانهم يستطيعون الذب عن النبوة والتنزيل ، وملاقاة الذين كفروا في ميدان القتال ، ومتديات الإحتجاج لتضمن المصيبة يوم أحد أموراً :

الأول : الشهادة للمسلمين ببلوغ مرتبة الإيمان .

الثاني : كشف المنافقين والذين يدعون مرتبة الإيمان كذباً وزوراً .

الثالث : حث المسلمين على الإحتراز للمعارك اللاحقة .

وهل كان حضور للمنافقين في معركة الخندق التي وقعت بعد معركة أحد بنحو سنتين، الجواب نعم، قال تعالى ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾^(٣) أي تمرنوا واعتادوا عليه وصار سجية لهم .

(وفي المثل : تمرّد مارّد وعزّ الإباق)^(٤).

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة طه ٧.

(٣) سورة التوبة ١٠١.

(٤) الكشف والبيان للثعلبي ٢١٣/٦.

(عن ابن جريج في قوله {مردوا على النفاق} قال : ماتوا عليه عبد الله بن أبي ، وأبو عامر الراهب ، والجد بن قيس)^(١).

ولكن هذا القول من القياس مع الفارق بين الأفراد الثلاثة أعلاه ، فقد كان عبد الله بن أبي والجد بن قيس مع المسلمين ويحضرون صلاة الجماعة ، أما أبو عامر الراهب فأمره مختلف واسمه عبد عمرو بن صيفي وكان رأس في الجاهلية ، ودخل دين النصارى وترهب ، ودعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للإسلام فأبى عليه. ولم يكتف أبو عامر بالإمتناع عن دخول الإسلام.

وأخذ يجاهر بعداوته لرسول الله ، فدعى عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، لقد أغاضه الناس من حوله ودخلهم الإسلام وحضورهم الصلوات اليومية الخمسة ، ثم جاءت معركة بدر بنصر مبين للمسلمين وتغير وجه المدينة بإشراقة الإيمان المقرون بالنصر والعز والتحدي وجذب الناس إلى الهدى .

فخرج من المدينة قاصداً مكة وأخذ يحرض كفار قريش على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويذكّرهم بثارات بدر ويحثهم على قتال النبي والمسلمين ، ووعدهم أن قومه من الأوس سيميلون إليه في القتال لأنه سيدهم و(قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تقولوا الراهب ولكن قولوا الفاسق)^(٢).

وكان من أوائل الذين برزوا بعد حامل لواء المشركين فحينما إقترب الفريقان بعضهم من بعض وصار رماة المسلمين يرشقون خيل المشركين بالنبل تولوا هاربين فبرز طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين وقال : أنا قاصم من يبارزني .

(١) الدر المنثور ١٤٩/٥.

(٢) عيون الأثر ٢٩٢/١.

ويبدو أنه من أعراف القتال آنذاك إذا برز أحدهم وطلب المبارزة لا يرمي في الغالب بالسهام والنبال إنما يتقدم له أحد الفرسان والشجعان من الطرف الآخر .

ولم يخرج إليه أحد من المسلمين ، وأخذ يكرر عبارته أنا قاصم ثم أضاف (يا اصحاب محمد زعمتم ان قتلاكم إلى الجنة وان قتلانا في النار كذبتهم واللات لو تعلمون ذلك حقا لخرج إلي بعضكم فخرج إليه علي بن أبي طالب فاختلفا ضربتين فقتله علي عليه السلام)^(١).

وبرز أبو عامر الراهب من صف المشركين وتعرف على قومه ، وعرفهم نفسه ، ونادى بعضهم بأسمائهم ودعاهم إليه (فقالوا له : لا أنعم الله لك عيناً يا فاسق ، فقال : لقد أصاب قومي بعدي شر .

ثم قاتل المسلمين قتالاً شديداً ولم يقاتل عبد الله بن أبي أوجد بن قيس المسلمين ، وإن وردت آيات عديدة في ذمهم كمنافقين ، وإنسحب عبد الله بن أبي من الشوط في سير النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى معركة أحد ، وجاءت آية بدم فعل جد بن قيس في معركة الخندق من غير ذكر اسمه في الآية أو تفسيرها من قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ونزل في أبي عامر قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَفِرْقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾^(٢) إذ كان يكتب للمنافقين ويمنيهم فبنوا مسجداً ضراراً ، وبنوه في الظاهرة في حي بني سليم ، قريباً من مسجد قباء ، والضرار إلى السعي في الإضرار ، وسيأتي إن شاء الله بحث مستقل عن مسجد ضرار ، الذي أراد المنافقون أن يكون محل إجتماعهم للتأليب على المسلمين.

(١) عيون الأثر ١/٤١٠.

(٢) سورة التوبة ١٠٧.

إعجاز الآية الذاتي

لقد تكررت في آية البحث مادة (أصاب) ثلاث مرات وهي :

الأولى : أصابتكم .

الثانية : مصيبة .

الثالثة : أصبتم .

ويمكن أن تسمى آية البحث آية السلامة من المصيبة ، فان قلت لماذا لا

تسمى آية المصيبة ، الجواب نزلت آية البحث لأمر :

الأول : تذكير المسلمين بمصيبة الذين كفروا يوم بدر .

الثاني : رفع ضرر مصيبة واقعة أحد عن المسلمين .

الثالث : تهيئة أذهان المسلمين لوقائع في قادم الأيام ، فقد كان

المشركون يطلبون الثأر ، ويريدون الإنتقام والإجهاز على الإسلام .

ومن مفاهيم القتال دلالة النصر على القوة والتفوق على العدو ،

ودلالة الخسارة على الضعف والقلّة في العدد أو العدة أو هما معاً في ملاقاته

العدو .

ولكن القرآن جاء بمفاهيم جديدة يتجلى فيها الإعجاز منها :

الأول : يأتي النصر بمعجزة وفضل من عند الله خلافاً للأسباب

والحساب .

الثاني : موضوعية الدعاء في تحقيق النصر وقد اجتهد النبي صلى الله

عليه وآله وسلم في الدعاء في ليلة معركة بدر ويومها ، وهل من موضوعية

لدعاء النبي يومئذ في نزول قوله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ

رَمَى﴾^(١) .

الجواب نعم ، وأخرج ابن عساكر عن مكحول لما كان يوم بدر سمعنا

صوتاً وقع من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست ،

ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك الحصباء وقال : شأهت الوجوه . فانهز منا ، فذلك قول الله تعالى {وما رميت إذ رميت} (١).

الثالث : صيرورة خسارة المسلمين في معركة أحد نصراً لهم ببركة آيات القرآن، وما فيها من البيان والمنّ من الله عز وجل.

من إعجاز الآية مجيؤها بصيغة الماضي فيما يخص المصيبة والبلاء لبيان إنقطاعها وإنهاء موضوعها ، وإن كان أثر المصيبة أعم من وقعها ، ولم تقل الآية (إذا اصابكم مصيبة) وما يدل عليه من إحتمال تجدد المصيبة.

ومن الإعجاز في التوافق والإنسجام بين التنزيل وبيان السنة النبوية له قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد (لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن) (٢).

إذ ورد عن كعب بن مالك (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد عطش يومئذ عطشاً شديداً، ذهب محمد إلى قناة وأخذ سقاءه حتى استقى من حسي قناة عند قصور التيمين اليوم فأتي بماء عذب فشرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعا لمحمد بن مسلمة بخير. وجعل الدم لا ينقطع، وجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لن ينالوا منا مثلها حتى تستلموا الركن .

فلما رأت فاطمة الدم لا يرقاً وهي تغسل الدم، وعلي عليه السلام يصب الماء عليها بالجن أخذت قطعة حصير فأحرقتة حتى صار رماداً، ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم. ويقال إنها داوته بصوفة محترقة. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد يداوي الجرح الذي في وجهه بعظم بال حتى يذهب أثره.

(١) الدر المنثور ٤/٤٩٤.

(٢) الخصائص الكبرى ١/٣٦٨.

ولقد مكث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجد وهن ضربة ابن قمئة على عاتقه شهراً أو أكثر من شهر، ويداوي الأثر الذي بوجهه بعظم بال^(١).

وظاهر الحديث أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كان يكره القول بأن قريشاً لن يصيب من المسلمين مثل المصيبة التي حلت بهم يوم أحد ، وفيه مسائل :

الأولى : مواساة المسلمين .

الثانية : البشارة بالنصر .

الثالثة : طرد اليأس والقنوط عن نفوس المسلمين .

الرابعة : منع طرو الكآبة على مجتمعات المسلمين .

الخامسة : بعث الخوف والفزع في قلوب الذين كفروا .

السادسة : دلالة قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (لن ينالوا منا

مثلها) على تحسن أحوال المسلمين وكثرة عددهم وإزدياد عددهم وتنامي

قوتهم قال تعالى ﴿وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً وَجَعَلْنَاهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٢).

السابعة : منع ظهور الفتنة والشقاق واللوم والتوبيخ بين المسلمين .

الثامنة : قطع الطريق على المنافقين ، وزجرهم وجعلهم عاجزين عن

الشماتة بالمسلمين .

(١) مغازي الواقدي ٩٥/١.

(٢) سورة القصص ٥.

ولقد تقدم قبل تسع آيات قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَىٰ لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(١).

فجاء قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لإعانة المسلمين ومنعهم من محاكاة الذين كفروا في قولهم وتحريضهم المسلمين لتكون بشارة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين في الأمن والسلامة من تكرار مصيبتهم في معركة أحد تعضيداً وعوناً للمسلمين للإمتناع عن محاكاة الذين كفروا والمنافقين.

ليتجلى قانون وهو تعضيد السنة النبوية للآية القرآنية وإعانة المسلمين للعمل بمضامينها.

لقد وصفت الآية السابقة المسلمين بأنهم مؤمنون بقوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾^(٢).

وأخبرت عن من الله عز وجل عليهم لتأتي بعدها آية تخبر عن نزول المصيبة بالذين من الله عليهم لبيان أن الدنيا تجمع المتناقض وتفرق المجتمع ، وتقرب البعيد ، وتبعد القريب ، وما يجهله الإنسان من البلاء أكثر مما يعلمه. وهو من ضروب حاجته في الدنيا ولزوم لجوئه إلى الدعاء ، فلذا جاءت آيات القرآن بالإسترجاع عند المصيبة ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٥٦.

(٢) سورة آل عمران ١٦٤.

(٣) سورة البقرة ١٥٦.

ويمكن تسمية آية البحث آية (أولاً أصابتكم) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية، وورد لفظ (أصابتكم) ثلاث مراتب في القرآن، كل واحدة منها خطاب للمسلمين^(١).

إعجاز الآية الغيري

لقد ابتدأت آية البحث بالخطاب والإستفهام من المسلمين عما أصابهم يوم معركة أحد ، وهو من فضل الله عز وجل لإعانتهم على التدبر في حالهم ومعرفة أسباب الخسارة لتداركها ، وفيه شاهد بأن الله عز وجل لم يترك المسلمين منفردين يلاقون المصائب وحدهم : بل تفضل وشد عضدهم بآية البحث التي حلت بساحتهم يوم أحد ، وتبين أسبابها الذاتية فلولا قصور من المدافعين أنفسهم لما وقعت هذه المصيبة ، إذ كانت بداية المعركة نصراً حاسماً للمسلمين لا يختلف عن بدايات معركة أحد ، ففي يوم معركة بدر كان النبي ينتظر ما يفعله المشركون.

ومن الآيات أن المسلمين منقادون لأوامر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يفعلون يومئذ إلا ما يأمرهم ، وهو من مصاديق الآية السابقة ﴿رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾^(٢).

فخرج عتبة بن ربيعة وهو أبو هند زوجة أبي سفيان وأم معاوية ابن أبي سفيان ، ومع عتبة أخوة شبية بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة وهم من وجوه قريش فتجاوزوا الصف وصاروا بين الفريقين ، ونادوا للمبارزة فكانت الشرارة الأولى للحرب ، وإيذاناً بأن المشركين لن يرضوا بالهدنة أو الصلح أو التسوية مع أن موضوع القتال معدوم إذ أرسل أبو سفيان لهم بأن قافلته صارت في أمان وأنه متوجه بها إلى مكة ، وكانت ألفاً من العير المحملة بالبضائع ، فسمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعوتهم إلى المبارزة ،

(١) أنظر سورة النساء ٧٢ ، سورة المائدة ١٠٦.

(٢) سورة آل عمران ١٦٤.

وبادر ثلاثة من شباب الأنصار إلى لقائهم وهم عوف ومعاذ إبن الحارث وعبد الله بن رواحة .

فقالوا من أنتم ؟ انتظروا أن يعرفوا بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ولكنهم قالوا : نحن رهط من الأنصار ، وفيه مسائل :

الأولى : موعظة لكفار قريش فاذا كان أهل المدينة ينصرون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويفدونهم بأرواحهم ، فمن باب الأولوية أن أبناء عمومته من قريش يذبون عنه أو لا أقل لا يقاتلونه .

الثانية : بيان حقيقة وهي رسوخ الإسلام ، وتنظيم مجتمعات المسلمين وفق التقسيم القرآني المبارك إلى مهاجرين وأنصار ، قال تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾^(١).

الثالثة : إرادة بيان قانون وهو أن الذين كفروا لا يستطيعون القضاء على الإسلام ، فقد إستقر في النفوس والمجتمعات .

الرابعة : إخبار قريش بأن الأنصار يقاتلونكم جميعاً ، وأن الأوس والخزرج يلبون نداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للجهاد ، وفيه إنذار لكفار قريش للتوقف عن القتال .

الخامسة : لتسمية الأنصار أسرار خاصة ، فهم عازمون على نصره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأي حال من الأحوال أما الذين كفروا فليس لهم من ناصر .

(وَالْأَنْصَارُ : جَمْعُ نَاصِرٍ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ فِي جَمْعِ فَاعِلٍ وَلَكِنْ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ الْأَلْفِ مِنْ نَاصِرٍ لِأَنَّهَا زَائِدَةٌ فَالاسْمُ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِهَا : ثَلَاثِي وَالثَّلَاثِي يَجْمَعُ عَلَى أَفْعَالٍ وَقَدْ قَالُوا فِي نَحْوِهِ صَاحِبٌ وَأَصْحَابٌ وَشَاهِدٌ وَأَشْهَادٌ .

وَذَكَرَ قَوْلَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلنَّفَرِ مِنَ الْأَنْصَارِ : أَمِنْ مَوَالِي يَهُودِ أَنْتُمْ ؟ أَيُّ مِنْ حُلَفَائِهِمْ وَالْمَوَالِي يَجْمَعُ الْحَلِيفَ وَابْنَ الْعَمِّ وَالْمُعْتَقَ وَالْمُعْتَقَ لِأَنَّهُ مَفْعَلٌ مِنَ الْوَلَايَةِ وَجَاءَ عَلَى وَزْنِ مَفْعَلٍ لِأَنَّهُ مَفْرَعٌ وَمُلْجَأٌ لَوْلِيهِ فَجَاءَ عَلَى وَزْنِ مَا هُوَ فِي مَعْنَاهُ.

وَذَكَرَ النَّفَرُ الْقَادِمِينَ فِي الْعَامِ الثَّانِي الَّذِينَ بَايَعُوهُ بَيْعَةَ النِّسَاءِ وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْعَةَ النِّسَاءِ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ {يُبَايِعُنكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا} ^(١) الْآيَةُ فَأَرَادَ بَيْعَةَ النِّسَاءِ أَنَّهُمْ لَمْ يُبَايَعُوهُ عَلَى الْقِتَالِ وَكَانَتْ مُبَايَعَتُهُ لِلنِّسَاءِ أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِنَ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ فَإِذَا أَقْرَنَ بِالنِّسَاءِ قَالَ قَدْ بَايَعْتُكُمْ وَمَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ فِي مُبَايَعَةٍ... ^(٢).

الآية سلاح

من خصائص الحياة الدنيا تعاقب أيامها، وكل يوم يأتي معه الفرح أو الحزن أو هما معاً ، فقد يبدأ اليوم بالغبطة والسعادة وينتهي بالحزن أو بالعكس لذا دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين إلى التوقي من البلاء وأسباب الحزن .

ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم : باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطى الصدقة ^(٣).

ويأتي الفرح والحزن على نحو القضية الشخصية أو العامة التي تتغشى الجماعة والطائفة والأمة ، ووقائع الإسلام مما يتغشى الأمة بأجيالها المتعاقبة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ^(٤) فما نزل بالمسلمين يوم معركة أحد أمر يحزن كل مسلم ومسلمة إلى يوم القيامة، وهو حال وشأن لم يقع لأمة من الأمم.

(١) سورة الممتحنة ١٢.

(٢) أنظر الروض الأنف ٢/٢٤٤.

(٣) الدر المنثور ٢/٢١٨.

(٤) سورة آل عمران ١١٠.

ومن إعجاز القرآن أن صارت معركة أحد أكثر معارك الإسلام التي ذكرت في القرآن ، فان قلت أن النصارى يذكرون مصيبة السيد المسيح ، الجواب نعم ، وقد ذكر القرآن ما لاقاه عيسى عليه السلام والأنبياء الآخرون من قومهم من الأذى ، ولكن الآية القرآنية تجعل الواقعة حية طرية في كل زمان .

ومن خصائص الآية القرآنية أنها سلاح من جهات :

الأولى : الآية القرآنية سلاح شخصي فتحفظ حاملها وتاليها من الشرور.

الثانية : الآية القرآنية حرز للجماعة والطائفة والأمة ، وقد شرع الله عز وجل صلاة الجماعة وكان رسوله الكريم هو الإمام في الفرائض اليومية الخمسة أيام حياته .

وقيل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سهى يوماً في صلاته كيلاً يخرج إمام الجماعة إذا سهى في الصلاة ويمتنع عن الخروج إلى الشارع أو الحضور إلى المسجد ، ومما هو ثابت عند المسلمين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقوم بنفسه بإمامة الصلوات اليومية الخمسة ، وهو معصوم، بينما ليس من إمام جماعة إلا ويوكل غيره في كل بضعة أيام أو أيام معدودة ومن غير سفر أو غياب وأمر قهري، وقد قال تعالى ﴿كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١).

الثالثة : الآية القرآنية حفظ لأحكام الشريعة وباعث للمسلمين للعمل بها.

الرابعة : الآية القرآنية آلة للتذكير، وسلاح ضد السهو والنسيان .

الخامس : من المعاني القدسية والغايات السامية للآية القرآنية أنها سلاح ضد الفرقة والاختلاف .

السادسة : الآية القرآنية سلاح لتهذيب اللسان وحجبه عن الغيبة والنميمة والكلام القبيح مطلقاً .

وتشمل هذه البركة والمعجزة الغيرية للقرآن أفراداً :

الأول : الذي يتلو الآية القرآنية .

الثاني : الذي يستمع للآية القرآنية عن قصد ، قال تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١).

الثالث : الذي يسمع الآية القرآنية عرضاً من غير قصد الإستماع .

الرابع : الذي ينقل له خبر تلاوة الآية القرآنية .

الخامس : الذي يقرأ الآية القرآنية في المصحف أو في الكتب والصحف أو يقرأ تلاوة المسلم لها فيتعظ من قراءته .

وهل من قاعدة ثابتة في مراتب الإنتفاع من التلاوة بين الخمسة أعلاه ، والجواب لا ، وهو من إعجاز القرآن ومصاديق عموم الرحمة الإلهية ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

مفهوم الآية

إبتدأت آية البحث بذكر مصيبة نزلت بالمسلمين ويدل ظاهر الآية على أن هذه المصيبة عامة عند المسلمين بخسارتهم في معركة أحد ليدل هذا التعيين على قانون وهو قلة المصائب التي نزلت بالمسلمين ، والخسائر التي تعرضوا لها .

ومن كتاب للإمام علي عليه السلام (إلى عبد الله بن العباس: أما بعد فإنك لست بسابق أجلك ولا مرزوق ما ليس لك واعلم بأن الدهر يومان يوم لك ويوم عليك وأن الدنيا دار دول فما كان منها لك أتاك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك)^(٢).

(١) سورة الأعراف ٢٠٤.

(٢) البحار ٤٩٨/٣٣.

لقد ذكرت الآية التالية أن المصيبة والخسارة الجسيمة وسقوط سبعين شهيداً من المسلمين في معركة أحد إنما هو ﴿فَيَاذَنْبُ اللَّهِ﴾^(١) وفيه مسائل :

الأولى : سلامة المسلمين من الإفتتان بالمشركين وقوتهم .

الثانية : تحصين المسلمين وسلامتهم من الإرتداد .

الثالثة : تنمية ملكة الإحتجاج عند المسلمين .

الرابعة : زيادة إيمان المسلمين وتفويض أمورهم إلى الله .

الخامسة : الإكثار من الإسترجاع وذكر الله .

السادسة : الدعاء وسؤال النصر من الله ، وسلامة المسلمين من تجدد وتكرار الخسارة .

السابعة : قطع جبل الشماتة عن المشركين لما أصاب المسلمين ، إذ يرون المسلمين لم يهنوا ولم يضعفوا مع المصيبة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾^(٢) .

الثامنة : تفقه المسلمين في المعارف الإلهية ، وإدراك قانون من الإرادة التكوينية وهو لا يقع أمر في الأرض إلا بإذن الله ، وأنه سبحانه قد يأذن بنزول المصيبة بالمسلمين لمصلحة ومنافع هو أعلم بها ، وفي التنزيل ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

ومن من الله عز وجل على المسلمين أنه ذكر مع مصيبة المسلمين في معركة أحد نصرهم المبين في معركة بدر وأنهم كسبوا فيها ضعف ما خسروا يوم أحد ، لتأتي الأيام بالفتح للمسلمين ، قال تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٤) فتكون حال المسلمين على الترتيب الآتي :

(١) سورة البقرة ١٦٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٥١ .

(٣) سورة آل عمران ٦٦ .

(٤) سورة الفتح ١ .

الأول : نصر مبين يوم بدر .

الثاني : مصيبة المسلمين يوم أحد .

الثالث : سلامة المسلمين يوم الخندق .

الرابع : الفتح للمسلمين يوم صلح الحديبية ثم فتح مكة .

لتكون آية البحث مواساة للمسلمين ودعوة لهم للصبر ، وفي التنزيل

﴿فَإِذَا مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِذَا مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(١).

لقد تساءل المسلمون فيما بينهم كيف وقعت المصيبة وخسرنا في معركة أحد ، والله عز وجل قد وعدنا النصر وبه بشرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتفضل الله عز وجل وأجاب المسلمين على تساؤلهم واستغرابهم ودهشتهم ، وهو من إكرام الله عز وجل لهم ومنه عليهم . ثم تفضل الله عز وجل وبين للمسلمين أسباب الخسارة يوم أحد ، وعائديتها لهم ، وأنهم السبب في نزولها بهم ، وهو غاية التأديب والإصلاح ليكون من مفاهيم آية البحث : قل هو من عند أنفسكم فلا تعودوا لمثله .

وهل يكون من وجوه الآية الكريمة دعوة المسلمين للمقارنة بين حالهم التي جلبت النصر يوم بدر وحالهم التي صارت سبباً للخسارة يوم أحد ، الجواب نعم ، وفيه مناسبة للإرتقاء في الدراسات المقارنة .

وأختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

ليبين قرب النصر من المسلمين لأن الله عز وجل قادر عليه وهو سبحانه يحب الرسول ويحب المؤمنين ، وفي فتح خيبر ورد عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار يفتح الله عليه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فبات الناس متشوقين فلما أصبح قال أين علي قالوا يا رسول الله ما يبصر قال اثنوني به فأتي به فقال له النبي (صلى الله

عليه وسلم) ادن مني فدنا منه فتفل في عينيه ومسحهما بيده فقام علي من بين يديه كأنه لم يرمد قط^(١).

الآية لطف

إبتدأت آية البحث بالإستفهام الإنكاري في خطاب من عند الله عز وجل إلى المسلمين ، ويحتمل في موضوعه وجوهاً :

الأول : إرادة التوبيخ والتبكيت لما فيه من الإنكار .

الثاني : المقصود الإكرام .

الثالث : التأديب والإصلاح .

الرابع : بيان علة وسبب ما أصاب المسلمين .

والصحيح هو الثاني والثالث أعلاه ، وهو من اللطف الإلهي بالمسلمين ، فليس من ملازمة بين الإستفهام الإنكاري وبين التوبيخ ونحوه ، إنما جاء هذا الإستفهام من الله عز وجل إلى المؤمنين بالتوحيد والنبوة والتنزيل وهم في حال مصيبة وأذى لحقهم بسبب إخلاصهم في طاعته ، ودفاعهم عن شخص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام .

وفي حديث (عن أبي سعيد : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة)^(٢).

وهل يشمل اللطف من الله عز وجل في بداية البحث غير المسلمين ، الجواب نعم ، لما فيه من الترغيب في الإسلام والزجر عن الجحود بالنبوة أو التعدي على حرمة المسلمين .

(١) تاريخ دمشق ٢١٩/٤١.

(٢) الدر المنثور ٢١١/٣.

ويتجلى اللطف بتقدير الآية : أولما أصابتكم مصيبة في سبيلي وإتباع (رضواني) ليكون هذا اللطف من مصاديق ما ورد قبل آيتين بقوله تعالى ﴿هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١) وبيان أن تلقي المصيبة في مرضاة الله إنما هو درجة ورفعة. ومن اللطف في آية البحث إقتران ذكر النصر في معركة بدر بالخسارة في معركة أحد أي أن المسلمين لم يهزموا في معركة أحد ، ولم يخسروا تلك المعركة إنما نزلت بهم خسارة في الأرواح والإبدان وحرمان من النصر والغنائم الكثيرة فهو مصيبة وليس هزيمة .

وهو من اللطف الإلهي في آية البحث والإعجاز في كلمات الآية والتذكير بالنصر والنعمة العظيمة المستديمة عند المصيبة يخفف من وطأة المصيبة ، وتقدير آية البحث : أولما أصبتم أضعاف هذه الخسارة). إن الله عز وجل يعلم ما سيلقى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون يوم معركة أحد ، ومن قبل أن يخلق آدم ، ويعلم أن مصيبتهم في معركة أحد هي من لطفه تعالى بهم ، قال تعالى ﴿الْأَيْعَلُمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢).

فقرنت الآية أعلاه علم الله بأحوال باسم من أسمائه عز وجل وأنه هو اللطيف الخبير الذي يعلم الخير للمسلمين في كل من :
الأول : معركة بدر ونصر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين فيها ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(٣).
الثاني : خسارة المسلمين في معركة بدر .

(١) سورة آل عمران ١٦٣.

(٢) سورة الملك ١٤.

(٣) سورة آل عمران ١٢٣.

الثالث : الجمع بين نصر المسلمين في معركة بدر ، وخسارتهم في معركة أحد .

ومن مصاديق لطف الله بالناس أنه يحسن إليهم ويدفع عنهم من حيث لا يعلمون ، ويأتيهم بالمنافع من حيث لا يحتسبون ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^(١).

ومن الإعجاز أن مضامين الآيتين أعلاه تنطبق على معركة أحد ، وتفيد الإخبار بأن العاقبة هي النصر للمسلمين ، وتبشرهم بالمخرج والسييل لتدارك الخسارة في معركة أحد ، وصيرورتها سبباً للنصر في المعارك اللاحقة ، وفيه بعث للمسلمين للتوكل على الله سبحانه ، والتنزه من الشك وأسباب الريب ، فلا يظن بعضهم أن الله عز وجل ترك نصرهم ، ومن الإعجاز في إمامة القرآن للمسلمين نزول قوله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾^(٢) وهو في مكة .

(عن ابن عباس قال : لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً ، فعير بذلك ، فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه ، فأنزل الله {والضحى} ♦ والليل إذا سجى} ^(٣) يعني أقبل { ما ودعك ربك وما قلى} ^(٤)).

ليبان قانون أن الله عز وجل لن يترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ميدان المعركة ولن يترك الذي نصره واتبعوه ، فجاءت آية البحث لتتضمن اللطف من عند الله من جهات :

(١) سورة الطلاق ٢-٣.

(٢) سورة الضحى ٣.

(٣) سورة الضحى ١-٢.

(٤) الدر المنثور ١٠/٢٨٤.

الأولى : بيان أسباب خسارة المسلمين في معركة أحد .

الثانية : رضا الله عز وجل عن المسلمين وعدم ترتب خسارتهم يوم معركة أحد عن غضب أو سخط من عند الله ، وهو من الإعجاز في نظم آيات القرآن ، ومن تقدم قبل آيتين ﴿ كُنْ بَاءً بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمَ وَبُشْرَ الْمَصِيرِ ﴾^(١) .

فخروج المسلمين لمعركة أحد من اتباع رضوان الله عز وجل ، وقدموهم للمشركين للقتال سبب لسخط الله عليهم .

الثالثة : تجديد ذكرى النصر في معركة بدر ، ودعوة المسلمين لأمر :

الأول : المناجاة بالنصر في معركة بدر .

الثاني : ذكر وقائع معركة بدر .

الثالث : سلامة المسلمين في معركة بدر من مخالفة أوامر النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الرابع : سرعة النصر في معركة بدر .

الخامس : الغنائم العظيمة التي جلبها المسلمون للمدينة في معركة بدر . ومن الإعجاز في السنة الدفاعية أن تلك الغنائم لم تنقطع عند دخول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بها إلى المدينة ، فقد كانت توليدية ، ومنها البديل والعوض الذي أخذه المسلمون من الذين كفروا عن الأسرى ، وكان بالدينار الذهبي والدرهم الفضي ، وبمقادير من الأوقيات ، وتساوي الأوقية الواحدة أيام النبوة أربعين درهماً .

وقد تعني الأوقية الأونصة ، وهي جزء من اثني عشر جزء من الرطل .

الرابعة : دلالة آية البحث بأن الله عز وجل لم ولن يترك النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين ، وأخبرت الآية التالية بأن ما لحق

المسلمين من الخسارة يوم أحد هو ﴿فَبَإِذْنِ اللَّهِ﴾ لبيان قانون وهو عدم ترك الله عز وجل لهم.

ليكون من معاني الآية: وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وسينتقم لكم) كما سيأتي بيانه في الجزء التالي وهو الثالث والخمسون بعد المائة^(١).

الخامسة : بيان علة الخسارة، وهي مخالفة الرماة لأوامر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنهزم أكثر المسلمين وفيه دعوة للمسلمين للتقيد بطاعة الرسول في ميدان المعركة ، وفي التنزيل ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٢).

إفادات الآية

من فضل الله عز وجل على العبادة أنه لطيف بهم يقرب إليهم مصالحهم ويغفلون عن منافعهم فتأتيهم طوعاً وإنقياداً ويوصلهم إلى مآربهم وحاجاتهم بيسر ورفق يضيئ لهم سبل الهداية في أمور الدين والدنيا ، ويفيض عليهم البركة ويتفضل بنشر المناقب وستر المثالب ، ويلطف بالمؤمنين فيجعل الإفادات المتجددة تترشح عن الآية القرآنية ومنها آية البحث التي تتضمن الإخبار عن واقعة أحد وإصرار كفار قريش على القتال فيها ، وتكبد المسلمين الخسائر الفادحة من غير أن يخسروا المعركة أو ينهزموا فيها لبيان قانون وهو : أن الأنبياء وأصحابهم قد يلاقون الأذى والخسارة ويتلون بالأضرار من العدو ولكنهم بعين الله .

(١) يختص هذا الجزء بتفسير قوله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ

فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران ١٦٦.

(٢) سورة النساء ٨٠.

لقد نزلت بالمسلمين يوم معركة أحد مصيبة عظيمة فجاءت آية البحث لتدعوهم إلى الشكوى إلى الله عز وجل ، وهذه الشكوى فرع الصبر ورشحة من رشحاته ، وقيل لبعضهم : كيف تشكو إلى الله ما ليس يخفى عليه؟

ولكن الله يحب الذين يشكون إليه ويفيض عليهم من فضله ، وقد جاء القرآن بشكوى الأنبياء إلى الله عز وجل ، كما في يعقوب عليه السلام إذ ورد حكاية عنه في التنزيل ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾^(١) وقد دعا الله عز وجل المسلمين والمسلمات إلى الاقتداء بالأنبياء في مناهجهم وسنتهم ، قال سبحانه ﴿فَبِهْدَاهُمْ أَقْدَهُ﴾^(٢).

وفي السنة النبوية آيات من الشكوى إلى الله سبحانه ، فبعد أن توفي عمه أبو طالب واشتداد أذى قريش له خرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف ماشياً على قدميه فلم يبيحه أهل الطائف ، وأمروا صبيانهم برميهِ بالحجارة.

وورد عن عبد الله بن جعفر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين إلى من تكلني إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمرى إن لم تكن ساخطاً على فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الكريم الذى أضاءت له السموات وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك أو ينزل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك^(٣).

(١) سورة يوسف ٨٦.

(٢) سورة الأنعام ٩٠.

(٣) جمع الجوامع ١/٥٢٢٥.

لقد أنزل الله عز وجل ملائكة من السماء مدداً ونصرة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في معركة أحد ، وتفضل وأنزل آية البحث مدداً وعوناً بعد المعركة لبيان قانون وهو تعدد وإتصال مدد ونصرة الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين في كل أوان وواقعة ﴿وَكَوْلَاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

ومن فيوضات آية البحث إخبارها في أوان المصيبة بالنصر العظيم في معركة بدر، وتقدير الآية : أولاً أصابتكم مصيبة بالنصر العظيم في معركة بدر.

وتقدير الآية : أولاً أصابتكم مصيبة بعد أن أفاض الله عليكم في معركة بدر وما بعدها .

لقد دخل المسلمون معركة أحد بحضور الآيات التي نزلت بخصوص معركة بدر وإفاضات ذات المعركة وآياتها في الوجود الذهني والواقع الميداني ، فخرجوا منها وتلك الآيات والإفاضات مصاحبة لهم مع إرتقاء في المعرفة الإلهية بالجمع بين النصر والخسارة ليكون كل واحد منها واقية من الهزيمة أو تجدد الخسارة ، وهو من اللطف الإلهي ببيان أن علة الخسارة يوم أحد من عند المسلمين أنفسهم .

وأختتمت آية البحث بقانون يفيض بالبركة في النشاطين ، وهو قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ليتطلع المسلمون إلى فضل الله عز وجل بمحو أضرار معركة أحد عنهم، وهل هذا المحو من الإفاضات، الجواب نعم، بلحاظ أنه أمر وجودي،

ولا يقدر على هذا المحو إلا الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿وَهُوَ الَّذِي يُدْأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾^(١).

الآية بشارة

من إعجاز القرآن مجيء البشارة للمؤمنين في ثنایا الإخبار عما نزل بهم من المصائب ، والإنذار للذين كفروا مع ما يكسبون في الدنيا. فقد خسر المسلمون في معركة أحد وكانت خسارتهم في النفوس وسقوط الشهداء وهزيمة كثير منهم من وسط ميدان المعركة ، ولكنهم لم يخسروا المعركة ولم يفروا منها ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقي وسط المعركة ، واستمر لواؤه خفاقاً يدعو الناس إلى الإيمان والهدى ومن الآيات عدم إنقطاع هذه الدعوة إلى يوم القيامة.

وقد نزل خطاب إلى إبراهيم من عند الله عز وجل بقوله ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(٢) وقد أنعم الله عز وجل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ببقاء لوائه يوم معركة أحد يخفق فوق رأسه وسط الميدان مع صيرورة الجولة للذين كفروا . ترى كيف يمكن تصور هجوم ثلاثة آلاف رجل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وليس معه إلا عدد قليل من أهل بيته وأصحابه بنحو أحد عشر أو أقل وبقوا في مكانهم يقاتلون ويرمون بالسهام ويدفعون عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتكون آية البحث بشارة بسلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه إلا من أستشهد بدليل لغة الخطاب فيها ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أي أن المسلمين يتلقون الخطاب القرآني بصيغة الإيمان .

(١) سورة الروم ٢٧.

(٢) سورة الحج ٢٧.

وتجددت في آية البحث البشارة بالنصر في معركة بدر من جهات :
الأولى : التذكير بمعركة بدر ونصر المسلمين فيها ، وبينما جاءت الآيات
 بنسبة النصر في معركة بدر إلى الله تعالى بقوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ
 وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(١) أخبرت آية البحث عن نسبة الإصابة والكسب في المعركة إلى
 المسلمين بقوله تعالى ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا﴾^(٢).

وليس من تعارض بين نسبة النصر في معركة بدر إلى الله ، وبين إصابة
 وكسب المسلمين فيها ، ويكون تقدير آية البحث بحسب هذا اللحاظ على
 وجوه :

الأول : قد أصبتم مثلها يوم بدر .
الثاني : قد أصبتم مثلها بنصر الله لكم .
الثالث : قد أصبتم مثلها بفضل ومن من الله .
الرابع : قد أصبتم مثلها بالمدد الملائكي الذي أنزله الله عز وجل لكم
 يوم بدر ، قال تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنْ
 الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾^(٣).

الخامس : قد أصبتم مثلها يوم بدر ، لتكون بشارة ومؤنساً يوم أحد .
السادس : قد أصبتم مثلها لتكون بشارة للأجيال المتعاقبة من المسلمين
 إلى يوم القيامة .

وهل تختص هذه البشارة بذكرى واقعة بدر في السابع عشر من شهر
 رمضان ، الجواب لا ، إنما هي بشارة من جهات :

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) سورة آل عمران ١٦٥.

(٣) سورة الأنفال ٩.

الأولى : البشارة عند تلاوة أي آية من الآيات التي يتعلق موضوعها بواقعة بدر .

الثانية : البشارة عند إستحضار المسلمين واقعة بدر ، قال تعالى ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلَسَطَمَ قُلُوبَكُمْ بِهِ﴾^(١).

الثالثة : قيام المسلمين بالمقارنة بين وقائع معركة بدر ومعركة أحد ، ومعارك الإسلام الأخرى .

الرابعة : إستقراء الدروس والمواظ من واقعة بدر ، ونفعها العظيم في بناء صرح الإيمان .

الآية إنذار

من خصائص آية البحث تجلي البشارة والإنذار في منطوقها ومفهومها، أما بالنسبة للبشارة في منطوق الآية فمن جهات :

الأولى : بشارة سلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل ، وتلقي المسلمين الآيات والسور القرآنية التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد واقعة أحد.

الثانية : إخبار آية البحث عن النصر العظيم للمسلمين في معركة بدر، وأنه أضعاف خسارتهم يوم أحد.

الثالثة : إختتام آية البحث بالبشارة المفتوحة الخاصة والعامة والتي لا يقدر عليها إلا الله عز وجل لقوله تعالى في خاتمة آية البحث ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

وأما البشارة بالمفهوم فمن جهات:

الأولى : ذكر آية البحث للمصيبة التي ألمت بالمسلمين يوم معركة أحد للإلتعاض.

(١) سورة آل عمران ١٢٦.

(٢) سورة البقرة ٢٠.

الثانية : إستحضار المسلمين للنصر في معركة بدر في ساعة الشدة والضيق يوم معركة أحد.

الثالثة : تلاوة آيات القرآن ذاتها بشاره.

الرابعة : لما أخبرت آية البحث بأن الذي أصاب المسلمين إنما هو من عند أنفسهم ففيه بشاره التدارك والإرتقاء والإحتراز من الأخطاء التي تجلب الضرر.

وتتضمن آية البحث الإنذار في منطوقها من جهات :

الأولى : ذكر آية البحث للمصيبة تحذير منها، ومن عواقبها وآثارها.

الثانية : الإنذار من تكرار ذات المصيبة التي جرت يوم أحد أو ما هو أشد أو أقل منها، وتقدير آية البحث: أولما أصابتكم مصيبة فاحذروا من تكرارها.

الثالثة : إنذار وتحذير المسلمين من القعود والتفريط والغفلة، وقد أنعم الله عز وجل على المسلمين والمسلمات بأن يتلو كل واحد منهم سبع عشرة مرة في اليوم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١)، على نحو الوجوب العيني.

الرابعة : الإنذار من الفتن وطغيان أهل الكفر، فرما أصابهم الغرور بعد معركة أحد، وإدعوا النصر فيها حتى جمعوا عشرة آلاف رجل لمعركة الخندق.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ فَيَتَمَرَّغَ عَلَيْهِ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلَّا الْبَلَاءُ^(٢).

أي أنه لا يرغب بالانتقال إلى عالم الآخرة، ولا يريد مغادرة الدنيا إلا من البلاء الذي يلاقي، وليس المراد الناس كلهم، إنما المراد بيان شدة البلاء، وتوالي الفتن وشياع هذا القول عن عدد من الناس في زمانه.

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) سنن ابن ماجه ١٩٥/٣ .

الخامسة : الإنذار من الفرقة والشقاق وما يغري العدو بالمسلمين ، قال تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾^(١).

الآية موعظة

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إمتحان وإختبار لا ينجو ساكنها من البلاء ، يأتيه عن سبق معرفة به أو على نحو طارئ ومفاجئ ، ويغزوه بصفته الشخصية أو صلته ومنزلته في الأسرة أو العمل أو المجتمع أو الطائفة ، وينظر أحياناً لمن لم يتلى بمثل الذي أصابه فيغبطه ، ولم يعلم أن البلاء قريب منه أيضاً ، قال تعالى ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ يُنْفَخُ الْكِتَابُ وَنُفَخُ السُّنُورِ﴾^(٢) ، أو ينظر لمن أبتلي بالبلاء دونه فيحمد الله على سلامته منه وقد أكرم الله عز وجل المسلمين وجعل بلاءهم في طاعته وأذاهم ومصيباتهم في الصبر في سبيله واتباعهم رضوانه ، وهو الذي تجلّى في آية البحث ليتضمن ما فيها من الإخبار عن إصابته المسلمين بالمصيبة في الجهاد في سبيله ورفع لواء التوحيد صفحة مشرقة في تاريخ الإسلام.

وهل يمكن القول أن الإسلام كان في بدايته والإيمان لم يترشح بعد في قلوب المسلمين فكانت معارك الإسلام الأولى دفاعية ، الجواب لا ، إنما هذا الدفاع نهج دائم لمصاحب للإسلام والمسلمين .

وقد جاءت آيات القرآن بدم التعدي والظلم ، ومن الإعجاز في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنها بذاتها دعوة للناس للإسلام وحجة وبرهان أمضى من السيف وقعقة السلاح ، وهو الذي تجلّى في

(١) سورة آل عمران ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران ١٤٠.

مضامين الآية السابقة ، وقوله تعالى ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١) من جهات :

الأولى : فضل ومنّ وطول الله على الناس بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية : بيان قانون من الإرادة **والمشيئة الإلهية** وهو كل نبوة ورسالة من عند الله عز وجل.

الثالثة : إكرام الذين صدّقوا برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتسميتهم المؤمنين وخصهم بالمنّ من عند الله ، وفيه ترغيب للناس في الإسلام ودخوله ، وإتيان الفرائض والعبادات .

الرابعة : نسبة الرسول إلى المسلمين أنفسهم لإخبار الناس بقانون، وهو ما ان يدخل الإنسان الإسلام حتى يصبح من الذين بعث الرسول منهم ، لبيان قانون آخر وهو أن هناك جامعاً مشتركاً بين الرسول محمد وبين المسلمين وهو الإيمان .

وفي التنزيل ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٢).

ترى لماذا لم تقل الآية : أولاً أصابتكم مصيبة قلتم أنى هذا) وإنما قيدت الآية ذكر مصيبة المسلمين بنعمة النصر في معركة بدر ، الجواب ليكون

(١) سورة آل عمران ١٦٤.

(٢) سورة البقرة ١٧٧.

استحضار النصر أوان المصيبة موعظة للمسلمين ، ودعوة لهم للصبر والرضا بأمر الله عز وجل .

وهو من مصاديق ما ورد في الآية السابقة بقوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وفيه دعوة للعلماء لإستقراء فضل الله عز وجل في ساعة الشدة لإقتباس المواعظ وإتخاذها وسيلة للتدارك والنجاة من أضرار المصيبة، فمن المواعظ والصبر في التذكير بالنصر في معركة بدر أمور :

الأول : يهب الله عز وجل النصر للمؤمنين .

الثاني : إذا أنعم الله عز وجل على المؤمنين بنعمة فإنه أكرم من أن يرفعها .

وقد تفضل الله عليهم بالنصر في معركة بدر فهو باق بين ظهرانيهم إلى يوم القيامة .

ومن الإعجاز في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عدم وقوع الهزيمة له في معارك الإسلام .

ويمكن تأسيس قانون وهو : أن الإعجاز في الشريعة الإسلامية على أقسام :

الأول : الإعجاز في القرآن .

الثاني : الإعجاز في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : الإعجاز في السنة النبوية .

الرابع : الإعجاز في تلقي المسلمين للبعثة النبوية وآيات القرآن .

الخامس : الإعجاز في أداء المسلمين الفرائض، وتفانيهم في مرضاة الله .

ومن خصائص آية البحث بيانها لعلّة وسبب خسارة المسلمين في معركة أحد بأنها من عند المسلمين أنفسهم ، وكأنهم حجّبوا عن أنفسهم النصر، وتدّل على هذا المعنى بداية المعركة، وصيرورة الريح فيها للمسلمين ، وقيام جيش المشركين بالإستعداد للهزيمة وهرولة النساء اللاتي جئن معهم إلى الإبل للهروب خشية السبي وما يترشح عنه من الخزي والفضيحة .

ومن الآيات في معركة أحد حال بعض نسوة المشركين اللاتحي جئن معهم ، فقد قُتل أصحاب لواء المشركين وأحداً بعد آخر فحملته امرأة منهم، وهي عمرة بنت علقمة الحارثية من عبد مناة بن كنانة ، وقومها بنو الحارث حلفاء لقريش في الجاهلية ، وزوجها هو غراب بن سفيان بن عوف الحارثي ، فكانت سبياً في عودة المشركين إلى القتال .

وقال حسان بن ثابت في رفعها اللواء ذمّاً وتبكيّاً لكفار قريش:
 إِذَا عَضَلُ سَيْقَتِ إِلَيْنَا كَأَنهَا ... جَدَايَةُ شَرِكِ مُعَلَّمَاتِ الْحَوَاجِبِ
 أَقَمْنَا لَهُمْ طَعْنًا مُبِيرًا مِنْكَلا ... وَحَزَنَاهُمْ بِالضَّرْبِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
 فَلَوْلَا لِوَاءُ الْحَارِثِيَّةِ أَصْبَحُوا ... يِيَّاعُونَ فِي الْأَسْوَاقِ بَيْنَ الْجَلَاثِبِ^(١).
 (عن محمد بن اسحاق عن بعض أهل العلم أن اللواء لم يزل صريعا حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به وكان اللواء مع صواب غلام لبني أبي طلحة حبشي وكان آخر من أخذه منهم فقاتل حتى قطعت يده ثم برك عليه فأخذ اللواء ب صدره وعنقه حتى قتل عليه وهو يقول اللهم هل أعذرت فقال حسان بن ثابت في قطع يد صواب حين تقاذفوا بالشعر:

فَخَرْتُمْ بِاللَّوَاءِ وَشَرَّ فَخْرٍ ... لَوَاءٌ حِينَ رُدَّ إِلَى صُؤَابٍ
 جَعَلْتُمْ فَخْرَكُمْ فِيهِ بَعِيدٌ ... وَالْأَمُّ مِنْ يَطَأُ عَفْرَ التَّرَابِ
 ظَنَنْتُمْ وَالسَّفِيهِ لَهُ ظُنُونٌ ... وَمَا إِنْ ذَاكَ مِنْ أَمْرِ الصُّؤَابِ
 بَأَنَّ جَلَادَنَا يَوْمَ التَّقِينَا ... بِمَكَّةَ يَبْعُكُمُ حُمُرَ الْعِيَابِ
 أَقْرَ الْعَيْنِ أَنْ عَصَبَتْ يَدَاهُ ... وَمَا إِنْ تَعْصَبَانِ عَلَى خِضَابِ^(٢)

وعن أبي رافع عن أبيه عن جده قال لما قتل علي بن أبي طالب أصحاب الالوية أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جماعة من

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٧٩/٣.

(٢) الروض الأنف ٢/٢٦٢.

مشركي قريش فقال لعلي احمل عليهم فحمل عليهم ففرق جمعهم وقتل عمرو بن عبد الله الجمحي.

قال ثم أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جماعة من مشركي قريش فقال لعلي : احمل عليهم فحمل عليهم ففرق جماعتهم وقتل شيبة بن مالك أحد بنى عامر بن لؤي .

فقال جبريل يا رسول الله إن هذه للمواساة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه مني وأنا منه فقال جبريل وأنا منكما.

قال فسمعوا صوتا لا سيف إلا ذو الفقار ♦ ولا فتى إلا علي .
(قال أبو جعفر : فلما أتى المسلمون من خلفهم انكشفوا وأصاب منهم المشركون وكان المسلمون لما أصابهم ما أصابهم من البلاء أثلاثا :
ثلث قتيل .

وثلث جريح .

وثلث منهزم ، وقد جهده الحرب حتى ما يدري ما يصنع وأصيبت رباعية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السفلى وشقت شفته وكلم في وجنتيه وجبهته في أصول شعره ، وعلاه ابن قمئة بالسيف على شقه الايمن وكان الذي أصابه عتبة ابن أبي وقاص^(١).

وما لبثت نسوة قريش أن استعدن للفرار وصرن يهرولن صوب الإبل لقطع مسافة قبل أن ينهزم الرجال ويدركهن المسلمون ترك الرماة مواضعهم في ذات الوقت لتجلي أمارات هزيمة قريش فكانت المصيبة ، وتفضل الله بمواساة المسلمين بآية البحث التي هي ذخيرة في الدنيا والآخرة.

(عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ عَظُمَ الْجَزَاءُ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ)^(٢).

(١) تاريخ الطبري ١٩٧/٢.

(٢) سنن ابن ماجه ١٨٨/١٢.

ثناء الله على نفسه في الآية

ليس من آية من آيات القرآن إلا وهي تتضمن ثناء من الله عز وجل على نفسه من جهات :

الأولى : منطوق الآية .

الثانية : مفهوم الآية المخالف للمنطوق .

الثالثة : دلالات الآية .

الرابعة : غايات الآية .

(عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين)^(١) .

لقد أخبرت آية البحث عن مصيبة ونكسة لحقت المسلمين في معركة أحد ، وقد أثنى الله عز وجل على نفسه وذكر المسلمين بأنهم قد أصابوا ضعفها في معركة بدر لتتضمن آية البحث في دلالتها التذكير بنصر الله عز وجل للمسلمين في معركة بدر ، وتدعو إلى التفكير ترى كيف كان حال المسلمين يوم بدر لو لم ينصرهم الله عز وجل خاصة وأنهم كانوا أذلة ضعفاء مستضعفين .

ولا يختص ثناء الله عز وجل على نفسه في آية البحث بخصوص التذكير بمعركة بدر ونصر المسلمين فيها ، بل بذات معركة أحد لحصر الأذى الذي لحق المسلمين فيها بأنه مصيبة وليس هزيمة ، وبين الهزيمة والمصيبة عموم وخصوص مطلق ، فكل هزيمة هي مصيبة وليس العكس .

فما صرفه الله عز وجل عن المسلمين يوم معركة أحد أعظم مما لحق بهم ، وفيه دعوة لأجيال المسلمين للشكر لله عز وجل على هذه النعمة ، نعمة صرف الضرر الفادح عن المسلمين يوم معركة أحد .

وتقدير بداية آية البحث على وجوه :

الأول : أولما أصابتكم مصيبة قد محا الله عنكم أعظم منها .

الثاني : أولما أصابتكم مصيبة هي بإذن الله ، بلحاظ التقييد الوارد في الآية التالية بقوله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّيِّبِ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْبِ اللَّهِ﴾^(١).

الثالث : أولما أصابتكم مصيبة في سبيل الله .

الرابع : أولما أصابتكم مصيبة يرزقكم الله عليها الثواب العظيم ، وهذا الثواب من ثناء الله عز وجل على نفسه لأنه لا يقدر عليه إلا هو سبحانه.

ومن الآيات عدم إحصاء الثواب بالصحابة الذين نزلت بهم المصيبة في معركة أحد بل يشمل أجيال المسلمين والمسلمات ففي كل مرة يسترجع المسلم أو المسلمة ما لحق النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين من الأذى يوم أحد ليأتيهما الثواب لقوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَذَكَّرُونَ^(٢) وورد لفظ أصابتهم بصيغة الماضي ، ويبقى باب الإسترجاع مفتوحاً إلى يوم القيامة .

إن الله عز وجل غني عن العالمين ، ولا يحتاج إلى مدحه ، ولكن هذا المدح رحمة بالعباد ، وإصلاح وتأديب لهم ، وواقية لهم من الكبر والعناد والجحود .

(عن أبي ذر، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل، أنه قال: "يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً.
يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً.

(١) سورة آل عمران ١٦٦.

(٢) سورة البقرة ١٥٦-١٥٧.

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر". فسبحانه وتعالى الغني الحميد^(١).

وأختتمت آية البحث بثناء الله على نفسه بما يجعل الخلائق تنقاد له صاغرة طائعة لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ومن معانيه دعوة المسلمين للتطلع إلى نصر الله عز وجل في قادم الأيام، وليكون تقدير الآية : قد اصبتم مثلها وسيصيكم الله مثلها أو أكثر فهو على كل شئ قدير .

الآية رحمة

إبتدأت آية البحث بألف الإستفهام لبيان رافة الله عز وجل بالمسلمين بأن يسألهم عن تساؤلهم عن الخسارة في ذات الوقت الذي يكونوا هم أنفسهم سبب الخسارة .

لتقول لهم الآية إن الله يتغشاهم برحمته ، قال سبحانه ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢) ومن رحمته تعالى إبتداء المعركة بنصر المسلمين وكثرة قتلى المشركين كما يبينه قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ﴾^(٣) كما أن إذن الله حاضر في نصر المسلمين في أول معركة أحد ، فان الخسارة والمصيبة لم تقع للمسلمين إلا بإذن من عند الله عز وجل لقوله

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٨٠.

(٢) سورة الأعراف ٥٦.

(٣) سورة آل عمران ١٥٢.

تعالى في الآية التالية : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّيِّبِ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْبَ اللَّهِ﴾^(١) لبيان قانون وهو حتى وإن كان سبب الخسارة هم المسلمون أنفسهم، ومنه أمور :
الأول : إنخزال ثلث جيش المسلمين مع رأس النفاق عبد الله بن أبي وسط الطريق إلى معركة أحد .

الثاني : ترك الرماة مواضعهم على الجبل وحدوث ثغرة نفذ منها خيالة المشركين ، لقد كانت فرقتان خيالة المشركين ترقب سير القتال ويزحفون بالخيال بين الحين والآخر، ولكن الرماة يرشقونهم بوابل من السهام فيتراجعون، وفيه حجة على الرماة للزوم عدم ترك مواضعهم، وهي تعضيد لأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم بعدم ترك مواضعهم على أي حال، فإذا كانت خيل العدو تهم بالهجوم من الخلف كيف يترك الرماة مواضعهم لذا قام رئيسهم وهو عبد الله بن جبير بحثهم على الإقامة في مواضعهم ، وذكرهم بقول وأوامر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهم وثبت معه نحو ثمانية من أصل خمسين قتلوا معه عند صعود خيل المشركين لهم ، قال تعالى ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾^(٢).

لقد قال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم (احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغتم فلا تشاركونا).^(٣)
وعندما رأى الرماة المسلمون هزيمة المشركين وقيام المسلمين بانتهاك معسكرهم وهروب النسوة اللاتي جئن معهم .

اختلفوا وصاروا مع قلتهم إلى فريقين:
الأول : الذين ثبتوا في موضعهم ، وهم أميرهم ونحو ثمانية معه.

(١) سورة آل عمران ١٦٦.

(٢) سورة الأنفال ٤٢.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ٤٧/٣.

الثاني : الذين تركوا مواضعهم الذين قالوا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يرد هذه الحال من تحقق هزيمة المشركين ، وتوجهوا إلى معسكر المشركين للنهب وجلب الغنائم ، فجاءتهم خيل المشركين من خلفهم بأن تقدم خالد بن الوليد كاراً على الجبل بخيله وتبعه عكرمة بن أبي جهل ، فقتلوا من بقي فيه ، ومثلوا بعبد الله بن جبير ، وجردوه من ثيابه بعد موته ، ونفذت الرماح في بطنه ، وخرقت ما بين سرته إلى خاصرته ، وخرجت أحشاؤه ، وهو من مصاديق المصيبة التي ذكرتها هذه الآية والآية التالية ، وتتجلى معاني الرحمة بصبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين ، ودعوتهم الناس للإسلام ببذل النفوس وطاعة الله .

ومن مصاديق الرحمة في آية البحث إختتامها بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لبيان أن شأيب الرحمة بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم متصله وتشمل المسلمين وغيرهم ، ومنها محو المصائب عن المسلمين وإلحاق الذل والهوان بالذين كفروا .
وتقدير خاتمة الآية :

الأول : إن الله على كل شيء قدير فيمنع عنكم تجدد المصيبة .
الثاني : إن الله عز وجل على كل شيء قدير فيصلحكم لعدم جلب المصائب على أنفسكم .

الثالث : قد أصبتم في معركة أحد بقدره الله عز وجل وهو الذي يجعلكم تفوزون بما هو أكبر منها ، فلم تمر الأيام حتى صارت معركة حنين وكانت الغنائم التي غنمها المسلمون تفوق حد التصور بلحاظ الحال وقصر المدة بين معركة أحد التي وقعت في السنة الثالثة من الهجرة ومعركة حنين التي وقعت في السنة الثامنة للهجرة .

ومن الإعجاز في المقام وقوع كل منهما في شهر شوال والأولى وقعت في النصف من شهر شوال ، والثانية في العاشر من شهر شوال وبينهما خمس سنوات.

وكانت الغنائم التي استولى عليها المسلمون من جيش المشركين :

- ١- ستة آلاف من السبي بين امرأة و غلام وجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم بديل بن ورقاء الخزاعي.
- ٢- أربعة وعشرون ألف من الإبل .
- ٣- أكثر من أربعين ألف من الغنم .
- ٤- أربعة آلاف أوقية فضة .

وصلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الظهر في حنين شكراً لله عز وجل للنصر والظفر في ذات الموضع ولييان قانون للمسلمين وهو لزوم تعاهد الصلاة في السراء والضراء وعند المصيبة .

ومن خصائص الصلاة أنها تجلب الظفر وتثبت معاني ومنافع النصر، وهل تكون الصلاة من الإسترجاع عند المصيبة ، الجواب نعم، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١).

بحث بلاغي

من وجوه البلاغة (الإلتفات) وهو التغير والتبدل في الجهة التي يتوجه إليها خطاب المتكلم ، كما لو كان يتكلم إلى المخاطبين ثم ينتقل إلى الغيبة أو بالعكس .

ومن منافعه جذب الإنتباه والإحتراز من الملل ، وطرده الغفلة والضجر. وإبتدأت الآية بصيغة السؤال الإنكاري، ومن خصائصه جعل السامع ينصت إليه، وإلى ما بعده خاصة إذا جاء بصيغة الخطاب كما في آية البحث وكأنه ليس في جهة المخاطبين والمستمعين إلا المسلمين، فمع نزول مصيبة واقعة أحد بالمسلمين لإيمانهم بالله ورسوله ودفاعهم عن شخص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل جاءت الآية بالإستفهام الإنكاري

المتوجه ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، مما يدل بالدلالة الإلزامية بأن هذا الإستفهام ليس للتوبيخ أو التقريع والتبكي.

وتقدير الآية: أو لما أصابتكم مصيبة في سبيل الله، والله يشيكم عليها. لقد إبتدأ خروج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بالبشارة باللطف والمن من عند الله وشهادته لهم بالإيمان، وإخباره بأنه يسمع أقوالهم ويعلم حالهم، وتعدي الذين كفروا عليهم بقوله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢)، فمن من لطف الله أنه لا تبدأ المعركة بالثناء من عند الله عز وجل ثم يأتي التوبيخ لهم منه تعالى.

فإن قلت قد إبتدأت المعركة بنصر ساحق للمسلمين وإنتهت بخسارتهم الجواب إنه قياس مع الفارق، وكل من النصر والخسارة من عند الله وحفظه لرسوله ودين الإسلام ونزول آيات القرآن وإثابة المؤمنين، وفضح المنافقين وذل وهوان الكافرين.

وبعد الخطاب للمسلمين إنتقلت الآية في لغة الخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى (قل) فهل هو من الإلثفات، أم أنه من الإنتقال من العام إلى الخاص الجواب لا تعارض بينهما مع إرادة تنزيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الخطأ والقصور في قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ فلم تقل الآية (قل هو من عند أنفسنا).

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة آل عمران ١٢١.

ويشمل التنزيه الشهداء وأهل البيت والصحابة الذين قاتلوا دون النبي ولم يفروا ولم ينهزموا وكل على خير حتى أولئك الذين إنهمزموا لقوله تعالى قبل آيات ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾^(١).

الحاجة إلى آية البحث

الحمد لله الذي جعل الناس في حاجة متصلة إلى لطفه ومنه ورحمته، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾^(٢).

وجاءت صفة الفقر في الآية أعلاه على نحو الإطلاق من حيث الجهة والكم والكيف والزمان والمكان ، وفيما يخص الفرد والجماعة والأمة وهو من الإعجاز في مجي الآيات أعلاه بالنداء العام الذي يفيد الإستغراق لجميع أهل الأرض.

ويصح تقدير الآية أعلاه على وجوه:

الأول : يا أيها الناس أنتم الفقراء الى رحمة الله.

الثاني : يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى من الله.

الثالث : يا أيها الناس أنتم الفقراء في كل لحظة وطرفة عين إلى الله.

الرابع : يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله مجتمعين ومتفرقين.

الخامس : يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله فبعث لكم الأنبياء

والرسل ، قال تعالى ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣).

السادس : يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى رزق الله.

السابع : يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله في الدنيا والآخرة.

(١) سورة آل عمران ١٥٢.

(٢) سورة فاطر ١٥.

(٣) سورة الأنعام ٤٨.

الثامن : يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى مغفرة الله.
التاسع : يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله فاسألوا الله من فضله.
العاشر : ورد في التنزيل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١).

ويحتمل تقدير الآية أعلاه بخصوص الآية من القرآن وجوهاً :
الأول : يا أيها الذين آمنوا أنتم الفقراء إلى الآية القرآنية، بلحاظ أن المسلمين هم الذين آمنوا بالقرآن، وإليهم تتوجه أكثر خطاباتة .
الثاني : يا أهل الكتاب أنتم الفقراء إلى الآية القرآنية .
الثالث : يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الآية القرآنية.
الرابع : الوقوف على نص الآية القرآنية ، ومضمون الآية .
والصحيح هو الثالث أعلاه، ويكون الوجه الأول والثاني في طوله، إذ أن كل آية قرآنية كنز من بطنان العرش، وضياء ينير دروب الهداية للمسلمين.

ولما احتجت الملائكة على جعل آدم (في الأرض خليفة) أجابهم الله عز وجل بصيغة الإحتجاج المقرون بالبرهان ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).
ليكون من علم الله عز وجل حاجة الناس إلى الآية القرآنية، وتفضله بإنزالها ليكون الناس فيها شرعاً سواء، ومنه آية البحث التي توثق توثيقاً سماوياً أموراً :

الأول : واقعة معركة أحد .
الثاني : تلقي المسلمين الخسارة في معركة أحد .

(١) سورة فاطر ١٥.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

الثالث : دهشة المسلمين مما نزل بهم من المصيبة ، وكثرة القتلى وهم يرجون النصر ويستصحبون آية الظفر في معركة بدر.

الرابع : تذكير آية البحث بأن الله عز وجل على كل شيء قدير . وفيه دعوة للمسلمين للدعاء وسؤال النصر والظفر ، ورجاء تدارك الخسارة ، وحث لهم على السعي الحثيث في مسالك الإيمان .

وجاءت الآية بصيغة الماضي (اصابتكم) لتكون حرزاً في القادم من الأيام والمعارك مع الذين كفروا ، وفي التنزيل ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّ عُوْزٍ إِلَى قَوْمٍ أُؤْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تَقَاتُلُوهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ﴾^(١).

ليكون من الإعجاز في باب الحاجة إلى الآية القرآنية أنها تبعث الطمأنينة في نفوس المسلمين وتكون مواساة لهم وفي ذات الوقت تملأ قلوب الذين كفروا بالخوف والفرع ، قال تعالى ﴿وَنُحِيفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾^(٢).

حاجة الناس إلى آية البحث

لقد جعل الله عز وجل آدم ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣) ليبارك في ذريته وتأتيه النبوة ويبعث الله الأنبياء من بعده ، إلى أن ختم الله عز وجل النبوة والرسالة معاً ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتكون جامعة مانعة ، جامعة لأُمور :

الأول : سنن الشرائع الإسلامية .

الثاني : أحكام الحلال والحرام .

الثالث : الفرائض والعبادات .

الرابع : مضامين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(١) سورة الفتح ١٦.

(٢) سورة الأسراء ٦٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

الخامس : آيات القرآن التي جعلها الله ﴿تُبَيِّنَ لَكُمْ شَيْءٌ﴾^(١).

السادس : فضح الطواغيت من الأولين مثل فرعون ونمرود ، ومنع ظهور طاغوت آخر وإلى يوم القيامة .

فقد ورد عن فرعون أنه قال ﴿وَأَدَّيْ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٢) .

وورد عن نمرود في القرآن قال ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾^(٣) لينقطع دابر هذه الأقوال والدعوة الباطلة ، ومن الإعجاز في المقام حرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أداء الصلاة اليومية جماعة في فرائضها الخمسة لبيان خضوعه وذله لله عز وجل .

وفي التنزيل ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾^(٤) ، أما كون رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مانعة ، فمن وجوه:

الأول : لقد منعت رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم طغيان الكفر وأهله.

الثاني : منع رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم شيوع مفاهيم الضلالة.

الثالث : منع تحقيق الذين كفروا النصر في ميدان المعركة.

الرابع : منع عبادة الأوثان ، والتزلف إليها.

الخامس : المنع من غبطة وسعادة الذين كفروا حتى وإن أقبلت عليهم

الدنيا بزخرفها و لأنه جاء بآيات الإنذار والوعيد لهم ، قال تعالى ﴿وَلَا

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة الزخرف ٥١.

(٣) سورة البقرة ٢٥٨.

(٤) سورة الكهف ١١٠.

يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُفْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُوَلِّيهِمْ لَّهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١﴾.

ويحتاج المسلمون آية البحث من جهات :

الأولى : التفقه في الدين ، ومعرفة تعرضهم للخسارة ، ونزول المصيبة

بهم .

الثانية : بيان قانون وهو أن الإيمان لا ينجي الإنسان والجماعة من

المصيبة ، نعم تأتيه لتثقل ميزانه **بالصالحات** ، قال تعالى ﴿فَنَنْتَقِلْ مَوَازِينَهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٢﴾.

الثالثة : تحمل المصيبة بالمؤمن والكافر ، لكن مع التباين بينهما أما المؤمن

فيأتيه الأجر والثواب على ما يصاب به ، وأما الكافر فيلحقه الإثم والحزي وسوء العاقبة .

ليكون من حاجة الناس لآية البحث تحلي المسلمين بالصبر والزهد

والرضا بحكم الله ، وقطع الطريق على الذين كفروا في تعديهم ومنعهم من الشماتة بالمسلمين .

ومن مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ﴿٣﴾ بلحاظ آية البحث

أمر :

الأول : نزول المصيبة بالمسلمين لطاعتهم لله ورسوله وخروجهم للدفاع

عن الإسلام تحت لواء النبوة .

الثاني : ذكر خسارة المسلمين في معركة أحد في القرآن ، وتخصيص

آيات لها ، منها آية البحث والآية التالية .

(١) سورة آل عمران ١٧٨ .

(٢) سورة الأعراف ٨ .

(٣) سورة آل عمران ١١٠ .

الثالث : إخبار آية البحث بأن الله عز وجل نصر المسلمين في معركة بدر نصراً عظيماً ، ليكون من غاياته تهيئة أذهان المسلمين للصبر عند الخسارة في معركة أحد .

الرابع : إخبار المسلمين بأن خسارتهم يوم معركة أحد من عند أنفسهم وبسبب التقصير والقصور الذي ظهر منهم ، والذي لم يكن مثله في دفاعهم وقتالهم في معركة بدر .

الخامس : إختتام الآية بالبشارة للمسلمين ، وبيان القدرة المطلقة لله عز وجل ، ومنها تفضله بتدارك المسلمين المصيبة ، وتجدد نصرهم ووقايتهم من التقصير والزلل الذي يؤدي بهم إلى الخسارة .

(كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً، والحمد لله على كل حال")^(١).

قال ابن تيمية (ت ٧٢٨ هجرية) الصبر واجب باتفاق العلماء، وقال ابن القيم الجوزية (ت ٧٥١ هجرية) (قال الإمام أحمد: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً وهو واجب بإجماع الأمة وهو نصف الإيمان فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر)^(٢).

ولكن الصبر واجب بأمر الله عز وجل وأمر رسوله قبل أن تصل النبوة للاتفاق وإجماع الأمة ، وهذا الإجماع من رشحات الكتابة والسنة ، ولا بد أنه ذكر في الكتاب أعلاه لتكون الجملتين أعلاه كما لو إقتطعت من بيان عام،

(١) تفسير ابن كثير ٣١٩/٥ .

(٢) مدارج السالكين ١٥٢/٢ .

إذ جاءت آيات القرآن بمدرسة الصبر ، وورد الأمر المتعدد للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(١).

وورد بصيغة الجمع ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢).

ولو جاء شخص غداً وقال لم يثبت إ اتفاق العلماء على أن الصبر واجب ، فهذا العالم الفلاني من المتقدمين لم يذكر في كتبه أن الصبر واجب ، بينما هو لم يذكره للتسالم عليه ولتجلي وجوبه بالنص من القرآن والسنة ، ولكن أهل الجدل والمنافقين والذين في قلوبهم مرض يسعون في المغالطة ، أو قد يأتي من يقول أنه عالم ويخبر بأن الصبر ليس بواجب ، وقد يستدل بتأويل ظاهر بعض النصوص ، أو لقواعد فقهية مثل قاعدة الميسور ، ولا ضرر ولا ضرار في الإسلام وأحكام التقية ونحوها .

لذا يجب البيان والقطع بأن الصبر واجب في الكتاب والسنة ، حيث لا بأس من إتباعه بالقول وعليه إجماع علماء الإسلام والأمة لأنه من البديهيات .

وقد جاءت آيات القرآن بالشارة العظمى للصابرين ، قال تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ♦ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^(٣).

(١) سورة يونس ١٠٩.

(٢) سورة الأنفال ٤٦.

(٣) سورة البقرة ١٥٥-١٥٧.

وهل آية البحث من آيات الصبر ، الجواب نعم ، وكل كلمة فيها تدعو إلى الصبر والرضا بأمر الله والاستعانة به تعالى ، ويقرأ كل مسلم ومسلمة سبع عشرة مرة في اليوم قوله تعالى ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُ﴾^(١).

فهل تكون الاستعانة بخصوص مضامين آية البحث، الجواب نعم ، وهو من أسرار وجوب التلاوة في الصلاة اليومية .

لقد جاء القرآن والسنة بتنمية ملكة الإسترجاع ساعة المصيبة عند المسلمين مجتمعين ومتفرقين ، ويستحب استحباباً مؤكداً الإجهار به، أي يقول صاحب المصيبة أو غيره ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٢) كما يستحب الحث على إستحضار الإسترجاع وتلاوة آيته من سورة البقرة والتطلع إلى العوض والبدل ثم الثواب من عند الله .

(عن أم سلمة قالت : أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قولاً سررت به قال : لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبتها ، ثم يقول : اللهم أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها إلا فعل ذلك به . قالت أم سلمة : فحفظت ذلك منه ، فلما توفي أبو سلمة استرجعت .

فقلت : اللهم أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها ، ثم رجعت إلى نفسي وقلت من أين لي خير من أبي سلمة؟ فأبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)^(٣).

(١) سورة الفاتحة ٥.

(٢) سورة البقرة ١٥٧.

(٣) الدر المنثور ١/٣١٢.

أسباب النزول

لم يذكر علماء التفسير أسباباً لنزول آية البحث ، وهو لا يمنع من استقراء الأسباب لنزولها بلحاظ الموضوع والحكم ، إذ تتعلق آية البحث بوقائع معركة أحد ، وما نزل بالمسلمين من الأذى والضرر.

لقد بينت آية البحث غلظة الذين كفروا وإصرارهم على الكفر وإرادتهم الموت دون عبادة الأصنام ، ليظلموا أنفسهم وغيرهم لأن الله عز وجل يقول ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) فلا بد أن يذكر ويندم الذين كفروا ، لذا فإن آية البحث تذكرهم في مفهومها بأنهم إلى زوال في أشخاصهم ومفاهيم الضلالة التي يقاتلون دونها ، وذكرت آية البحث مصيبة المسلمين لإفادة الوعيد للذين كفروا بالعقوبة العاجلة من عند الله عز وجل ، فإن قلت قد ذكرت آية البحث أن المصيبة نزلت بالمسلمين من عند أنفسهم وبسبب قصورهم وتقصيرهم .

والجواب هذا لا يتعارض مع كون سبب المصيبة بالأصل هو هجوم الذين كفروا وإصرارهم على القتال .

ليكون من أسباب نزول آية البحث أمور :

الأول : توثيق معركة أحد .

الثاني : بيان الخطأ والقصور ، والتقصير الذي صار عليه المسلمون يومئذ .

الثالث : تنبيه المسلمين إلى قانون وهو وجوب عدم التراخي بعد النصر المبين الذي يأتي بمعجزة من عند الله عز وجل .

الرابع : تذكير آية البحث بفضل الله عز وجل على المسلمين بالنصر في معركة بدر بقوله تعالى ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾^(١) فان قلت هل هذا التذكير من أسباب نزول الآية ، الجواب نعم .

فمن أسماء القرآن (الذكر) وهو ذكرى بدليل قوله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِيهِ صَدْرَكَ حَرَجٌ مِنْهُ تُنذِرُ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) ليؤسس علم مستقل وهو صيرورة الذكرى الواردة في الآية القرآنية من أسباب النزول ، إذ يحتاج الإنسان الذكرى للإعطاء وإقتباس الدروس ، وهي حرب على النسيان وطرده لأفته ليكون من خصائص ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣) السلامة بذكرى القرآن من إستحواذ آفة النسيان عليهم ، وعصمتهم من التفريط بالعبر والمواعظ المستقرأة من المصيبة والواقعة التي تمر عليهم . ومن إعجاز آية البحث أنها نزلت بخصوص يوم المصيبة لتذكر بالنصر السابق له ، وتختتم بالوعد من عند الله عز وجل بالنصر والغلبة ، ومنع المسلمين من صيورتهم سبباً للخسارة ونزول المصيبة بهم لقوله تعالى في خاتمها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ .

وهل آية البحث من مصاديق هذا المنع ، الجواب نعم ، ليكون من أسبابها إصلاح المسلمين للوقاية من التقصير الذي يؤدي إلى الضرر الفادح ، قال تعالى ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(٤) .

(١) سورة آل عمران ١٦٥ .

(٢) سورة الأعراف ٢ .

(٣) سورة آل عمران ١١٠ .

(٤) سورة البقرة ١٩٥ .

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت آية البحث بأداة الإستفهام في سؤال وخطاب من عند الله عز وجل للمسلمين ، ويحتمل وجوهاً :

الأول : لوم المسلمين .

الثاني : توبيخ المسلمين .

الثالث : إرادة تزكية رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم

والوحي .

الرابع : تأديب المسلمين وبيان السبب الحاضر لخسارتهم يوم معركة أحد .

والصحيح هو الثالث والرابع أعلاه ، لقد خرج المسلمون إلى ميدان القتال طاعة لله ورسوله ، فلم يأت توبيخ لهم من عند الله إنما يكون سخطه وغضبه على الذين كفروا من قريش وأعوانهم الذين زحفوا بجيش عرمرم لمحاربة النبوة والصد عن معالم الإيمان ، ليكون ألف الإستفهام في بداية آية البحث ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ﴾ من مصاديق التزكية والتطهير بتعليم الكتاب ، وتبيان تجليات الحكمة الواردة في الآية السابقة بقوله تعالى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١) .

ويتعلق الإستفهام بقول المسلمين (أنى هذا) وتقدير الآية : أقلتم أنى هذا عندما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها) وفيه آية في إكرام الله للمسلمين بأنه سبحانه يسمع قولهم ويأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيب عليه ، وقد ورد في القرآن ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٢) .

(١) سورة آل عمران ١٦٤ .

(٢) سورة المجادلة ١ .

والمرأة التي سمع الله قولها هي خولة بنت ثعلبة، وزجها أوس بن الصامت من الأنصار وهو أخو عبادة بن الصامت وقيل اسمها جميلة، بنت حكيم، والأول أصح، وقد ظاهر منها زوجها، وقال أنت عليّ كظهر أمي وكان الظهار طلاقاً بائناً في الجاهلية .

ولكن المسلمين والمسلمات أدركوا أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رحمة مهداة، وأن الإسلام جاء بنقض أحكام وعادات الجاهلية المذمومة التي لا أصل لها .

وعندما دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالت : أن زوجي تزوجني وأنا أحب الناس إليه ، ولما كبرت وتقدمت بي السن ظاهرني ، وليس لي أحد أجد إليه أو بيت أسكن فيه غير بيتنا .

(فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول الله تنعشني وإياه بها فحدثني بها ، قال : والله ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن ، ولكن ارجعي إلى بيتك فإن أومر بشيء لا أعميه عليك إن شاء الله ، فرجعت إلى بيتها فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في الكتاب رخصتها ورخصة زوجها)^(١) فنزلت آية المجادلة أعلاه .

وقد أنعم الله عز وجل على المسلمين بآية البحث لبيان أنه سمع كلامهم ونسائهم، وهل جعل لهم في المقام رخصة ، الجواب نعم ، وما هو أعم وأعظم من الرخصة، ففي آية البحث ومضامينها القدسية رافة ورحمة وطول من عند الله عز وجل .

لقد أخبرت الآية السابقة بأن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من وطول من عند الله عز وجل على المسلمين ، وما معركة أحد وما لاقاه المسلمون فيها إلا فرع رسالته فلا بد أنها من وطول من عند الله عز وجل ، وتقدير آية البحث على وجوه :

الأول : لقد من الله على المؤمنين لما أصابتهم مصيبة .

الثاني : لقد منّ الله على المؤمنين بالنصر في معركة بدر .

الثالث : لقد منّ الله على المؤمنين إذ أصابوا وكسبوا في معركة بدر أضعاف ما خسروا في معركة أحد .

الرابع : لقد منّ الله على المؤمنين بأن تقدم نصرهم وجلبهم الغنائم إلى المدينة في معركة بدر على الخسارة في معركة أحد.

الخامس : لقد منّ الله على المؤمنين يوم معركة أحد بخروج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معهم إلى ميدان المعركة ، وورد بخصوص أحد في التنزيل ﴿إِذْ تَضَعُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾^(١).

السادس : لقد منّ الله على المؤمنين يوم معركة أحد برجوع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سالماً من ميدان المعركة .

السابع : لقد منّ الله على المؤمنين أن قالوا عند الخسارة يوم أحد أنى هذا .

وورد في الآية الأمر من الله عز وجل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (قل) ليكون هذا القول من مصاديق قوله تعالى في الآية السابقة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

لقد ابتدأت آية البحث بذكر الخسارة التي لحقت المسلمين في معركة أحد، وأخبرت بأنها من فعل المسلمين أنفسهم.

وأختتم الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو سبحانه الذي أذن بالخسارة والمصيبة أن تحل في ساحة المسلمين، وهو الذي يتفضل بمحو أضرار هذه الخسارة، ويبدلها بالنصر في المعارك اللاحقة،

ونزول ذات آية البحث نصر للمسلمين، وفي التنزيل ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١).

من غايات الآية

في الآية وجوه :

الأول : الغايات الحميدة من قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ وفيه

مسائل :

الأولى : إكرام الله عز وجل للمسلمين بتوجيه الخطاب لهم في القرآن .

الثانية : توثيق القرآن لواقعة أحد، وما أصاب المسلمين فيها من الخسارة

الفادحة .

الثالثة : البشارة للمسلمين بالأجر والثواب على الخسارة في معركة

أحد، وتقدير آية البحث على وجوه :

أولاً : أولما أصابتكم مصيبة في سبيل الله .

ثانياً : أولما أصابتكم مصيبة بعد النصر في معركة بدر .

ثالثاً : إن الله عز وجل يعلم أنه أصابتكم مصيبة يوم أحد .

الرابعة : ليس للمسلمين إنكار الخسارة والفاجعة يوم أحد .

الخامسة : بيان قوة وعز الإسلام ، إذ أن المصيبة والخسارة يوم أحد لم

تضعف المسلمين ولم تجعل بعضهم يرتد عن الإسلام ، قال تعالى ﴿وَلَا

تَهُنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾^(٢).

لتؤكد الآية أعلاه قانوناً وهو أن الخسارة والمصيبة لم تضر المسلمين في

إيمانهم وصبرهم وعزمهم على مواجهة الذين كفروا .

(١) سورة الطلاق ٣.

(٢) سورة آل عمران ١٣٩.

السادسة : الوعد من عند الله عز وجل للمسلمين بإقالة العثرة ودفع أضرار وآثار مصيبتهم في واقعة أحد ، فان قلت قد وردت آية البحث بصيغة الجملة الخبرية، الجواب نعم والإخبار من عند الله عز وجل بشارة نزول فضله ورحمته .

الثاني : الغايات الحميدة في قوله تعالى ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ .

لما أخبرت الآية السابقة عن من الله عز وجل على المسلمين بقوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾^(١) ذكرت آية البحث مصداقاً لهذا المن بأن من نصر المسلمين يوم بدر أنهم سبق حيازتهم من المغنم والمكاسب ضعفي خسارتهم يوم أحد .
ومن الإعجاز في آية البحث أنها تذكر المسلمين بيوم المصيبة بفضل الله عليهم من جهات :

الأولى : مجئ الفضل الإلهي على المسلمين في ذات موضوع المصيبة .

الثانية : إخبار الله عز وجل بأن فضله عليهم ضعف الخسارة التي لحقت بهم لبيان قانون وهو ثبوت النصر، وإمكان تدارك الخسارة وهو من مصاديق قوله تعالى في خاتمة آية البحث ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

الثالثة : فوز المسلمين يوم بدر بالنصر في المعركة وما كسبوه من الغنائم يوم بدر، إنما هو فرع النصر ، بينما لم ينهزم المسلمون ولم ينتصر المشركون يوم أحد، فان قيل : قد ورد في أخبار معركة أحد أن (إن أبا سفيان بن حرب حين أراد الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته فقال أنعمت فعال وإن الحرب سجال يوم يوم أعل هبل أي اظهر دينك)^(٢) .
والجواب لا عبرة بقول لكافر يتباهى به في ميدان القتال ، فهو كقول ماحد لنفسه في المبالغة وصيغ التفخيم والكذب .

(١) سورة آل عمران ١٦٤.

(٢) الروض الأنف ٣/٢٨٠.

لقد فرّ المشركون يوم معركة بدر، وصار المسلمون يطاردونهم ويؤسرون بعضهم ويحوزون مؤونتهم ، بينما في معركة أحد بادر الذين كفروا للإنسحاب في ذات اليوم الذي إبتدأت به المعركة ثم أخذوا يتلاومون في الطريق على سرعة إنسحابهم ، ولم يعلموا أن الله عز وجل هو الذي خذلهم وبعث الخوف في نفوسهم ، وهل هذا الإنسحاب المفاجئ من مصاديق خاتمة آية البحث ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الجواب نعم ، إذ يصرف الله الذين كفروا عن الإضرار العام بالمسلمين ، قال تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(١).

وهل يتضمن قوله تعالى ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ إستدامة النفع أم أن القدر المتيقن منه ذكر الماضي وإستحضار نعمة الله على المسلمين في معارك بدر ، الجواب هو الأول ، إذ تتضمن الآية البشارة بالمدد والنصر وتدارك المصيبة ، لذا ورد قوله تعالى ﴿بَلَىٰ إِنَّ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(٢).

الثالث : الغايات الحميدة من قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ ويتضمن هذا الشطر من الآية توجه الخطاب من عند الله عز وجل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبصيغة الأمر ، فلم تعد آية البحث بذات صيغة الجملة الخبرية وحدها .

الرابع : ليس من حصر للغايات السامية من إختتام آية البحث بتأكيد الإطلاق والعموم في قدرة الله عز وجل وشمولها للموجود والمعدوم، ولا تختص بالوقائع الخاصة بمعركة أحد.

(١) سورة آل عمران ١١١.

(٢) سورة آل عمران ١٢٥.

التفسير

قوله تعالى ﴿أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾

من إعجاز آية البحث أنها تحمل معاني البشارة للمسلمين من جهات :
الأولى : ذكر المصيبة بلغة المفرد ، فلم تقل الآية أولما أصابتكم مصائب).
وفيه شاهد على نصر المسلمين في أكثر المعارك والكثائب ، وتحتمل

الكثبية والسرية التي لا يقع فيها قتال وجوهاً :
الأول : إنها نصر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين .

الثاني : إنها مقدمة للنصر في معارك لاحقة .
الثالث : ليس في هذه الغزوات نصر للمسلمين لدلالة النصر على الغلبة

في القتال .
والصحيح هو الأول .

الثانية : مجئ الآية بصيغة الفعل الماضي ﴿أَصَابَتْكُمْ﴾ وكأن الآية تقول
للمسلمين أنه لن تصيبكم مصيبة أخرى ، وهو الذي يدل عليه تأريخ وقائع
الإسلام.

(عن الواقدي عن شيوخه ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال
لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن)^(١).

الثالثة : خطاب الآية للمسلمين بصيغة الجمع ، وفيه دعوة لهم للتعاون
والتكافل لصرف آثار وأضرار المصيبة .

الرابعة : حصر علة وسبب المصيبة بأنه من عند ذات المسلمين ، وفيه
بشارة بعجز الذين كفروا عن إنزال الخسارة بالمسلمين ، ومن مصاديق الآية
أن الرماة تركوا مواضعهم على الجبل يوم معركة أحد ، ولو صبروا وامتثلوا

لما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما استطاعت خيل الذين كفروا أن تأتي إليهم من الخلف.

فقد كانت هذه الخيل وهي برئاسة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جبل تهم في كل مرة للزحف ولكن رماة المسلمين وعددهم خمسون يطرونها وراكبيها بالنبال والسهام ، فتتهقر إلا أن ترك أغلب الرماة مواضعهم مما أدى إلى تقدم خيل المشركين.

وهل بقاء وثبات الرماة المسلمين في مواضعهم من مصاديق قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾^(١).

الجواب نعم ومن معاني القوة في المقام تعيين الرماة وتحديد وظيفتهم بحماية ظهور المسلمين ، ومنها ثبات الرماة في مواضعهم وعدم تركها طلباً للغنائم خاصة وإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعدهم بأن نصيبهم من الغنائم محفوظ فتعجلوا النصيب فصارت المصيبة ، وكأنهما من الضدين .

قيل أن ألف الإستفهام في قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ﴾ للتقريع ، ولا تصل النوبة إليه لأن مضامين الآية كلها في مواساة المسلمين والتخفيف عنهم ولما في قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ﴾ بمعنى حين وتسمى لما الحينية .

ومن الإعجاز في نظم آيات القرآن مجئ الآية التالية معطوفة على آية البحث بقوله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ ليكون من عموم العطف بين الآيتين العطف على ذات أداة الإستفهام كما يأتي بيانه في الجزء التالي .

وتدخل همزة الإستفهام على الأسماء والأفعال ، وتكون على وجوه :
الأول : التقريع ، والذي لا يصح أن يكون به (هل) .
الثاني : التوبيخ والتقريع .

الثالث : الإنكار لما يقع بعدها كما في قوله تعالى ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) ولا تقع (هل) في المقام ، وهل منه ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^(٢) .

الجواب لا ، إنما هو بمعنى (ما) أي ما جزاء الإيمان والعمل الصالح إلى الثواب بالجنة .

الرابع : للتصديق .

الخامس : التصور ، كما لو قلت : أتمام العدة هذا اليوم أم أنه من الشهر الجديد .

وتقدير الآية على وجوه :

الأول : أولما أصابتكم مصيبة لن تصابوا بمثلها .

الثاني : أولما أصابتكم مصيبة كمؤمنين ، ويدل عليه وصف الآية السابقة للمسلمين بقوله تعالى ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) .

الثالث : أولما أصابتكم مصيبة فصبرتم فيها ، لتكون آية البحث من مصاديق شكر الله عز وجل للمسلمين .

وهل كانت خسارة المسلمين في واقعة أحد وعدم تحقق النصر والإستيلاء على الغنائم فيها يومئذ مصيبة لهم أم للناس جميعاً ، الجواب هو الثاني ، وهو من الإعجاز في سعة وتعدد معاني اللفظ القرآني ، وتقدير الآية على وجوه :

الأول : أولما أصابتكم مصيبة ألحقت الأذى بكم .

الثاني : أولما أصابتكم مصيبة وأصابت غيركم من الناس .

(١) سورة الأعراف ٢٨ .

(٢) سورة الرحمن ٦٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٦٤ .

الثالث : أولا أصابتكم مصيبة تمادى معها الذين كفروا في غيهم إلى حين.

الرابع : لقد أذن الله عز وجل بعد نصركم في معركة بدر بنزول المصيبة بكم في معركة أحد، وهو الذي تدل عليه الآية التالية بقوله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّحِيّ الْجُمُعَانِ فَيَاذَنْبِ اللَّهِ﴾^(١).

الخامس : أولا أصابتكم مصيبة لكم فيها الأجر والثواب .

السادس : أصابتكم مصيبة تكون حجة على الذين كفروا ، وسيباً لبطش الله عز وجل بهم .

السابع : أولا أصابتكم مصيبة وأنتم تتبعون رضوان الله، لتكون آية البحث من مصاديق قوله تعالى قبل ثلاث آيات ﴿أَفَنُتَّبِعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَنُتْسِرَ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

وليان قانون بأن التباين والتضاد بين المؤمنين والكافرين بلغ حد السيف والإقتال ، ليتجلى صدق إيمان المسلمين .

علم المناسبة

قد تقدم في باب إعجاز الآية الذاتي ورود لفظ (أصابتكم) ثلاث مرات في القرآن، وكل واحدة منها موجهة في لغة الخطاب إلى المسلمين وتكرر معها في الآيات الثلاثة لفظ (مصيبة) وورد بخصوص الوصية في السفر قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ

(١) سورة آل عمران ١٦٦.

(٢) سورة آل عمران ١٦٤.

مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسُبُهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتُبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴿١﴾ .

وبينهما في لحاظ الآيتين عموم وخصوص مطلق، إذ تذكر آية البحث المصيبة على نحو اسم الجنس من قتل الشهداء، وجراحات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين والحرمان من الغنائم وغيرها، أما الآية أعلاه من سورة المائدة فذكرت موت بعض المسلمين في السفر والضرب في الأرض للتجارة، والشهادة عليه، وقبول شهادة غير المسلم وكيفيتها.

وللآية أعلاه سبب للنزول يتعلق بسفر بديل بن أبي مريم وهو من المهاجرين، وسفره مع عدي بن زيد وتميم بن أوس وهما نصرانيان تجاراً إلى الشام، ومرض بديل ثم مات في الطريق.

والآية الثالثة التي ورد فيها لفظ أصابتكم مصيبة قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ يُبْتَغِىٰ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ لَمْ أَكُنْ مِنْكُمْ شَهِيدًا﴾^(١)، لإرادة ذم المنافقين الذين يتخلفون عن الجهاد ويتشاقلون عن الجهاد والغزو وقيل أنها نزلت في عبد الله بن أبي رأس النفاق.

قوله تعالى ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾

هذه الآية خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته والمهاجرين والأنصار إلا أن موضوعها أعم، إذ تتوجه إلى المسلمين والمسلمات في كل زمان، وتقديرها بلحاظ تقدم نداء الإيمان الذي ورد قبل تسع آيات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذين تقرأون هذه الآية في زمانكم هذا: أولاً أصابتكم مصيبة في واقعة أحد قد أصبتم مثلها في واقعة بدر).

(١) سورة المائدة ١٠٦.

(٢) سورة النساء ٧٢.

وهو من إرادة معنى الاتحاد والتشابه الطولي بين أجيال المسلمين المستقرأ من قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١).

ومن إعجاز القرآن حضور الوقائع التي يذكرها في الوجود الذهني للمسلمين ، وكذا علوم الغيب التي كشفها الله عز وجل في القرآن ، قال تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾^(٢) ومنه أهوال يوم القيامة وسبل الرحمة والرأفة للمؤمنين فيها بما يبعث الشوق في نفوسهم للقاء الله عز وجل ، وقد قام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتعليم أهل بيته وأصحابه أدعية ترغبهم بلقاء الله .

منها ما ورد (عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علمه دعاء ، وأمره أن يتعاهده ويتعاهد به أهله كل يوم ، قال : حين تصبح لبيك اللهم لبيك لبيك وسعديك والخير في يديك ومنك وبك وإليك ، اللهم ما قلت من قول أو حلفت من حلف أو نذرت من نذر فمشيئتك بين يدي ذلك ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن ، لا حول ولا قوة إلا بك إنك على كل شيء قدير .

اللهم ما صليت من صلاة فعلى من صليت ، وما لعنت من لعن فعلى من لعنت . أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين . أسألك اللهم الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك ، وشوقاً إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . أعوذ بك أن أظلم ، أو أظلم أو أعتدي أو يعتدي عليّ ، أو أكسب خطيئة أو ذنباً لا تغفره .

اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، ذا الجلال والإكرام فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ، وأشهدك ، وكفى بك شهيداً

(١) الخصائص الكبرى ٣٦٨/١ .

(٢) سورة آل عمران ٤٤ .

أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك لك الملك ، ولك الحمد ،
وأنت على كل شيء قدير . وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك .
وأشهد أن وعدك حق ، ولقاءك حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ،
وأنت تبعث من في القبور .

وأشهد أنك أن تكلني إلى نفسي تكلني إلى وهن وعورة وذنب
وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنبي كله ، إنه لا يغفر الذنوب
إلا أنت ، وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم^(١).

وعن (عطاء بن السائب عن أبيه قال صلى بنا عمار بن ياسر صلاة
فأوجز فيها، فقال له بعض القوم لقد خففت أو أوجزت الصلاة فقال أما
على ذلك فقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم فلما قام تبعه رجل من القوم هو أبي غير أنه كنى عن نفسه،
فسأله عن الدعاء ثم جاء فأخبر به القوم اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على
الخلق أحييني ما علمت الحياة خيراً لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي .
اللهم وأسألك خشيتك يعني في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحكم
في الرضى والغضب

وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيماً لا يبيد وأسألك قرة عين
لا تنقطع وأسألك الرضى بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت
وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة
ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين^(٢) .
وسئل الإمام علي عليه السلام (بماذا أحببت لقاء الله ؟ قال: لما رأيته قد
اختار لي دين ملائكته ورسله
وأنبأته علمت أن الذي أكرمني بهذا ليس ينساني فأحببت لقاءه)^(٣) .

(١) الدر المنثور ١٥٧/١٠ .

(٢) البحار ١٢٧/٦ .

(٣) البحار ١٢٧/٦ .

ولم تقل الآية قد أصبتم مثلها وبيان التشابه والمثلية ، وقد ورد ذات اللفظ في قوله تعالى ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ التَّيَّافِقَةِ تَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيِ الْعَيْنِ﴾^(١) واختلف في المثلين أعلاه على وجهين :

الأول : المثلية والتشابه .

الثاني : الضعف .

و(عن سعيد ابن أبي أوس في قوله : {يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيِ الْعَيْنِ}^(٢)) كان المشركون يرون المسلمين مثلهم فلما أسروهم سألهم المشركون كم كنتم؟

قالوا : ثلاثمائة وبضعة عشرة ، قالوا : ما كنّا نراكم إلاّ تضاعفون علينا ، قال : وذلك ممّا نصر به المسلمون)^(٣) .

ومن معاني آية البحث أمور :

الأول : قد أصبتم مثلها من جهة قتل سبعين من الذين كفروا يوم بدر .

الثاني : قد أصبتم مثلها فنزل القرآن بتوثيقه وذكره لبيان قانون في الحياة الدنيا وهو: ترشح السعادة والغبطة والمواساة عن ذكر النعمة في ساعة الشدة والسراء في حال الضراء .

الثالث : قد أصبتم مثلها في ذات معركة أحد بابتداء المعركة بنصر المسلمين ، وقتل حملة لواء المشركين بالتتابع ، فمن الإعجاز في السنة النبوية أنه كلما يحمل لواء المشركين واحد منهم يقتل حراً كان أو عبداً .

الرابع : تذكير المسلمين بفضل الله والنعم التي منّ بها عليهم ومنها مضامين الآية السابقة ، ولا يعلم النعم العظيمة التي تفضل بها الله عز وجل

(١) سورة آل عمران ١٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٣ .

(٣) الكشف والبيان للثعلبي ٢١/٣ .

على المسلمين ليبلغوا مراتبة ملاقة كفار قريش بقوله تعالى في الآية التالية ﴿يَوْمَ تَقُى الْجَمْعَانِ﴾ إلا الله عز وجل .

لقد كانت قريش أمة تتوارث القوة والتجارة والجاه وهي متجانسة وتدين لها قبائل عربية كثيرة وهم فرحون بما في أيديهم ، أما المسلمون فقد هاجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة مع نفر من أهل بيته وأصحابه على خوف ووجل من قريش ، لتأويهم وتنصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طائفة من الأوس والخزرج وكان عددهم في بيعة العقبة الثالثة خمسة وسبعين ، منهم إمرأتان .

وعن كعب بن مالك قال: خرجنا مع (حجاج قومنا من المشركين وقد صلينا وفقهنا ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال البراء لنا يا هؤلاء إنى قد رأيت رأيا والله

ما أدري أتوافقوني عليه أم لا قال قلنا وما ذاك قال رأيت أن لا أدع هذه البنية منى بظهر يعنى الكعبة وأن أصلى إليها قال قلنا والله وما بلغنا أن نبينا يصلى إلا إلى الشام وما نريد أن نخالفه قال فقال إنى لمصل إليها قال قلنا له لكننا لا نفعل قال فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى إلى الكعبة حتى قدمنا مكة قال وقد كنا عينا عليه ما صنع وأبى إلا الإقامة على ذلك قال فلما قدمنا مكة قال لى يا ابن أخى انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسأله عما صنعت في سفري هذا فانه والله لقد وقع في نفسي منه شئ لما رأيت من خلافتكم إياى فيه قال فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك فلقينا رجلا من أهل مكة فسألناه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: هل تعرفانه قلنا: لا قال: فهل تعرفان العباس بن عبدالمطلب عمه قلنا: نعم قال: وكنا نعرف العباس كان لا يزال يقدم علينا تاجرا قال فإذا دخلتما المسجد هو الرجل الجالس مع العباس قال فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله صلى الله عليه وسلم معه فسلمنا ثم جلسنا إليه فقال رسول الله صلى

الله عليه وسلم للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل قال: نعم هذا البراء بن معرور سيد قومه وهذا كعب بن مالك قال فوالله ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الشاعر قال نعم قال فقال له البراء بن معرور يا نبي الله إني خرجت في سفري هذا وقد هداني الله للإسلام فرأيت أن لا أجعل هذه البنية منى بظهر فصليت إليها وخالفني أصحابي في ذلك حتى وقع في نفسي من ذلك شئ فماذا ترى يا رسول الله قال لقد كنت على قبلة لو صبرت عليها.

فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصلى إلى الشام وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات وليس كما قالوا نحن أعلم به منهم ثم خرجنا إلى الحج

وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العقبة من واسط أيام التشريق فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لها ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر سيد من ساداتنا أخذناه وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا فكلمناه وقلنا له يا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإننا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون خطبا للنار غدا ثم دعوناه إلى الاسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيانا العقبة قال فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقييا فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا^(١).

وجاءت معركة بدر في السنة الثانية للهجرة وكان حساب قریش عن خبرة ودهاء ، إذ جهزوا جيشاً من ألف رجل وهم يعلمون أن عدد المسلمين

أقل من نصف هذا العدد ، أما العدة والخيل والرواحل فالجميع يعلم حال فقر المسلمين.

وكيف تبنى دولة مع حال الفقر والعوز لتواجه الأعداء ذوي الشأن والمال والجاه ، ولكن فضل الله عز وجل عظيم ليس له حد أو منتهى ، وهو الذي أنزل الملائكة لنصرتهم في معركة بدر ليتعظ الذين كفروا ويحذروا قتال المسلمين ، ويمنعوا حلول المصيبة بالمسلمين يوم أحد ، هذه المصيبة التي جلبت للمسلمين الأجر والثواب ، ولم ولن تجلب للذين كفروا إلا الخزي والذل والهلاك.

ففي ذات الوقت الذي تخاطب فيه آيات البحث المسلمين بنزول المصيبة بهم يوم أحد تضمنت آيات أخرى من القرآن الذم والتقريع والخزي للذين كفروا وبمخصوص ذات يوم أحد ، قال تعالى ﴿لَيَقَطَعَنَّ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُوهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^{(١)(٢)}.

فمن إعجاز القرآن أن يوم أحد كان مصيبة وخزياً وخسارة للذين كفروا وأن أصيب به المسلمون بالخسارة .
ولما أخبرت الآية السابقة عن من الله على المسلمين تضمنت آية البحث قانوناً من مصاديق هذا المن من جهات :
الأولى : تقدم نصر المسلمين على الذين كفروا زماناً ، إذ إنتصر المسلمون يوم بدر .

الثانية : تقدير آية البحث : قد أصبتم مثليها بنصر من الله ونزول الملائكة مدداً لكم .

فاذا كان نصر وغلبة المسلمين يوم بدر بنصر من الله فانه سبحانه لن يخل بينهم وبين الذين كفروا ، ولكن خسارة جسيمة نزلت بالمسلمين في

(١) سورة آل عمران ١٢٧.

(٢) أنظر الجزء الحادي والثمانين الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية في (٤١٠) صفحات.

معركة أحد بسبب خطأ منهم ففقدوا سبعين شهيداً مع شدة الجراحات التي نزلت المسلمين ، وفاتتهم الغنائم الكثيرة التي صارت قريية منهم ، لاحت بشائر النصر مع أول ساعات المعركة وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله { إذ تحسونهم } قال : تقتلونهم قال : وهل تعرف العرب ذلك؟ قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر :

ومنا الذي لاقى بسيف محمد ... فحس به الأعداء عرض العساكر
وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قول الله { إذ تحسونهم بإذنه } قال : تقتلونهم قال : وهل كانت العرب تعرف ذلك قبل أن ينزل الكتاب على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول عتبة الليثي :

نحسهم بالبيض حتى كأننا ... نقلق منهم بالجماجم حنظلاً^(١).

الثالثة : غلبة المثلين في النصر للمثل الواحد في الخسارة بدليل أن المشركين انهزموا يوم بدر وطاردهم المسلمون وأسروا سبعين وقتلوا سبعين منهم ، أما في معركة أحد فلم ينهزم جيش المسلمين ، وكان جيش المشركين هو الذي انسحب أن ساحة المعركة أولاً .

وهل في الآية بشارة إصابة المسلمين من المشركين مثل ما جرى في معركة بدر، الجواب نعم.

لتكون دلالات ثبات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ميدان المعركة يوم أحد معجزة له في السنة الدفاعية ، تقتبس منها الدروس إلى يوم القيامة ، ولا يختص هذا الإقتباس بالمسلمين فيمكن أن تنتفع منه الجيوش ، ويأخذ منه الملوك المواعظ ويكون سبيل هداية للناس ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

(١) الدر المنثور ٤٥٩/٢.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

ولما جاء القرآن بجرمة الفرار من الزحف من غير علة ووجود راجح، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(١)، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الإمام في الثبات في الميدان ، ليكون ثباته هذا من مصاديق قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٢).

شآبيب بين بدر وأحد

لقد نصر الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين في معركة بدر عظيماً ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(٣) وإذا أعطى الله عز وجل فانه يعطي بالأتم والأوفى ، ويحتمل نفع وأثر هذا النصر وجوهاً :

الأول : حصر النصر ومنافعه بمعركة بدر، لأن الآية ذكرت خصوص بدر بقوله تعالى ﴿بِذَرٍ﴾.

الثاني : النفع المتصل في أيام النبوة كلها ، إذ ينهل الصحابة من معركة بدر، ويقتبسون منها المواعظ ولزوم حسن التوكل على الله عز وجل .

الثالث : إنتفاع المسلمين الدائم وإلى يوم القيامة من معركة بدر ، وهذا الإنتفاع على جهات :

الأولى : خصوص ميادين القتال .

الثانية : مقدمات المعركة وزجر الكفار عن التعدي على المسلمين .

الثالثة : إرادة نفع المسلمين العام من معركة بدر ونتائجها .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وكلها من مصاديق وفيوضات معركة بدر ، وقد يتبادر إلى الأذهان أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يبقى

(١) سورة الأنفال ١٦.

(٢) سورة الأحزاب ٢١.

(٣) سورة آل عمران ١٢٣.

وأصحابه بعد معركة بدر مدة مديدة فرحين بهذا النصر ويتفاخرون به، ويقومون بإعادة ترتيب صفوفهم ومعالجة أمور الأسرى ومتابعة مسألة الغنائم.

ولكن تجلّى الشكر لله عز وجل في المقام بعدم بقاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة بعد عودته من معركة بدر إلا بضعة أيام. (قال ابن اسحق فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة يعني من بدر لم يقيم الا سبعة ليال حتى غزا بنفسه يريد بني سليم)^(١).

وتلك آية لا تتم لولا الوحي من عند الله عز وجل ، فقد خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم يريد بني سليم واستخلف على المدينة سباع بن عرفة الغفاري، وقيل ابن أم مكتوم فبلغ ماء من مياه بني سليم يقال له الكدر بضم الكاف وسكون الدال وسمي الكدر لوجود طيور بذات لون الكدورة لتلك الأرض الملساء، وتسمى هذه الكتيبة بأسماء :

أولاً : كتيبة الكدر .

ثانياً : كتيبة قرقرة الكدر .

ثالثاً : كتيبة قرقرة الكدرة .

الرابع : قرارة الكدر ، عن ابن سعد^(٢).

وكان لواء النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع الإمام علي عليه السلام، وعدد الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم مائتان وسبب الضرب أن جمعاً من بني سليم وغطفان يريدون الإغارة على المدينة.

فبادر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الهجوم عليهم ، ولم يلق حرباً فأقام ثلاثة أيام ثم انصرف راجعاً إلى المدينة في رسالة لتخويف القبائل بأن لا يمدوا أو ينصروا قريشاً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين في معركة الثأر التي ينوون.

(١) عيون الأثر ١/ ٣٨٤.

(٢) عيون الاثر ١/ ٢٩١.

فقد آلى كبار كفار قريش بعد معركة بدر غزو المدينة ، وجاء أبو سفيان بمائتي راكب إلى أطراف المدينة ووصلوا إلى مكان يسمى العريض^(١) ، فحرقوا صغار نخل في الموضع ، وقتلوا رجلين أحدهما من الأنصار والآخر حليف له ، فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمرهم فنفر المسلمين وخرج معهم بنفسه في طلب أبي سفيان وأصحابه الذين سارعوا في تلبية النداء .

وقد أصاب الخوف والفرع المشركين واستحضروا في الوجود الذهني واقعة بدر ، وأدركوا بقياس الأولوية القطعية ما ينزل بهم من البلاء والمصيبة ، فإذا كان المشركون في معركة بدر ألف رجل ، بأسلحتهم ومؤونهم ، وقتلوا بعيداً عن المدينة وفي أول معارك الإسلام مع فقر وعوز المسلمين ونقص أسلحتهم فكيف وقد جاء أبو سفيان بمائتي رجل فقط ووصلوا أطراف المدينة ، وبعد أن منح نصر الله المسلمين في معركة بدر المنعة والقوة وكثرة السلاح والغنائم وبعثهم على المبادرة إلى النفير وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٢) .

وقياس الأولوية أمر يلجأ إليه الناس بالفطرة وحكم العقل ، وامتلات قلوب الكفار بالخوف والجزع فالتقوا كثيراً من أزوادهم وأمتعتهم للهرب ، فلما وصل النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون إلى موضعهم وجدوا الأمتعة وكثيراً من السويق ، فأخذها المسلمون وسميت غزوة السويق ، ولم يلحق بهم النبي بل عاد بأصحابه إلى المدينة في اليوم الثاني من ذي الحجة أي بعد معركة بدر بشهرين ونصف الشهر ، وكانت مدة غيابه عنها في هذه الضرب خمسة أيام .

(١) العريض: موضع قريب من المدينة فيه أصول نخل .

(٢) سورة يونس ٥٨ .

وقال المسلمون الذين كانوا معه (يا رسول الله أطمع ان تكون لنا غزوة، قال : نعم) ^(١).

ليان ترتب الثواب العظيم على الفعل العبادي والصبر القليل في سبيل الله، ثم جاءت ضرب ذي أمر، وتسمى أثمار وسبب هذه الضرب أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن رجلاً يقال له دُعْثُور بضم الدال وأسكان العين ابن الحارث الغطفاني يجمع الناس من مغلبة ومحاربة بموضع يسمى ذي أمر نسبة إلى ماء في ذات المكان يريدون الإغارة على أطراف المدينة والإصابة منها.

فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باربعمائة وخمسين رجلاً لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، وهذا العدد من الصحابة أكبر عدد من المسلمين يخرج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبيل معركة أحد.

وفي الطريق أصاب المسلمون رجلاً منهم يسمى حبان بن ثعلبة فجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيل اسمه جبار فسأله عن قومه فأخبره بالتفصيل، ومن غير تورية أو كذب أو مكر.

وقال له لن يلاقوك، ولو سمعوا بقدومك إليهم لفروا إلى رؤوس الجبال، ثم أبدى إستعداده لمصاحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين.

فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنطق بالشهادتين واسلم وضمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى بلال ليعلمه أحكام الإسلام، وصار دليلاً لجيش المسلمين لتتجلى فيوضات النصر في معركة بدر على المسلمين، ويملاً الفزع لقلوب المشركين من مكة والقرى ما بينها وبين المدينة. وتفاعل المسلمون خيراً، وليس من جيش يطمئن لفرد من رجال العدو ويصبح لهم دليلاً في أول ساعة يلقونه من غير أن يخشوا كيده ومكره وأنه

جاء عينا عليهم أو أراد أن يندس بينهم ويوقع فيهم ويضلهم ، وإن تعرض للقتل عند إكتشاف مكره وكيده ، إلا أنه الإسلام الذي يغزو القلوب دفعة ، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١) .

وحالما سمع الكفار بقدوم جيش المدينة فروا إلى رؤوس الجبال وتركوا مساكنهم ومواضعهم على ماء ذي أمر (عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة ")^(٢) .

فأقام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليالي عديدة في المكان
لأُمور:

الأول : حث المسلمين على الشكر لله عز وجل على نعمة هروب العدو.

الثاني : تجلي حقيقة مستحدثة ، وهي إجتناّب الذين كفروا قتال المسلمين.

الثالث : جعل الأعراب يشعرون بالأسى ، ويتحملون المشاق ببقائهم على رؤوس الجبال أياماً وليالي .

الرابع : بعث رسالة إلى قريش وغيرهم بالتحدي الذي يبديه المسلمون.

الخامس : بيان قانون وهو إستجابة المسلمين لأوامر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالبقاء في ذات الموضع من غير قتال ، ومن دون أن يظهروا شوقاً للعودة إلى أهليهم في المدينة إذ أنهم يعلمون بأن لهم في كل ساعة في المقام أجراً وثواباً عظيماً ، وهل هو من الصبر أم الجهاد في سبيل الله .

(١) سورة النور ٤٦.

(٢) السيرة النبوية / ابن كثير ٤٦١/٢.

الجواب إنه منهما معاً من غير تعارض بينهما ، قال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾^(١) .

السادس : بلوغ المسلمين مرتبة من العز بالأمن على المدينة وعدم الخشية من إغارة الذين كفروا عليها ، وهو من أسباب مبادرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الهجوم على القوم الذين يبلغه سعيهم للإغارة عليها أو على أطرافها .

وهذه المرتبة من رشحات قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾^(٢) وما تدل عليه من إنتفاء الذل والخوف عند المسلمين .

السابع : تأكيد سلامة المسلمين من الوهن والضعف والجبن ، قال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾^(٣) .

الثامن : دعوة أهل الموضع رجالاً ونساءً إلى الإسلام ، إذ أنهم يرون صلاة المسلمين والضبط والتنظيم عندهم ، وهي أمور لم تألفها الجزيرة ويسمعون تلاوتهم للقرآن وتسييحهم وانصياعهم لأوامر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وغبطتهم وسعادتهم بوجوده بين ظهرانيهم ، قال تعالى ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِيقِدْهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤) .

ورجع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يلق حرباً ، ولم يقاتل أحداً مما يدل على ان غزواته صلى الله عليه وآله وسلم كانت لزجر الذين كفروا عن التعدي على المدينة ومحاولة الإساءة للحرمت .

(١) سورة آل عمران ١٤٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٢٣ .

(٣) سورة آل عمران ١٣٩ .

(٤) سورة التوبة ٩٩ .

وتحتمل غزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه في كنهها وجوهاً :
الأول : إنها بأمر من الله عز وجل في أوانها وتفصيلها .

الثاني : جاءت هذه الغزوات باقتراح من الصحابة وإمضاء الوحي لها .

الثالث : تجلي الحكم الواقعي ، ولزوم تأديب وزجر الذين كفروا
 وبعث الخوف في قلوبهم .

الرابع : تأتي هذه الغزوات إبتداء من قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الخامس : أصل الغزوات من الوحي أما التفاصيل ، وخروج النبي
 صلى الله عليه وآله وسلم فيها فهو إجتهد من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

والصحيح هو الأول وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ
 الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

وأصاب المسلمين مطر كثير بليت معه ثيابهم وأصاب ثوب النبي محمد
 صلى الله عليه وآله وسلم منه ، وانفرد عن أصحابه ونزع ثيابه واضطجع
 تحت الشجرة والأعراب ينظرون من على ذروة الجبل ، فقالوا لشخص
 منهم اسمه دعثور بن الحرث وكان سيدهم وأشجعهم : قد أمكنك محمد ،
 وقد ظهر بمفرده ليس معه أحد من أصحابه ولا يستطيعون الوصول إليه
 ويغيثونه قبل أن تقتله ، فاختر وعثور سيفاً صارماً من سيوفهم ، وهبط من
 الجبل مسرعاً حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيفه
 مشهور (فقال: يا محمد من يمنعك مني اليوم ؟ قال: الله .

ودفع جبريل في صدره فوق سيف من يده .

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: من يمنعك مني ؟ قال:
 لا أحد ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والله لا أكثر
 عليك جمعا أبداً .

فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه^(١) وصار دعثور يدعو قومه إلى الإسلام ، ونزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اٰنَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

وفيه معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشاهد تاريخي بأنه في حفظ وأمن وسلامة من عند الله ، وفي التنزيل في خطاب من الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾^(٣).

وفي رواية قال دعثور لا أكثر عليك جمعاً أبداً ثم أقبل بوجهه وقال : والله لأنت خير مني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أنا أحق بذلك منك .

لقد همّ دعثور بقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتلبس بجرمة الشروع به ، ومع هذا لم ينتقم منه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يوثقه ليأتي أصحابه ويؤخذ أسيراً ، ولم يطرده إنما أعاد له سيفه ، ولم يخش أن يجهز به عليه مرة أخرى ، ليتجلى نفع المعجزة في القريب والبعيد ، ولما رجع إلى قومه سألوه باستغراب وإنكار بعد أن رأوه شاهراً السيف على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فقال لهم : قد كان والله ذلك أي أنه رفع سيفه ليقتل به النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) السيرة النبوية / ابن كثير ٤/٣.

(٢) سورة المائدة ١١.

(٣) سورة الطور ٤٨-٤٩.

(ولكنني نظرت إلى رجل أبيض طويل فدفع في صدري فوقعت لظهري وعرفت أنه ملك وشهدت أن محمداً رسول الله وجعل يدعو قومه إلى الاسلام)^(١).

وبعد غزوة ذي أمر بلغ النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ان جمعاً كبيراً من بني سليم ينوون غزو أطراف المدينة فخرج في ثلاثمائة من أصحابه وعجل في المسير حتى وصل إلى بحران بضم الباء وفتحها .

وأقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة بعد قدومه من بحران أربعة أشهر وبعد شهر جمادي الآخرة ورجب وشعبان ورمضان من السنة الثالثة للهجرة حتى جاء كفار قريش غازين في شهر شوال ، وفي إقامة وبقاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا في المدينة مسائل :

الأولى : الأمن والسلامة من تهديد القبائل القريبة من المدينة وتشتيت جماعتهم .

الثانية : إعطاء الصحابة مدة للإستراحة من الغزو والإبتعاد عن المدينة .

الثالثة : تثبيت أحكام الإسلام ومعالم الإيمان في قلوب المسلمين والمسلمات .

الرابعة : تأكيد أولوية أداء الفرائض والواجبات .

الخامسة : فضح المنافقين .

السادسة : إبطال أقوال الذين كفروا والمنافقين عند خروج المسلمين

للغزو والكسب كما ورد في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا...﴾^(٢).

السابعة : تهییء المسلمين للقاء جيوش الذين كفروا .

(١) الخصائص الكبرى ٣٥٥/١.

(٢) سورة آل عمران ١٥٦.

الثامنة : التدريب والتأهيل للملاقاة الذين كفروا ، وهل هذا التدريب من معاني قوله تعالى ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾^(١).

الجواب نعم إذ تخبر الآية أعلاه عن إتصاف جيش المسلمين بأنه جمع كفى لجمع العدو ، ومن مصاديق التأهيل والتمرين .

التاسعة : تنعم الصحابة مع عوائلهم ، وكأنه مقدمة لفقد سبعين شهيداً .

العاشرة : هذه الإقامة في المدينة لبضعة شهور مناسبة للإنجاب ، وترغيب بالزواج .

الحادية عشرة : منع النفرة في النفوس من كثرة الغزو ، ومفارقة الأحبة .

الثانية عشرة : تجلي قانون عند مجئ كفار قريش إلى معركة أحد بأن المسلمين لم يقاتلوا إلا دفاعاً .

الثالثة عشرة : رصد أخبار كفار قريش وتهيئهم للغزو والقتال .

الرابعة عشرة : تفقه المسلمين في الدين ، وإستقبال الذين يدخلون الإسلام حديثاً .

الخامسة عشرة : لما قال الله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ

رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(٢) قام النبي محمد بجعل المسلمين يستعدون للقاء العدو في معركة أحد .

مقارنة بين معركة بدر وأحد

وبين وقائع معركة بدر ومعركة أحد عموم وخصوص من وجه ، فمادة الإلتقاء من وجوه :

الأول : كل من المعركتين بإمامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : لم يخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المعركة إلا بالوحي والتنزيل .

(١) سورة آل عمران ١٥٥ .

(٢) سورة الأنفال ٦٠ .

الثالث : نزول الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .

الرابع : وقوع كل من المعركتين خارج المدينة ، بينما وقعت معركة الخندق حولها .

الخامس : حضور المهاجرين والأنصار في كل من المعركتين.

السادس : سبق رؤيا للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل المعركة وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم (كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)^(١).

السابع : عدد جيش المشركين نحو ثلاثة أضعاف جيش المسلمين .

الثامن : حمل الإمام علي عليه السلام للواء .

التاسع : سقوط شهداء من المسلمين .

العاشر : كثرة القتلى في الدين كفروا .

الحادي عشر : لحوق الخزي بالذين كفروا .

الثاني عشر : عجز الذين كفروا عن تحقيق أي غاية أو غرض من أغراضهم الخبيثة .

الثالث عشر : نزول آيات متعددة من القرآن بخصوص كل من معركة بدر ومعركة أحد .

الرابع عشر : بقاء لواء رسول الله خفاقاً وعدم سقوطه في كلتا المعركتين .

الخامس عشر : عدم بدء النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بالقتال .

السادس عشر : قيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدعوة الأعداء للنطق بكلمة التوحيد ، وحقن الدماء بقول لا إله إلا الله .

السابع عشر : إجتهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين بالدعاء في كل من المعركتين وسؤاله النصر من عند الله ، وفي التنزيل ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾^(١) وجاءت الآية أعلاه بخصوص معركة بدر، ولكن مضامينها عامة تشمل معارك الإسلام الأخرى .

الثامن عشر : تولي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه تنظيم جيش المسلمين ، وتعيين مواضعهم .

التاسع عشر : سلامة المسلمين من الخوف والحزن .

العشرون : شوق المسلمين للقاء الله وبشارات الأجر العظيم للشهيد .

الحادي والعشرون : إمتلاء قلوب الذين كفروا بالرعب والخوف .

الثاني والعشرون : عدد الأنصار أكثر من عدد المهاجرين في كل من المعركتين ، وكذا بالنسبة لعدد الشهداء في كل منهما .

الثالث والعشرون : إصرار الذين كفروا على القتال وإبتدأؤهم به .

الرابع والعشرون : إبتداء كل من المعركتين بكثرة القتل في الذين كفروا .

الخامس والعشرون : تحلي المسلمين بالصبر والرباط في المعركتين ، قال

تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢) .

السادس والعشرون : خروج المسلمين من المعركتين بالعز والفلاح .

السابع والعشرون : سلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القتل والإغتيال .

الثامن والعشرون : استشارة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه قبل كل من المعركتين .

(١) سورة الأنفال ٩ .

(٢) سورة آل عمران ٢٠٠ .

ففي معركة أحد كرر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طلب المشورة من أصحابه من جهتين :

الأولى : استشارة المهاجرين والأنصار على نحو العموم المجموعي .
الثانية : إختصاص الأنصار بالمشورة لأنهم بايعوه في العقبة على أمور :
أولاً : أعلن الأنصار أنهم براء من ذمام رسول الله حتى يصل إلى مدينة يثرب ، فلو توجه إليهم وداهمه عدو في الطريق فلا شيء عليهم ليدل بالدلالة التضمنية على عدم قيام الأنصار بارسال وفد لأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكة والذب عنه في الطريق ، ولو فعلوا لخرجت قريش في طلبه وطلبهم ، ولعجزوا عن الدفاع عنه ، ويظهر أن الأنصار يعلمون بما يترتب على أخذهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بين أهله في مكة مع حرب كبار قريش له وللتنزيل .

ثانياً : في حال وصول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى يثرب فان الأنصار من الأوس والخزرج يذبون عنه ويمنعونه .

ولم يشك لهم النبي الأخطار التي تداهمه في الطريق إلى مكة .
 ترى لماذا رضي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما عرضه الأنصار ، الجواب لأنه متوكل على الله ويعلم أن الله عز وجل يحفظه ، وفي التنزيل ﴿لَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(١) وقد كانت هجرته القصيرة إلى الطائف وما لاقاه فيها فيها من الأذى حاضرة في ذهنه ، وفي الواقع ، إذ كان نفر من قريش عندهم حائط في الطائف لعبتة وشيبة ابني ربيعة ، ورأوا كيف أخذ الصبيان والعبيد في الطائف برمي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالحجارة ، وشج رأسه بتحريض من بعض رجالات الطائف ، وجرت الدماء من قدميه ، وكان خروجه لها ليلال بقين من شهر شوال سنة عشرة للبعثة النبوية ، ولم تمض بضع سنين حتى زحف ربيعة وشيبة في جيش عظيم لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم

عليه وآله وسلم فكانت معركة بدر ، وصار ربيعة وشيبة أول من قتل من طرف الذين كفروا .

ثالثاً: بيان الأنصار لكيفية منعهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقولهم (فَإِذَا وَصَلَتْ إِلَيْنَا ، فَأَنْتَ فِي ذِمَّتِنَا نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا)^(١) فلم يذكروا في بيعة العقبة أنهم يخرجون معه للقاء عدو أو لجلب بضائع قافلة من قوافل قريش إستيفاء لأموال المهاجرين من مكة ممن استولت قريش على أموالهم وبيوتهم .

(عَنْ أَبِي رَافِعٍ قَالَ قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا تَنْزِلُ مَنْزِلَكَ مِنَ الشَّعْبِ ؟ قَالَ فَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلَ مَنْزِلًا ؟ كَانَ عَقِيلٌ قَدْ بَاعَ مَنْزِلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْزِلَ إِخْوَتِهِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ بِمَكَّةَ . فَقِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَانْزِلْ فِي بَعْضِ بُيُوتِ مَكَّةَ فِي غَيْرِ مَنَازِلِكَ فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَا أَدْخُلُ الْبُيُوتَ . فَلَمْ يَزَلْ مُضْطَرِبًا بِالْحُجُونِ لَمْ يَدْخُلْ بَيْتًا ، وَكَانَ يَأْتِي إِلَى الْمَسْجِدِ مِنَ الْحُجُونِ)^(٢) .

وتلك آية في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه لم ينتزع ملكه الذي باعه عقيل تعدياً ولم يسكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم البيوت فيها لبيان أنه راحل عنها وراجع إلى المدينة .

التاسع والعشرون : إقتضاء كل من معركة بدر ومعركة أحد في يوم واحد .

الثلاثون : عودة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كل من المعركتين إلى المدينة .

(١) سيرة ابن هشام ١/٦١٥ .

(٢) مغازي الواقدي ١/٨٢٩ .

الحادي والثلاثون : استبشار وغبطة أهل المدينة رجالاً ونساءً بعودة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإطلالته البهية على ربى ورباع المدينة يحيط به أهل بيته وأصحابه من المهاجرين والأنصار .

الثاني والثلاثون : بيان وتوثيق بعض الآيات لحوادث معركة بدر وأحد كما هو في آية البحث .

الثالث والثلاثون : أول قتيل في كل من المعركتين قتله الإمام علي عليه السلام .

أما مادة الإفتراق بين معركة بدر وأحد فمن وجوه :

الأول : تقدير معركة بدر زماناً على معركة أحد ، إذ حدثت معركة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ووقعت معركة أحد في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة .

الثاني : لم يخرج المسلمون في معركة بدر للقتال ، إنما خرجوا لإعتراض قافلة أبي سفيان ، قال تعالى ﴿وَإِذْ يَدْعُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنهَآ لَكُمْ وَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكُوكِ تَكُونُ لَكُمْ﴾^(١) أما في معركة أحد فقد إستعد المسلمون للقتال وهم في المدينة ، قال تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾^(٢).

الثالث : التعدد في أول من برز في معركة بدر ، إذ برز للقتال عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد ، بينما أول برز في معركة أحد فرد واحد هو حامل اللواء طلحة بن عثمان أخو شيبة من بني عبد الدار، ويقال أنه أبو سعيد أبي طلحة^(٣).

وفيه شاهد على أن المشركين جاءوا إلى معركة أحد بحذر وخوف.

(١) سورة الأنفال ٧.

(٢) سورة آل عمران ١٢١.

(٣) عيون الأثر ٤١٠/١.

الرابع : لم ترجع طائفة من المسلمين في طريقهم إلى معركة بدر ، أما في معركة أحد فقد رجع نحو ثلث الجيش بغدر ومكر من رأس النفاق .

الخامس : كثرة أعداد الجيش في كل من الفريقين في معركة أحد بالقياس إلى معركة بدر .

السادس : سلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الجراحات في معركة بدر وكثرتها في معركة أحد .

السابع : كثرة شهداء المسلمين في معركة أحد .

الثامن : مجيء المسلمين بسبعين أسيراً من المشركين في معركة بدر ، وتعذر أسر طائفة منهم في معركة أحد .

التاسع : كثرة غنائم المسلمين في معركة بدر بخلاف معركة أحد .

العاشر : ثبات المسلمين في معركة بدر ومطاردتهم للعدو بخلاف معركة أحد حيث إنهمز أكثرهم ، ولكن ثبات النبي صلى الله عليه وآله وسلم في موضعه جعلهم يعودون إليه إلا القليل النادر .

الحادي عشر : هطول المطر في ليلة معركة بدر ليرتوي المسلمون ويتطهروا ويغتسلوا من الجنابة ، وتتماسك الأرض .

الثاني عشر : ورود اسم معركة بدر في القرآن بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ

اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(١) ، ولم يرد اسم جبل أحد في القرآن ، نعم ورد في السنة النبوية ، (و) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحد جبل يحبنا ونحبه ، فإذا جئتموه فكلوا من شجره ، ولو من عضاهه^(٢) ، لذا تستحب زراعة النخيل والأشجار المثمرة حواله ، وتمكين زواره وقبور الشهداء منها بالبيع أو الهدية .

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) الطبراني / المعجم الأوسط ٤/٤٣٧.

الثالث عشر : تدل الآية أعلاه على أن حال المسلمين أحسن من جهة العز والمنعة في معركة أحد عنها بخصوص معركة بدر .

الرابع عشر : عجز المشركين عن الوصول إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في معركة بدر ، أما في معركة أحد فقد صاروا قرييين منه ، تصله حجارتهم ونبالهم .

الخامس عشر : تقيد المسلمين بأوامر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في معركة بدر ، أما في معركة أحد فقد ترك الرماة مواضعهم (عَنْ الزَّيْبِرِ أَنَّهُ قَالَ وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتَنِي أَنْظَرُ إِلَى خَدَمِ هِنْدَ بِنْتِ عُبَيْةَ وَصَوَاحِبِهَا مُشْمَرَاتٍ هَوَّارِبَ مَا دُونَ أَخْذِهِنَّ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ إِذْ مَالَتْ الرَّمَاةُ إِلَى الْعَسْكَرِ حِينَ كَشَفْنَا الْقَوْمَ عَنْهُ وَخَلَوْا ظَهْرُنَا لِلْخَيْلِ فَأَتَيْنَا مِنْ خَلْفِنَا ، وَصَرَخَ صَارِخٌ أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ . فَاثْكُفْنَا وَانْكَفَأَ عَلَيْنَا الْقَوْمُ بَعْدَ أَنْ أَصَبْنَا أَصْحَابَ اللَّوَاءِ حَتَّى مَا يَدْنُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ) ^(١) ^(٢).

السادس عشر : تسابق الصبيان ومن بلغ أربع عشرة سنة وخمس عشرة سنة للخروج إلى القتال في معركة أحد ، ولم تكن هذه الآيات ظاهرة عند خروج النبي وأصحابه إلى معركة بدر .

السابع عشر : حضور النسوة مع كل من الطرفين في معركة أحد .
الثامن عشر : حضرت المؤمنات مع المسلمين لمداواة الجرحى بينما حضرت المشركات للضرب على الدفوف ونحوه .
التاسع عشر : إشترك بعض النسوة في القتال في معركة أحد .

(١) الروض الأنف ٣/ ٢٦٢.

(٢) وورد الخبر في (عيون الأثر) عن عبد الله بن الزبير وهو سهو من النساخ لأن عبد الله ولد في السنة الأولى للهجرة إذ كان عمره في واقعة أحد ستين إنمًا يروي عن أبيه .

العشرون : بعد موضع معركة بدر عن المدينة ، إذ يبعد عنها نحو مائة وخمسين كيلو متراً ، بينما لا يبعد موضع معركة أحد عن المسجد النبوي إلا خمس كيلو مترات.

قانون معرفة أوان نزول الآية القرآنية

لقد تفضل الله عز وجل على المسلمين بالخطاب منه تعالى وهو نعمة عظمت ثم جاء هذا الخطاب لتذكيرهم بنعمة عليهم بما ينفع بصرف أضرار مصيبتهم في واقعة أحد ، وفيه بيان لقانون وهو أن استحضر الوجوه المشرقة من الماضي عند البلاء حاجة ودرس وموعظة ، ومن أسماء القرآن الموعظة ، قال تعالى ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(١).

ويمكن إنشاء قانون وهو معرفة أوان نزول الآية القرآنية من ذات مضامينها القدسية بما هو أعم من أسباب النزول إذ أن هذه الأسباب تخبر عن سبب النزول وقد تبين أوان نزولها.

أما هذا القانون فهو أعم ، ويشمل التدبر في مضامينها ، وقد تبين الآية القرآنية الواحدة أموراً :

الأول : وقائع سابقة لنزول الآية تتحد أو تتباين مع موضوع نزول ذات الآية .

الثاني : أوان نزول الآية والوقائع والأحداث المصاحبة لها .

الثالث : أسباب نزول الآية القرآنية .

الرابع : موضوع الآية القرآنية .

الخامس : تفاصيل موضوع الآية القرآنية ، ودعوة المسلمين لتوثيقها .

السادس : بيان الآية لوقائع تقع بعد نزولها ليعرف أوان نزولها بلحاظ أنه سابق زماناً لهذه الوقائع ، وفيه شاهد على أن الآية القرآنية إمام ومدرسة

تنهل منها أجيال المسلمين ، ويقتبسون منها ما يزيدهم بصيرة وتدبراً في معجزات النبوة والتنزيل .

ومن أسماء القرآن (البصائر) في خطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

ومن مصاديق هذا القانون آية البحث من وجوه :

الأول : الشهادة للمسلمين بالإيمان بلحاظ مجئ الآية في نظم الآيات السابقة ، وقد تقدم نداء الإيمان قبل تسع آيات بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾^(٢).

لتكون الآية أعلاه نوع مواسة للمسلمين وشحذاً للهمم .

الثاني : توثيق آية البحث لواقعة أحد ، وما نزل بالمسلمين من الخسارة الفادحة .

الثالث : بعث المسلمين على معرفة الخسائر التي لحقتهم في معركة أحد ، إذ ورد لفظ ﴿مصيبية﴾ في الآية القرآنية بصيغة التنكير وإرادة التعدد في أفرادها كما يأتي بيانه في باب التفسير^(٣) نعم ورد تقييد ذات المصيبية في آية البحث بقوله تعالى ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ للتذكير بواقعة بدر ونزول الملائكة لنصرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ .

الرابع : لما ذكرت الآية السابقة من الله على المسلمين برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإن الله سبحانه يحب أن يبين مصاديق

(١) سورة الأعراف ٢٠٣.

(٢) سورة آل عمران ١٥٦.

(٣) أنظر الصفحة ٢١٣.

وأفراد منه عليهم ، ومنه آية البحث التي تذكر نيل المسلمين من المشركين في معركة بدر إذ قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين .

ومن معاني معرفة أوان نزول الآية القرآنية إخبار آية البحث عن وقائع معركة أحد ، وتأكيدها لحقيقة تأريخية من جهات :

الأولى : وقوع معركة بدر قبل أوان معركة أحد .

الثانية : نصر المسلمين في معركة بدر، بينما عجز المشركون عن النصر والغلبة في معركة أحد .

الثالثة : التباين بين المغانم العظيمة التي كسبها المسلمون في معركة بدر، وحرمان الذين كفروا من المكاسب والمغانم في معركة أحد .

الرابعة : دعوة آية البحث المسلمين لتوثيق أسباب الخسارة في معركة أحد .

قوله تعالى ﴿قُلْتُ أَنَّى هَذَا﴾

لقد خرج المسلمون إلى معركة أحد ، وهم يرجون النصر والغلبة على الذين كفروا بالأولوية من جهات :

الأولى : نصر الله لنبيه الكريم والمسلمين في معركة بدر .

الثانية : مجئ البشارات في معركة أحد كتلك التي جاءت بخصوص

معركة بدر ، ومنها قوله تعالى ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَمُّنَ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ

فِيْ أَعْيُنِهِمْ وَيُقَلِّلُكُمْ فِيْ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَاللَّهُ تَرْجِعُ

الْأُمُورُ﴾^(١) وقال تعالى ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِيْ فِتْنِ الْتَقَاتِ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ

اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأْيِ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ

فِيْ ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٢).

(١) سورة الأنفال ٤٤.

(٢) سورة آل عمران ١٣.

(عن ابن مسعود في قوله { قد كان لكم آية في فتنتين }^(١). قال : هذا يوم بدر فنظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً . وذلك قول الله { وإذا يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم }^(٢)^(٣)).

الثالثة : تجلي قانون في ميدان القتال، وهو التخفيف عن المؤمنين، وليس من حصر لضروب هذا التخفيف .

الرابعة : التباين في الحال في دخول المعركة إذ يدخل المسلمون المعركة بالعز والفخر والرضا وإرادة الأجر والثواب ، وفي التنزيل ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنَاءً إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنِ﴾^(٤).

أما الذين كفروا فيدخلون بأسباب من الخذلان منها :
الأول : ما ألقاه الله عز وجل في قلوب الذين كفروا من الخوف والفرع.
الثاني : إستحضار المشركين لخسارتهم في معركة أحد .
الثالث : حال الندم على التخلف عن التصديق بمعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الرابع : الذل الذي يلحق كفار قريش في هجومهم لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينما يدافع عنه وينصره أهل يشرب من الأوس والخزرج.

ومن الآيات في السنة النبوية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقف عند إنتهاء معركة بدر على قتلى المشركين وخاطبهم وكأنهم أحياء ، وقال (بِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُتِّمَ لِنَبِيِّكُمْ ، كَذَّبْتُمُونِي ، وَصَدَّقَنِي النَّاسُ وَخَذَلْتُمُونِي)

(١) سورة آل عمران ١٣.

(٢) سورة الأنفال ٤٤.

(٣) الدر المشور ٢/٢٩١.

(٤) سورة التوبة ٥٢.

وَنَصَرَنِي النَّاسُ وَأَخْرَجْتُمُونِي وَأَوَانِي النَّاسُ ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا إِلَى قَلْبٍ مِنْ قَلْبٍ بَدْرٍ ، فَطَرَحُوا فِيهِ ثُمَّ وَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ يَا عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَيَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ، وَيَا فُلَانُ وَيَا فُلَانُ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا ، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا^(١) .

وتبين خاتمة الحديث أعلاه أن نصر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمر حتمي ، وأن جراحاته وخساره المسلمين يوم معركة أحد لم تغير من هذا القانون.

لقد تحمل الأنبياء الأذى من قومهم ، وقذفوا شطراً منهم بالحجارة وقتلوا بعضهم.

وعقر قوم صالح الناقة التي هي آية من عند الله عز وجل وتفضل الله عز وجل إذ ورد حكاية عن صالح في التنزيل ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾^(٢) .

وتفضل الله عز وجل بجعل رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خالدة وباقية إلى يوم القيامة ، وأنه سبحانه جعل معجزته عقلية لوجوه :

الأول : حضور معجزة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في كل مكان وزمان ، وهو من الإعجاز في وجوب قراءة القرآن في الصلوات اليومية بأن يقرأ كل مسلم ومسلمة سبع عشرة مرة بين كل قراءة وأخرى أفعال عبادية من الركوع والسجود والتسبيح ونحوه ، وكلها تؤكد الخشية والخوف من الله .

ومن معاني القراءة في الصلاة تجدد خضوع وخشوع جوارح المسلمين لله عز وجل ، وعن الإمام علي عليه السلام أن رسول الله كان إذا ركع قال

(١) زاد المعاد ١٦٠/٣.

(٢) سورة هود ٦٤.

اللهم لك ركعت ولك أسلمت وبك آمنت خشع لك سمعي وبصري وعظامي ومخي وعصبي^(١).

الثاني : عجز المشركين عن الإجهاز على معجزة النبي محمد صلى الله عليه وآله أيام النزول وما بعدها ، ودخل المشركون معركة بدر ثم أحد ثم الخندق ، وقد نفذ القرآن إلى شغاف القلوب ، ودخل إلى الخدور، وصار حديث الركبان ليتدبر به الناس ، ويستحضر المسلمون الآيات في الوجود الذهني ، وتجري على ألسنتهم .

الثالث : ترغيب الناس في الإسلام ، وتعجيل دخولهم فيه.

الرابع : عدم حصر الإيمان برؤية المعجزة الحسية ، فكل آية من القرآن معجزة في تلاوتها وعند الإستماع لها ، قال ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾^(٢).

وصحيح أن هذه الآية تدل على السر والحفظ والوقاية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين من القوم المشركين إلا أن موضوعها أعم .

قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾

لقد نسبت آية البحث سبب وعلة المصيبة إلى المسلمين بقوله تعالى ﴿قُلْ

هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ وفي هذه النسبة وجوه :

الأول : إختيار المسلمين الفداء عن الأسرى السبعين في واقعة بدر .

الثاني : عندما بلغ النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين مجيء جيش المشركين لمعركة أحد ووصولهم بالقرب من المدينة المنورة إستشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه فاختلفوا على قولين :

أولاً : البقاء في المدينة وقتال الذين أشركوا على أفواه الأزفة وقيام النسوة والصبيان برميهم بالحجارة.

(١) النسائي / السنن الكبرى ٢١٩/١.

(٢) سورة الأسراء ٤٥.

ثانياً : الخروج لقتال الذين كفروا على مشارف المدينة .

(وقال موسى بن عقبة: ورجعت قريش^(١) فاستجلبوا من أطاعهم من مشركي العرب،

وسار أبو سفيان بن حرب في جمع قريش، وذلك في شوال من السنة المقبلة من وقعة بدر، حتى نزلوا بطن الوادي الذي قبلى أحد، وكان رجال من المسلمين لم يشهدوا بدرا قد ندموا على ما فاتهم من السابقة^(٢)، وتمنوا لقاء العدو ليلوا ما أبلى إخوانهم يوم بدر.

فلما نزل أبو سفيان والمشركون بأصل أحد فرح المسلمون الذين لم يشهدوا بدرا بقدوم العدو عليهم، وقالوا: قد ساق الله علينا أمنيئتنا.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرى ليلة الجمعة رؤيا فأصبح، فجاءه نفر من أصحابه فقال لهم: " رأيت البارحة في منامي بقرا تذبح، والله خير، ورأيت سيفي ذا الفقار انقصم من عند ضبته^(٣)، أو قال: به فلول، فكرهته، وهما مصيبتان، ورأيت أني في درع حصينة وأني مردف كبشا".

فلما أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم برؤياه، قالوا: يا رسول الله، ماذا أولت رؤياك ؟ قال: " أولت البقر الذي رأيت بقرا^(٤) فينا وفي القوم، وكرهت ما رأيت بسيفي".

(١) أي من معركة بدر وهزيمتهم فيها.

(٢) أي حرما من الإشتراك في معركة بدر.

(٣) ظبة السيف وظبة ظبة السيف وظبة السهم: طرفه. قال بشامة بن حري النهشلي: إذا الكُماة تَنَحَّوْا أَنْ يَنَالَهُمْ ... حَدُّ الظُّبَاتِ وَصَلْنَا بِهَا بِأَيْدِينَا والجمع أظب، وظبات وظبون. قال كعب:

تَعَاوَرَ أَيْمَانُهُمْ بَيْنَهُمْ ... كُؤُوسِ الْمَنَايَا بِحَدِّ الظُّبَيْنَا (الصحاح في اللغة ٤٢٥/١).

(٤) أي وقوع القتل في الطرفين لتهيئة أذهان المسلمين للمصيبة.

ويقول رجال: كان الذي رأى بسيفه: الذي أصاب وجهه، فإن العدو أصاب وجهه يومئذ، وقصموا ربايعيته وخرقوا شفته، يزعمون أن الذي رماه عتبة بن أبي وقاص، وكان البقر من قتل من المسلمين يومئذ. وقال: أولت الكبش أنه كبش كتيبة العدو يقتله الله، وأولت الدرع الحصينة المدينة، فامكثوا واجعلوا الذراري في الآطام، فإن دخل علينا القوم في الازقة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت.

وكانوا قد سكوا أزقة المدينة بالبنيان حتى صارت كالحصن. فقال الذين لم يشهدوا بدرا: كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله، فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير. وقال رجل من الانصار: متى نقاتلهم يا رسول الله إذا لم نقاتلهم عند شعبنا؟

وقال رجال: ماذا نمنع إذا لم نمنع الحرب بروع؟^(١) وقال رجال قولاً صدقوا به ومضوا عليه، منهم حمزة بن عبد المطلب، قال: والذي أنزل عليك الكتاب لنجالدهم.

وقال نعيم بن مالك بن ثعلبة، وهو أحد بني سالم: يا نبي الله لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده لادخلناها. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بم؟ قال: بأني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: صدقت. واستشهد يومئذ.

وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو، ولم يتأهوا إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيه، ولو رضوا بالذي أمرهم كان ذلك، ولكن غلب القضاء والقدر^(٢).

(١) الروع: الفرع، والروع: النفس.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٢٤/٣.

الثالث : مخالفة الرماة لأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم البقاء في مواضعهم إذ تركها أغلبهم، عندما رأوا أمارات النصر وبشارات الفتح للمسلمين ، وهو الذي يدل عليه قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ﴾^(١).

الرابع : إرادة التعدد في السبب من الوجوه الثلاثة أعلاه وغيرها .
الخامس : رجوع ثلث جيش المسلمين مع رأس النفاق عبد الله بن أبي بن أبي سلول من وسط الطريق إلى معركة أحد .

السادس : عدم إتخاذ المسلمين خطط إحترافية في حال التعرض لخسارة، وكيف يتحصن بعضهم ببعض ويدفعون العدو، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصلح الأمور بثباته في ميدان المعركة ودعوته الصحابة للرجوع إلى القتال، وهو أبهى وأعظم من الإحترار، وفي التنزيل ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾^(٢).

السابع : فرار أكثر الصحابة يوم أحد .
الثامن : ترك النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع ثلة من أهل بيته وأصحابه وسط المعركة .

قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
من خصائص ومصاديق الإيمان التسليم بأن الله عز وجل يتصف بالقدرة المطلقة وأنه سبحانه يفعل ما يشاء ، ولا يعجزه شيء ، والقدير فعيل من القدرة ومعناه الفاعل لما يريد ، وهو الحكيم ، ومن معاني الإيمان بأن الله عز وجل على كل شيء قدير أمور :

الأول : تنزه المؤمنين من الشرك ، ما ظهر منه وما خفي وقد ظلت بعض الأمم السالفة ، وعدد من الفلاسفة ، قالوا أن الخير من الله أما الشر

(١) سورة آل عمران ١٥٢.

(٢) سورة آل عمران ١٥٣.

فهو من آلهة دونه ، ومنهم من قال أن النور خالق الخير ، والظلمة خالقة الشر .

الثاني : كل مسلم ومسلمة قوله تعالى ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ^(١) في الصلاة اليومية تعاهداً للإيمان وواقية من الشرك ومفاهيم الضلالة .

الثالث : إمتلاء النفس بالرضا والسكينة على كل حال ، حتى في حال مدهامة المصيبة والبلاء ، وفي التنزيل ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ ^(٢) .

وقد تجلّى الإيمان في واقعة أحد ، وهو الذي تبينه آية البحث بنزول المصيبة بالمسلمين وهم يسعون في رضوانه ويجاهدون في سبيله ، ويرفعون لواء التوحيد في تلك البقعة الصغيرة والأرض التي بقيت جرداء حتى يومنا هذا ولكنها توثق معجزة إتساع ضياء الإسلام ، لتدخل الشهاداتان البيوت في مشارق الأرض ومغاربها ، ويصدق الأذان في أرجاء الأرض خمس مرات ، وفيه إعلان يومي متجدد للإيمان والثبات عليه .

ليكون الأذان علة في إستدامة الحياة الدنيا ، والشواهد الجلية على تحقق مصداق عبادة الله في الأرض ، بقوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(٣) بلحاظ أن الأذان عبادة ومقدمة للعبادة ، ونسب إلى بعض المعتزلة في قوله تعالى ﴿ إِنْ أَلَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قولهم بأن الله قادر على كل ما هو مقدور له .

أما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها ، ثم اختلفوا هل يقدر على مثلها أم لا .

(١) سورة الفاتحة ٦ .

(٢) سورة التوبة ٥١ .

(٣) سورة الذاريات ٥٦ .

ولا أصل لهذا القول إنما أفعال العباد بيد الله ولا تجري إلا بمشيئة منه سبحانه بلحاظ أن هذه الأفعال من الممكن والله عز وجل قادر على كل ممكن ، وعلى جعل المستحيل ممكناً ، وبالعكس .

وعلى الجمع بين المتضادين ، وهو من مصاديق كمال القدرة التي لا يمكن سلبها عن الله عز وجل .

وأما ما كان مستحيلاً بذاته مثل كون الشيء موجوداً ومعدوماً في آن واحد ، فهو أمر لا وجود له ، ولا تصح تسميته بالشيء ، لذا فمن إعجاز آية البحث أنها قيدت القدرة بالشيء ، وهذا التقييد مطلق في ذاته وموضوعه ومكانه وزمانه وهو أوسع من أن يحيط به التصور الذهني ، وهو من مصاديق وأفراد الكلمات في قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾^(١) .

ولا يصح التنافر والجدال في المعلوم ونسيان اللامتناهي من الموجود الشاهد على عظيم قدرة الله ، فهذا الجدال نوع من أنواع المغالطة العقائدية ، فيجب أن يسيح العباد في رياض الإيمان والتدبر في الآيات الكونية ، وبديع خلق الله ، وما ينتظر الناس من عالم الحساب والجزاء ، قال تعالى ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) وفي التنزيل ﴿وَكُلُّ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) وينفرد الله عز وجل بهذه المرتبة في العلو والرفعة كما ينفرد بقدرته على كل شيء .

ومن معاني إختتام آية البحث ببيان عظيم قدرة الله أمور :

الأول : دعوة المسلمين للصبر.

الثانية : مواساة المسلمين.

(١) سورة لقمان ٢٧.

(٢) سورة الحج ١.

(٣) سورة الروم ٢٧.

الثالث : التخفيف عن المسلمين .

وفي التنزيل ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(١) وأن وردت الآية في مسألة النكاح ولكن موضوعها أعم ، والمدار على عموم المعنى وليس سبب النزول .

الرابع : بعث السكينة في نفوس المسلمين بأن ما وقع لهم في معركة أحد إنما هو بمشيئة الله ومن عظيم قدرته ، فلا شئ خارج عن قدرته وسلطانه حتى المصيبة التي يصاب بها المسلمون .

الخامس : البشارة بالأجر والثواب للمسلمين ، ولا يقدر على الثواب على المصيبة إلى الله عز وجل ، ومن خصائص هذا الثواب مسائل :

الأولى : حضور الثواب من عند الله .

الثانية : المضاعفة في سنخية وكم وكيف الثواب .

الثالثة : تجدد الثواب .

الرابعة : تغشي الثواب المسلمين في الدنيا والآخرة ، وكل عمل بني آدم ينقطع في الدنيا ، وينحصر الثواب في الآخرة برحمة ومن الله ، وهو من مصاديق قوله تعالى في خاتمة آية البحث ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

السادس : الوعيد للذين كفروا وأصروا على قتال المسلمين فقد سقط سبعون شهيداً من المؤمنين في معركة أحد ، ليعجل الله عز وجل بزوال جاه ودولة الذين كفروا في مكة وما حولها وإلى يوم القيامة .

السابع : دعوة المسلمين للدعاء وسؤال النصر ، فهو قريب منهم لأن الله عز وجل قادر عليه ولا يهبه إلا للأنبياء وأتباعهم .

وهل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ جزء من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين والذي أمره الله به (قل) أم أنه ليس منه ، المختار هو الثاني ، وكأن قول النبي جملة إعتراضية .

قانون مصاديق الإيمان

لقد ذكرت آية البحث المؤمنين بصبغة الدرجات والرفعة والعلو فيها، وقد نالوا هذه المراتب بالإيمان والتقوى والصلاح، وإبتدأت الآية السابقة بقوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾^(١) وصحيح أن الآية ذكرت خصوص المنّ على المؤمنين ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنها تتضمن اللامتناهي من جهات:

الأولى : منّ وطول الله عز وجل .

الثانية : خصائص الإيمان وخصال المؤمنين.

الثالثة : منّ الله على المؤمنين ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وكل فرد وجهة أعلاه تصلح لتأليف مجلدات خاصة بها، وموضوعيتها بنيل المسلمين الدرجات الرفيعة عند الله عز وجل وليس من حصر لمصاديق المنّ في المقام ، ويمكن تقديره على وجوه :

الأول : لقد منّ الله عز وجل على المؤمنين بفضل ولطف منه تعالى، قال تعالى ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾^(٢).

الثاني : لقد منّ الله على المؤمنين من بين الناس.

(١) سورة الجمعة ٢.

(٢) سورة الحجرات ١٧.

الثالث : لقد منَّ الله على المؤمنين بسبب إيمانهم بالله إلهاً واحداً لا شريك له.

الرابع : لقد منَّ الله على المؤمنين من بين الناس.

الخامس : لقد منَّ الله على المؤمنين ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(١).

السادس : لقد منَّ الله على المؤمنين بالنصر.

السابع : لقد منَّ الله على المؤمنين شكراً لهم على إيمانهم.

الثامن : لقد منَّ الله على المؤمنين بدحر عدوهم، وهزيمة مشركي قريش.

التاسع : لقد منَّ الله عز وجل على المؤمنين بنزول القرآن وآياته.

العاشر : لقد منَّ الله على المؤمنين لتلاوتهم القرآن.

الحادي عشر : لقد منَّ الله عز وجل على المؤمنين ليتفقهوا في الدين، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٢).

الثاني عشر : لقد منَّ الله على المؤمنين لتفقههم في الدين فإن قلت إنما بلغ المسلمون مراتب ودرجات الفقاهاة بفضل ولطف من الله عز وجل.

والجواب هذا صحيح، ومن مصاديق منَّ الله عز وجل أنه يعطي ويشكر على هذا الإعطاء وتلقي العبد له ورشحاته على لسانه وجوارحه، وهو من مصاديق احتجاج الله عز وجل على الملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣)، بتقريب أن الله عز وجل يمن على الناس بالنعم ثم يشكرهم

(١) سورة إبراهيم ٣٧.

(٢) سورة التوبة ١٢٢.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

على تلقي هذه النعم، وفي هذا الشكر إصلاح لهم، وفي التنزيل ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾^(١).

الثالث عشر : لقد منَّ الله على المؤمنين لصبرهم في مرضاة الله، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢).

الرابع عشر : لقد منَّ الله عز وجل على المؤمنين لأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

الخامس عشر : لقد منَّ الله عز وجل على المؤمنين ليزدادوا إيماناً.
السادس عشر : لقد منَّ الله على المؤمنين رحمة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السابع عشر : لقد منَّ الله على المؤمنين لأنهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣).
الثامن عشر : لقد منَّ الله على المؤمنين لأن أخوة الإيمان جامعة لهم ومانة من الفرقة والخصومة، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٤).

التاسع عشر : لقد منَّ الله على المؤمنين لأنهم يتعاهدون الصلاة ويأمرون أهلهم بها، قال تعالى ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾^(٥).

(عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله له : يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول : أي رب خير منزل

(١) سورة النساء ١٤٧.

(٢) سورة البقرة ١٥٣.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

(٤) سورة الحجرات ١٠.

(٥) سورة طه ١٣٢.

فيقول : سل وتمن فيقول : أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات لما رأى من فضل الشهادة.

قال : ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول الله : يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟

فيقول : أي رب شر منزل فيقول : فتفتدى منه بطلاع^(١) الأرض ذهباً؟ فيقول : نعم . فيقول : كذبت قد سألتك دون ذلك فلم تفعل .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : عرض عليّ أول ثلاثة يدخلون الجنة ، وأول ثلاثة يدخلون النار.

فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة فالشهيد ، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده ، وعفيف متعفف ذو عيال.

وأما أول ثلاثة يدخلون النار فأمير مسلط ، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله في ماله ، وفقير فخور .

وأخرج الحاكم عن سهل بن حنيف قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن أول ما يهراق من دم الشهيد يغفر له ذنوبه.

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي أيوب الأنصاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من صبر حتى يقتل أو يقتلهم لم يفتن في قبره^(٢).

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبه وأحمد والبخاري عن أنس أن حارثة بن سراقة خرج نظاراً فأتاه سهم فقتله فقالت أمه : يا رسول الله قد عرفت موضع حارثة مني فإن كان في الجنة صبرت وإلا رأيت ما أصنع؟ قال : يا أم حارثة أنها ليست بجنة ولكنها جنان كثيرة ، وأن حارثة لفي أفضلها . أو قال : في أعلى الفردوس^(٣).

(١) الطلاع: ما طلعت عليه الشمس من الأرض.

(٢) الطبراني / المعجم الأوسط ٥٧/١٨.

(٣) مسند أحمد ٣٥٠/٢٤.

وأخرج أحمد والنسائي عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما على الأرض من نفس تموت ولها عند الله خير تحب أن ترجع إليكم إلا القتل في سبيل الله ، فإنه يحب أن يرجع فيقتل مرة أخرى .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والبيهقي في الشعب عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما من أهل الجنة أحد يسره أن يرجع إلى الدنيا وله عشر أمثالها إلا الشهيد ، فإنه ود أنه لورد إلى الدنيا عشر مرات فاستشهد لما يرى من فضل الشهادة^(١).

وأخرج ابن سعد وأحمد والبيهقي عن قيس الجذامي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن للقتل عند الله ست خصال : تغفر له خطيئته في أول دفعة من دمه ، ويجار من عذاب القبر ، ويحلى حلة الكرامة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويؤمن من الفزع الأكبر ، ويزوج من الحور العين^(٢).

وأخرج الترمذي وصححه وابن ماجه والبيهقي عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن للشهيد عند الله خصلاً . يغفر له في أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى عليه حلة الإيمان ، ويجار من عذاب القبر ، ويؤمن يوم الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه^(٣).

(١) الدر المنثور ٣٥٠/٢٤.

(٢) جمع الجوامع ٧٧٧٥/١.

(٣) الدر المنثور ٤٨٩/٢.

قانون الوقاية من الحسد

التعريف الشائع للحسد هو تمنّي زوال نعمة المحسود ، ويقال حسده يحسده حسوداً ، وتحاسد القوم وهم قوم حسده .

والمختار أن الحسد أعم ويشمل إستغراب وجود نعمة عند شخص أو جماعة وإكبارها عليه أو إستصغاره في نيلها وبلوغها .

ويقال (حَسَدَنِي اللَّهُ إِنْ كُنْتُ أَحْسَدُكَ) ^(١) أي جازاني وعاقبني الله عز وجل إن أنا حسدتك ، وكأنه من عمومات قوله تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ^(٢) ويقال ((تحاسدا) حسد كل منهما الآخر) ^(٣).

(وذكره القاضي حسين أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام استكثر قومه ذات يوم فأمات الله تعالى منهم مائة ألف في ليلة واحدة، فلما أصبح شكّا إلى الله من ذلك، فقال الله تعالى له: إنك لما استكثرتهم عنتهم فهلا حصنتهم فقال: يا رب فكيف أحصنهم. قال: تقول حصنتكم بالحي القيوم الذي لا يموت أبداً، ودفعت عنكم السوء بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، **ولا دليل على هذا القول والأنبياء منزّهون عما يترتب الأثر الفادح عليه بهلاك مائة ألف من قوم النبي والقاضي حسين بن حريث المروزي الشافعي ت ٢٤٤هـ.**

قال القاضي: وهكذا السنة في الرجل إذا رأى نفسه سليمة وأحواله معتدلة، يقول في نفسه ذلك. وكان القاضي يحصن تلامذته بذلك إذا استكثرهم. وذكر الإمام فخر الدين الرازي في بعض كتبه أن العين لا تؤثر ممن له نفس شريفة لأنها استعظام للشيء وما ذكره القاضي حسين يرد ذلك) ^(٤).

(١) القاموس المحيط ٢٧١/١.

(٢) سورة الأنفال ٣٠.

(٣) المعجم الأوسط .

(٤) حياة الحيوان الكبرى ١٩٥/١.

وباب الإستعاذة والدعاء مفتوح ، ويتعدى في نفعه ساعته وموضوعه .
وقال الجرجاني : الحسد زوال نعمة المحسود إلى الحاسد (تمني زوال
نعمة المحسود إلى الحاسد) ^(١) والزوال هو الإرتفاع والإضمحلال والمحو
والإبعاد والهلاك ، إلا أن يريد الجرجاني من الزوال أعلاه معنى التحول
والإنتقال ، وهو صحيح لغة أيضاً .

أما العائن فهو الذي يصيب بعينه غيره ، قال الأزهري (يقال عان
الرجل فلانا يعينه عينا إذا ما أصابه بالعين، فهو عائن، والمصاب بالعين
معين. ومن العرب من يقول: مَيعُون. وأنشدني غير واحد:

قد كان قومك يحسبونك سيذا ... وإخال أنك سيّد مَعيون) ^(٢) .
والنسبة بين الحاسد والعائن هو العموم والخصوص المطلق ، فكل عائن
هو حاسد وليس العكس ، وكذا فكل معيون هو محسود وليس العكس ،
والأكثر الأغلب هو الحاسد أما العاين فهو فرد قليل يدفع شر **الحسد**
والعين مجتمعين ومتفرقين بالذكر والدعاء والصدقة والإستعاذة وقراءة
القرآن ، ومنه قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ^(٣) .

ليكون من معاني الآية أعلاه تعليق ومحو ودفع شر الحاسد وفعل الحسد
على وجوه :

- أولاً : ومن شر حاسد إذا عان بعينه .
 - ثانياً : ومن شر حاسد إذا أصاب بعينه .
 - ثالثاً : ومن شر حاسد عائن .
- ليبيان قانون وهو أن تلاوة القرآن تدفع الحسد واثرا العين قبل وقوعه ،
وتمحو الضرر المترتب عليها حتى بعد الإصابة بها .

(١) التعريفات ٢٨/١ .

(٢) تهذيب اللغة ٣٧٩/١ .

(٣) سورة الفلق ٥ .

وتلاوة الآية أعلاه واقية من هذه الإصابة ، ولم تذكر الآية أعلاه العائن ، ولم يرد هذا اللفظ في القرآن ، إنما ذكرت المعنى الأعم بقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾^(١).

والحسد أعم وأوسع من العين ، ويبرز بالجوارح والعين واللسان والتعريض والذم بغير حق والبحث عن العيوب والنقائص .
للتحذير من الحسد وما يسببه من الضغائن والعداوة وأسباب النفرة والكدورة ، وقد أراد الله عز وجل للناس تلقي أحكام الشريعة بالقبول وحسن الإستجابة .

ولا تختص العين والعائن بالكافر والفاسق فقد يكون المسلم **حاسداً** ، **لأن الحسد كيفية نفسانية وقد** يضر المسلم غيره بالعين إن لم يبارك ويذكر الله ويصلي على محمد وآل محمد ويأتي هذا الضرر أحياناً على الولد والمال.

وقد ذكر الحسد في أربع آيات من القرآن تتضمن التحذير من الشح والحقد وغلبة النفس الغضبية عند الكفار ، وتبين فوز المؤمنين بمن ونعم من الله عز وجل ، قال تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾^(٢).

وفي الآية أعلاه وجوه :

الأول : إرادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من لفظ الناس في الآية أعلاه .

الثاني : المقصود النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .

الثالث : إردة العرب لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث من

بينهم .

(١) سورة الفلق ٥.

(٢) سورة النساء ٥٤.

الرابع : المسلمون والمسلمات .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وكلها من مصاديق الآية الكريمة .
ومن أسرار صيغة المضارع فيها تجدد مصاديقها في كل زمان وورد عن
أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال (ثلاثة لا يكلمهم
الله: المنان الذي لا يعطي شيئاً إلا منه ، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته
بالحلف الفاجرة)^(١).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ الشَّيْخُ الزَّانِي وَالْعَائِلُ الْمَزْهُوُّ وَالْإِمَامُ الْكَذَّابُ)^(٢).
(عن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ثلاثة لا
يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : أشمط زان ،
وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله له بضاعة ، فلا يبيع إلا بيمينه ، ولا
يشترى إلا بيمينه)^(٣).

(عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:
ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب
أليم: شيخ زان، وملك جبار، ومقل مختال)^(٤).

(عن سهل بن معاذ ، عن أبيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم قال : من العباد عباد لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا
يطهرهم ، ولا ينظر إليهم ، قالوا : من أولئك يا رسول الله ؟ قال : المتبرئ
من والديه رغبة عنهما ، والمتبرئ من ولده ، ورجل أنعم عليه قوم فكفر
نعمتهم ، وتبرأ منهم)^(٥).

(١) تهذيب الآثار للطبري ٤١/٤.

(٢) السنن الكبرى للنسائي ٤٦/٢.

(٣) المعجم الأوسط الطبراني ٣١٣/١٢.

(٤) البحار ٢٢٣/٧.

(٥) تهذيب الآثار ٣٣٣/٤.

وكل آية في القرآن هي حرب على الحسد وهو من الإعجاز الغيري للقرآن، وفيه دعوة للتزهد عن الحسد وكذا فإن الأخلاق الحميدة والخصال الكريمة مانع منه عند صاحبها ومتلقيها، كما في قوله تعالى ﴿يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَیْبًا قَمَطًا لِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١﴾

لينتشر ويشيع الكرم وإطعام الطعام بقصد القربة إلى الله ، وإرادة رضاه ، والفوز بالثواب منه تعالى ، ونشر مفاهيم المودة والرحمة وحسن العشرة بين الناس .

(عن عبد الله بن عمرو أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الإسلام خير ، قال : تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف) (٢).

لقد جاء الجزء السابق من هذا السفر في تفسير قوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣).

لتكون الآية بياناً لنعم عظيمة من عند الله على المسلمين ، وكيلاً يضرهم حسد الناس فيها ومعها ، من وجوه :
الأول : تفضل الله عز وجل بالإن والإحسان على المسلمين ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) سورة الانسان ٨-١٢.

(٢) السنن الكبرى للنسائي ٥٣١/٦.

(٣) سورة آل عمران ١٦٤.

الثاني : إنتقال المسلمين إلى حال العز بعد الذل والهوان .

الثالث : التآخي والمودة بين المسلمين والمسلمات ، وعصمتهم من آثار الثأر والعصية القبلية .

الرابع : مجئ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم **بالرسالة الخاتمة** ، قال **تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾**^(١).

الخامسة : نزول آيات القرآن ويحسد الناس المسلمين على كل آية من القرآن ، ومن خصائص الآية القرآنية صرف الحسد عن المسلمين .

السادس : من معاني قوله تعالى ﴿يُزَكِّهِمْ﴾ تطهير المسلمين من التحاسد فيما بينهم ، وقد ورد عن أنس بن مالك قال: (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، والذي يبدأ بالسلام يسبق إلى الجنة : لم يقل أحد ممن روى هذا الحديث عن الزهري : والذي يبدأ بالسلام يسبق إلى الجنة)^(٢).

ويدعو هذا الحديث العلماء للتدبر في الصلة والملازمة بين التباغض وآفة الحسد وكذا التدابر والحسد ، وكل فرد منهما مقدمة للآخر من غير أن يلزم الدور بينهما.

السابع : تلاوة المسلمين لآيات القرآن تنزيه للمسلمين من الأخلاق المذمومة ومنها الحسد .

الثامن : من مصاديق قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ مجئ آيات القرآن ببيان قبح الحسد ، ولزوم توقي المسلمين منه والحذر من أهله .

(١) سورة الأحزاب ٤٠.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ١٧/١٧٧.

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إمتحان وإبتلاء ومنه مداهمة الحسد إلى النفس الإنسانية وغيظ بعضهم مما اكتسبه غيره من أقرانه أو أعدائه ، ويتفضل الله فيقي المؤمنين ، ويصرف عنهم حسد وغيظ الذين كفروا ، قال تعالى ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾^(١) ، ومنه نزول أثر الحاسد على الإنسان فالناس في المقام على أصناف :

أولاً : الذي يحسد غيره ولا يحسده أحد .

ثانياً : الذي يحسد غيره ويحسده غيره من الناس .

ثالثاً : **الذي يحسده غيره وهو لا يحسد أحداً .**

رابعاً : السالم من الحسد لغيره أو من غيره وأقلهم الحاسد وهل أكثر الناس الثالث أو الرابع المختار هو ثالثاً أعلاه .

وجاءت آيات القرآن ليكون المسلمون في سلامة ومأمن من الحسد ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾^(٢) وفي هذه السلامة والوقاية إغاظة للذين كفروا وقهر لهم وبعث لليأس في نفوسهم ، ودعوة لهم ولغيرهم للإسلام .

التاسع : إتصاف المسلمين بالعفو عن الآخرين والإحسان إليهم ، قال تعالى ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٣) .

لقد كان المسلمون محتاجين إلى الوقاية من الحسد لما هم عليه من فيوضات الإيمان وتوالي نزول آيات القرآن ووجود النبي محمد صلى الله

(١) سورة الأحزاب ٢٥ .

(٢) سورة آل عمران ١١٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٣٤ .

عليه وآله وسلم بينهم ومجيئه بالمعجزات المتعاقبة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (١).

فجاء القرآن والسنة ببيان قبحه والإنذار منه والبشارة بأن الدعاء والصدقة والذكر تصرف الحسد ، وتضمن القرآن التحذير من تمنّي ذات نعمة الغير لأن خزائن الله مفتوحة ، قال تعالى ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (٢).

مع التباين الموضوعي بين التمني والحسد ، فكل حسد هو تمنّي وليس العكس **والنسبة بينهما هي العموم والخصوص المطلق في الجملة** ، وجاء النهي عن التمني المخصوص كيلا يتجرأ المسلم على القبيح المذموم ، وهو الحسد وليتوجه المسلم إلى المسألة والدعاء والتضرع إلى الله ، وفي التنزيل ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (٣).

وفي وصية للإمام علي للإمام الحسين عليهما السلام يوصيه بتقوى الله ويخبره فيها بأن ترك الحسد يورث المحبة من الناس **ليبان قانون وهو أن ترك الحسد من مكارم الأخلاق ومن التأسّي بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومعاني الرحمة للناس جميعاً في رسالته**.

قال (يا بني أوصيك بتقوى الله عز وجلّ في الغيب والشهادة. وكلمة الحق في الرضى. والقصد في الغنى والفقر. والعدل في الصديق والعدو. والعمل في النشاط والكسل. والرضى عن الله تعالى في الشدة والرخاء. يا بني ما شر بعده الجنة بشر. ولا خير بعده النار بخير. وكل نعيم دون الجنة محقور).

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة النساء ٣٢.

(٣) سورة النساء ٣٢.

وكل بلاء دون النار عافية. اعلم يا بني أن من أبصر عيب نفسه شغل عن غيره. ومن رضي بقسم الله تعالى لم يحزن على ما فاتته. ومن سل سيف البغي قتل به.

ومن حفر بئراً لأخيه وقع فيها. ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته. ومن نسي خطيته استعظم خطية غيره. ومن كابد الأمور عطب.

ومن اقتحم البحر غرق. ومن أعجب برأيه ضل. ومن استغنى بعقله زل. ومن تكبر على الناس ذل. ومن سفه عليهم شتم. ومن دخل مداخل السوء أتهم. ومن خالط الأندال حقر.

ومن جالس العلماء وقر. ومن مزح استخف به. ومن اعتزل سلم. ومن ترك الشهوات كان حراً.

ومن ترك الحسد كان له المحبة من الناس. يا بني عز المؤمن غناه عن الناس. والقناعة مال لا ينفد.

ومن أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير. ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما ينفعه. العجب ممن خاف العقاب فلم يكف. ورجا الثواب فلم يعمل.

الذكر نور. والغفلة ظلمة. والجهالة ضلالة. والسعيد من وعظ بغيره. والأدب خير ميراث وحسن الخلق خير قرين.

يا بني ليس مع قطيعة الرحم ثناء. ولا مع الفجور غنى. يا بني العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت إلا بذكر الله تعالى وواحد في ترك مجالسة السفهاء. ومن تزين بمعاصي الله عز وجل في المجالس ورثه ذلاً. ومن طلب العلم علم. يا بني رأس العلم الرفق. وآفته الخرق. ومن كنوز الإيمان الصبر على المصائب. والعفاف زينة الفقر. والشكر زينة الغنى. ومن أكثر من شيء عرف به.

ومن كثر خطاه قل حياؤه. ومن قل حياؤه قل ورعه. ومن قل ورعه مات قلبه. ومن مات قلبه دخل النار.

يا بني لا تؤيسنّ مذنباً فكم من عاكف على ذنبه ختم له بالخير. ومن مقبل على عمله مفسد له في آخر عمره صار إلى النار. من تحرى القصد خفت عليه الأمور يا بني كثرة الزيارة تورث الملالة. يا بني الطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم. إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله.

يا بني كم من نظرة جلبت حسرة ، وكم من كلمة جلبت نعمة. لا شرف أعلى من الإسلام. ولا كرم أعلى من التقوى. ولا معقل أحرز من الورع. ولا شفيح أنجح من التوبة. ولا لباس أجمل من العافية. ولا مال أذهب للفاقة من الرضى بالقوت.

ومن اقتصر على بلغة الكفاف تعجل الراحة وتبوأ حفظ الدعة. الحرص مفتاح التعب. ومطية النصب. وداع إلى التحم في الذنوب. والشر جامع لمساوي العيوب. وكفى أدباً لنفسك ما كرهته من غيرك.

لأخيك عليك مثل الذي عليك لك. ومن تورط في الأمور من غير نظر في الصواب فقد تعرض لمفاجأة النوائب. التدبير قبل العمل يؤمنك الندم. من استقبل وجوه العمل والآراء عرف مواقع الخطأ. الصبر جنة من الفاقة. في خلاف النفس رشدًا. الساعات تنقص الأعمار. ربك للباغين من أحكم الحاكمين. وعالم بضمير المضميرين.

بش الزاد للمعاد العدوان على العباد. في كل جرعة شرق ، وفي كل أكلة غصص. لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى. ما أقرب الراحة من التعب. والبؤس من النعيم. والموت من الحياة. فطوبى لمن أخلص لله تعالى علمه وعمله وجهه وبغضه وأخذه وتركه وكلامه وصمته. وبخ لعالم علم فكف. وعمل فجدد. وخاف الثبات. فأعد واستعد. إن سئل أفصح. وإن ترك سكت. كلامه صواب. وصمته من غير عي عن الجواب. والويل كل الويل لمن بلي بجرمان وخذلان وعصيان. واستحسن لنفسه ما يكرهه لغيره.

من لانت كلمته وجبت محبته. من لم يكن له حياء ولا سخاء فالموت أولى به من الحياة. لا تتم مروءة الرجل حتى لا يبالي أي ثوبه لبس. ولا أي طعاميه أكل^(١).

وهل من الحكمة التي ذكرت في قوله تعالى ﴿يَعْلَمُهُمُ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ﴾^(٢) ستر المحاسن ، الجواب نعم ، إلا أن يكون القصد تعظيم شعائر الله وإرادة قصد القربة إلى الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون حسن القصد واقية من الحسد .

وذكر العين والعائن ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال : ولو كان شيء سابقَ القدر لسبقته العين^(٣).

والعين هي إصابة الغير بضرر نتيجة العين والرؤية وآلة السمع وإن كان عن بعد وقيل كيف تؤثر العين عن بعد **الجواب أنها** الفكرة المشوبة بالحسد والمقرونة بجنث الطباع بما يؤدي إلى الضرر **وتلاقي وتزاحم الأرواح** ، ولا يحدث أثر للعين إلا بمشيئة وإذن من الله ليبتلي الناس وليعلموا أن النعم تنفر ولا تستقر إلا بالشكر لله عز وجل والذكر الذي يصرف العين وأثرها ، والتقوى الصراط الذي يتوقى معه الإنسان من أن يكون عائناً ضاراً لغيره بعينه .

وهل المصيبة والخسارة التي لحقت بالمسلمين في معركة أحد من العين والعائن سواء على نحو السالبة الكلية أو الجزئية ، الجواب لا ، لأن ذات آية البحث تبين علة تلك المصيبة والخسارة بأنها من عند الله أنفسهم بترك الرماة مواضعهم ، ولييان قانون وهو أن العمل العبادي وما فيه طاعة الله ورسوله

(١) الإعجاز والإيجاز ٧/١.

(٢) سورة آل عمران ١٦٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٣٦٧/١.

في حرز ومأمن من العين والعائن ، قال تعالى ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾^(١) .

وليس من حصر للآيات التي تقي من العين بلحاظ أن القرآن واقية وشفاء و(عن أبي سعيد قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة فأتينا على رجل لديدغ^(٢) في جهينة فداووه فلم ينفعه شيء فقال لو أتيتهم هؤلاء الرهط الذين نزلوا بكم لعل أن يكون عندهم شيء ينفع فقالوا : أيها الرهط إن سيدنا لديدغ فابتغينا له بكل شيء فلم ينفعه شيء فهل عندكم من شيء .

فقال بعضهم : نعم والله إنني لأرقى والله لقد استضعفناكم فلم تضيفونا لا نرقى حتى تجعلوا لنا جعلاً فصالحناهم على قطع من الغنم فانطلق فجعل يتفل عليه وقرأ الحمد لله رب العالمين يعني فاتحة الكتاب حتى برأ فكأنما نشط من عقال قال : فقام يمشي ما به بلية .

فأوفوهم جعلهم الذين قاطعوهم عليه ، فقال بعضهم : اقتسموا . فقال الذي رقا لا تفعلوا حتى نأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنذكر الذي كان فننظر ما يأمرنا به فغدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكروا ذلك فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : وما يدريك أنها رقية ، وقال : أصبتم أقسموا واضربوا لي معكم بسهم^(٣) .

وعن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : من رأى شيئاً فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره عين^(٤) .

(١) سورة ن ٥١ .

(٢) اللديدغ : الذي لدغته الحية ويسمى سليماً تطيراً من اللدغ ، وللتفاؤل ، وفي الحديث : وأعوذ بك أن أموت لديدغاً) لسان العرب ٤٤٨/٨ .

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ٥١٦/٢ .

(٤) تفسير القرطبي ٣٥١/١٠ .

(قال الأصمعي : رأيت رجلاً عيوناً سمع بقرة تحلب فأعجبه صوت
شخبها فقال :

أيتها هذه ؟

قالوا : الفلانية - لبقرة أخرى يورون عنها -

فهلكتا جميعاً - الموري بها والموري عنها .

والشخب : صوت الحليب وهو يخرج من ثديها

وقال أحدهم : إذا رأيت الشيء يعجبني وجدت حرارة تخرج من

عيني ، وقال أيضاً :

وكان عندنا رجلان يعنان الناس ، فمر أحدهما بحوض من حجارة

فقال : تالله ما رأيت كاليوم قط ، فتطأير الحوض فرقتين ، فأخذه أهله

فضبوه

(عن هلال بن إساف وعن سحيم بن نوفل قالاً : كنا جلوساً عند عبد

الله بن مسعود ونحن نعرض المصاحف ، فجاءت جارية إلى سيدهم فقالت :

ما يجلسك ؟ قم فابتغ لنا راقياً فإن فلاناً لقع مهرك بعينه فتركته يدور كأنه

فلك . فقال عبد الله : لا تبتغ راقياً ولكن أذهب فأنث في منخره الأيمن أربعاً

وفي الأيسر ثلاثاً ، ثم قل : بسم الله لا بأس لا بأس أذهب البأس رب الناس

وأشف أنت الشافي لا يكشف الضراء إلا أنت . قال : فما قمنا حتى جاء

الرجل فقال : قد فعلت الذي أمرتني به فبال المهر وراث وأكل (١) .

إنما ورد ذكر العين للفرد الغالب ، وقد يتضرر الإنسان من الحاسد حين

سماعه أو معرفة ما عنده من نعمة .

قال تعالى ﴿وَإِنَّ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَرْقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ

وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۖ﴾ (٢) .

(١) عيون الأخبار ١/ ٦٧ .

(٢) سورة ن ٥١ .

(عن جابر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : العين تدخل الرجل القبر ، والجمل القدر) ^(١) .
ولا تختص العين بالبائس والمسكين فقد تأتي من ذي النعمة والجاء ، وقد يحسد من هو أعلى شخصاً أدنى منه على خصلة يفتقر إليها أو يتعجب من تحلي صاحبها بها .

(دخل سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب على هشام بن عبد الملك في ثياب وعليه عمامة تخالفها ، فقال له هشام: كأن العمامة ليست من الثياب! قال: إنها مستعارة ، فقال له: كم سنك؟ قال: ستون سنة ، قال: ما رأيت ابن ستين أبقى كدنة منك ، ما طعامك؟ قال الخبز والزيت ، قال: أما تأجمهما؟ قال: إذا أجمتهما تركتهما حتى أشتهيهما ، ثم خرج من عنده وقد صدع ، فقال: أترون الأحول لقعني بعينه ، فمات من تلك العلة) ^(٢) ، وفي رواية الأصمعي (فما خرج هشام من المدينة حتى صلى عليه) ، وأنه ابن سبعين .

وكان **أثر وضرر** العين سهم يخرج من نفس وعين العاين ، ولما كان الحسد والحاسد أعم من العاين فإن الإستعاذة من الحاسد تشمل العائن .
والخشية والحيلة من العين أمر مصاحب للإنسان ، وقد ورد في قصة يوسف عليه السلام وصية النبي يعقوب لأولاده ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ^(٣) .

(١) الدر المنثور ٨٧/١٠ .

(٢) الكامل في اللغة والأدب ١٥٤/١ .

(٣) سورة يوسف ٦٧ .

لقد كان لمصر أربعة أبواب فخاف يعقوب على أولاده لأنهم أحد عشر ولداً لرجل واحد ، وكانوا أهل طلعة بهية وحسن ، والناس في حال مجاعة وفقر تكون معه العين **أظهر وأكثر ضرراً** بالذات والأثر .

وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يعيذ الحسن والحسين :
أعيذكما بكلمات الله التامات من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة^(١) .

وأعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون .

ولا يجوز التعري أمام الغير ، كما يكره لبس الملابس الضيقة التي تظهر معالم البدن أما بالنسبة لما يتعلق بمفاتيح جسم المرأة فهذا اللباس محرم ويصرف الحجاب والوقار العين لما فيه من تعظيم لشعائر الله ومعاني الستر .
وكان العرب يسورون النونة عند الصبي المليح أي النقرة التي في ذقنه لترد العين .

وكان الشاعر المقنع الكندي من أجمل الناس وجهاً ، وإذا أسفر عن وجهه لقع أي أصابته العين ، فيمرض فكان لا يخرج من بيته إلا مقنعاً .
واسمه محمد بن ظفر بن عمير ، وهو شاعر مقل في أيام الدولة الأموية ، وكان سخياً لا يرد سائلاً ، فأنفق كل ما ورثه من أبيه وصار عليه دين كثير ، وخطب ابنة عمه فردوه وعيروه بفقره وكثرة دينه ، فقال قصيدته:

يعاتبني في الدين قومي وإنما ... ديوني في أشياء تكسبهم حمداً
ألم ير قومي كيف أوسر مرة ... وأعسر حتى تبلغ العسرة الجهدا
فما زادني الإقتار منهم تقرباً ... ولا زادني فضل الغنى منهم بعدا
أسد به ما قد أخلوا وضيعوا ... ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا
وفي جفنة ما يغلق الباب دونها ... مكلفة لحماً مدفقة ثردا
وفي فرس نهدي عتيق جعلته ... حجاباً لبيتي ثم أخدمته عبدا

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلفٌ جدا
أراهم إلى نصري بطاء وإن هم ... دعوني إلى نصر أتيهم شدا
فإن يأكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن يهدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم ... وإن هم هووا غيبي هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيراً بنحسٍ تمر بي ... زجرت لهم طيراً تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقد
لهم جلّ مالي إن تتابع لي غني ... وإن قل مالي لم أكلفهم رفدا
وإنني لعبد الضيف ما دام نازلاً ... وما شيمة لي غيرها تشبه العبد^(١)
وسأل عبد الملك بن مروان (وكان أول خليفة ظهر منه بخل - : أي
الشعراء أفضل؟ فقال له: كثير بن هراسة، يعرض ببخل عبد الملك:
أفضلهم المقنع الكندي حيث يقول:

إني أحرص أهل البخل كلهم ... لو كان ينفع أهل البخل تحريضي
ما قل مالي إلا زادني كرماً ... حتى يكون برزق الله تعويضي
والمال يرفع من لولا دراهمه ... أمسى يقلب فينا طرف مخفوض
لن تخرج البيض عفواً من أكفهم ... إلا على وجع منهم وتمريض
كأنها من جلود الباخلين بها ... عند النوائب تحذى بالمقاريض
فقال عبد الملك - وعرف ما أراد - : الله أصدق من المقنع حيث يقول:
(والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) (١) .^(٢)

ولم يدفع سخاء وكرم المقنع عنه العين والحسد ، إنما يدفعه الذكر
والتسبيح والدعاء والصدقة سواء كانت الواجبة أو المندوبة ، لذا يمكن
القول أن آية الصدقات وهي ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ

(١) أمالي القالي ١/١٣٣.

(٢) الأغاني ٤/٤١٢.

عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(١) واقية من العين وشر الحاسدين .

ومتى ما أخرج المسلم الحقوق الشرعية التي تتعلق بماله غبطه الآخرون ، وأدركوا أنه سخي في مرضاة الله ، وقد تقدم قبل ثلاث آيات ﴿ أَفَنُؤْتِيهِ أَتَعَبَ رِضْوَانِ اللَّهِ كُنْ أَبَاءً سَخَطَ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَنُحْسَ الْمَصِينُ ﴾^(٢) .

نعم إذا جاء الأجل لم تنفع الرقية والحذر إنما يكون السلاح هو العمل الصالح ، ومنه المصيبة التي لحقت بالمسلمين يوم معركة أحد ، وهو موضوع هذا الجزء من التفسير ، وقال أبو ذؤيب :

(وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ... ألفت كل تميعة لا تنفع)^(٣) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم لأصحابه : إنه دبّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ : الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ ، هِيَ الْحَالِقَةُ ، لَا أَقُولُ تَحْلُقُ الشَّعْرَ ، وَلَكِنْ تَحْلُقُ الدِّينَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَفَلَا أُنبِّئُكُمْ بِمَا يُثْبِتُ ذَاكُمْ لَكُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ^(٤) .

وقال الإمام الصادق عليه السلام : إن الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب^(٥) .

وفي قوله تعالى ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾^(٦) .

(١) سورة التوبة ٦٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٦٢ .

(٣) تهذيب اللغة ١١٠/٤ .

(٤) المسند الجامع ١٨٢/٥ .

(٥) البحار ٢٣٧/٧٠ .

(٦) سورة ن ٥١ .

قال القرطبي أرادت قريش أن يصيبوه (بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا : ما رأينا مثله ولا مثل حججه **ليبان وجه آخر من عدااء ومحاربة قريش للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإضافة إلى قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** ^(١).

وقيل : كانت العين في بني أسد حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول : يا جارية خذي المكتل والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة فما تبرح حتى تقع للموت فتتحر .

وقال الكلبي : كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئا يومين أو ثلاثة ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم فيقول : لم أر كالיום إبلا ولا غنما أحسن من هذه ! فما تذهب إلا قليلا حتى تسقط منها طائفة هالكة فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالعين فأجابهم فلما مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنشد :

(قد كان قومك يحسبونك سيذا ... وإخال أنك سيد معيون)

فعصم الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ونزلت : { وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك } ^(٢) وذكر نحوه الماوردي وأن العرب كانت إذا أراد أحدهم أحدهم أن يصيب أحدا - يعني في نفسه وماله - **تجوع** ثلاثة أيام ثم يتعرض لنفسه وماله فيقول : تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجع ولا أكثر منه ولا أحسن فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله فأنزل الله تعالى هذه الآية قال القشيري : وفي هذا نظر لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغض ولهذا قال : { ويقولون إنه لمجنون } ^(٣) أي ينسبونك إلى

(١) سورة الأنفال ٣٠.

(٢) سورة ن ٥١.

(٣) سورة ن ٥١.

الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن^(١) ولكن الحاسد نظر بعين الإستحسان ، ويدل عليه بيت الشعر أعلاه في الثناء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتسليم بأنه سيد .

وقد تضر الإنسان عينه هو نفسه على النعمة التي هو فيها عند قصوره في الشكر لله عز وجل على النعمة ، وتفكره بكيفية صيرورتها عنده مع أن أسبابها الحسية والمادية لم تجتمع عنده وحين يقارن نفسه مع أقرانه وتختلف عنهم في أسباب ومقدمات تلك النعمة .

(عن عقبه بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من أنعم الله عليه نعمة فأراد بقاءها ، فليكثر من : لا حول ولا قوة إلا بالله)^(٢).

(وعن النبي صلى الله عليه وآله واله من حلي في عينه شئ من الأهل والمال والولد ، فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، منع ، ألا ترى إلى قوله تعالى " ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله "^(٣))^(٤).

ليعلم الإنسان أن الفتنة والبلاء قد يأتيه من نفسه ومن عينه إن لم يداوئها بالذكر ، ويطفئ حرارتها بحسن التوكل على الله ، والتسليم بمشيئته المطلقة .

وعن (أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، أن عامر بن ربيعة ، أخا بني عدي بن كعب رأى سهل بن حنيف وهو مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخزار يغتسل ، فقال : والله ما رأيت كاليوم ، ولا جلد مخبأة قال : فلبط^(٥) سهل ، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقيل : يا رسول

(١) تفسير القرطبي ٢٢٢/١٨.

(٢) الدر المنثور ٣٦٥/٦.

(٣) سورة الكهف ٣٩.

(٤) البحار ٢٧٥/٩٠.

(٥) لبط أي صرع وسقط على الأرض يقال (لَبَطَ فُلَانٌ بِفُلَانٍ الْأَرْضَ لَبْطًا ، أي : صَرَعَهُ صَرَاعًا عَنِيفًا . وَلَبِطَ بِفُلَانٍ ، إِذَا صُرِعَ مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَى ، أَوْ أَمْرٍ يَغْشَاهُ شِبْهُ

الله، هل لك في سهل بن حنيف ، لا يرفع رأسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هل تتهمون من أحد ؟ قالوا : نعم ، عامر بن ربيعة رآه يغتسل ، فقال : والله ما رأيت كاليوم ، ولا جلد مخبأة فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عامر بن ربيعة فتغيط عليه .

وقال : علام يقتل أحدكم أخاه ؟ ألا تبرك ؟ اغتسل له فغسل له عامر، فراح سهل مع الركب ليس به بأس قال : والغسل أن يؤتى بالقدح، فيدخل الغاسل^(١) كفيه جميعا فيه ، ثم يغسل وجهه في القدح ، ثم يدخل يده اليمنى ، فيغسل صدره في القدح ، ثم يدخل يده فيغسل ظهره ، ثم يأخذ بيده اليسرى يفعل مثل ذلك ، ثم يغسل ركبتيه ، وأطراف أصابعه من ظهر القدم ، ويفعل ذلك بالرجل اليسرى .

ثم يعطي ذلك الإناء قبل أن يضعه بالأرض الذي أصابه العين ، ثم يمج فيه ، ويتمضمض ويهريق على وجهه ، ويصب على رأسه ، ويكفيء القدح من وراء ظهره^(٢) .

والذي يخشى أن تصيب عينه الغير عليه أن يتبرك ويقول: اللهم بارك عليه أو اللهم بارك له ، أو اللهم أجعل فيه البركة ونحوه من الأولوية وعن (أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يتعوذ من الجن ومن عين الإنسان)^(٣) .

والعائن على قسمين :

الأول : العائن عن إرادة وقصد .

الثاني : العائن بالطبع ورسوخ الحسد في نفسه .

مُفَاجَأَةً . العين ١٠١/٢ .

(١) أي الحاسد هو الذي يغسل .

(٢) صحيح ابن حبان ٢٥٧/٢٥ .

(٣) زاد المعاد ١٤٩/٤ .

وتسرع العين إلى الأطفال أكثر منه إلى الكبار وإلى المتعدد من الأبناء، والوقاية منها سهلة ووافية بالمواظبة على الذكر وقراءة المعوذتين والأدعية المأثورة .

(عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود)^(١) . ومن التوقي من العين قراءة سورة الفاتحة وآية الكرسي والمعوذتين والصلاة على محمد وآله ، ومن الآيات في المقام وجوب قراءة كل مسلم ومسلمة سورة الفاتحة في الصلاة اليومية عدة مرات لتكون حرزاً وواقية من العين ما بين الصلاتين وهل تنحصر الوقاية في المقام بالبدن الجواب لا، فانها تشمل المال والولد ، لتكون هذه القراءة سبباً لإستدامة النعمة في قوله تعالى ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٢) .

مسألة/ لا يقدر الحسد بعدالة المسلم إذا كان نوع كيفية نفسانية، وإن كانت تقهر بالذكر والصبر، ولا يجوز التظاهر بالحسد وهو من ذمائم الأخلاق ، وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: ثلاثة لم ينج منها نبي فمن دونه: التفكير في الوسوسة في الخلق، والطيرة، والحسد، إلا أن المؤمن لا يستعمل حسده)^(٣) .

ويرد موضوع الحسد والزجر عنه في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي باب الغيبة والمعاملات والمشورة، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾^(٤) ، ولا يجوز إظهار الحسد والبغض والعداوة للآخرين^(٥) .

(١) المعجم الأوسط / الطبراني ٦/٦ .

(٢) سورة الكهف ٤٦ .

(٣) البحار ٥٥/٣٢٣ .

(٤) سورة آل عمران ١١٨ .

(٥) أنظر (الحجة) رسالتنا العملية للأحكام الشرعية/ الجزء الثالث .

مسألة / تقبل شهادة الحاسد، لأنها نوع إخبار عن حال وواقع، وتصح إمامته لأن ذكر الله واقية من العين، نعم من يثبت أنه عائن وعينه تجلب الأذى والضرر فلا تصح إمامته إلا أن يتوب.

والإجماع على حرمة إظهار الحسد، ومنهم من عدّه من الكبائر، ولم يثبت.

وتدفع العين والنحوسة بالصدقة سواء الواجبة أي الزكاة أو المندوبة والتي لا تقيد بنصاب أو مقدار، وعن الإمام علي عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن لكل يوم نحساً، فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة، ثم قال: اقرأوا مواضع الخلف، فإني سمعت الله يقول { وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه } ^(١) إذا لم تنفقوا كيف يخلف ^(٢). يخلف ^(٣).

بيت العنكبوت وصلته بآية البحث

(العَنْكَبُوتُ بُلْغَةُ أَهْلِ الْيَمَنِ الْعَنْكَبُوهُ وَالْعَنْكَبَاهُ) ^(٣).

والعنكبوت مؤنث وقد يذكر، والذكر عنكب وهي عنكبة ^(٤).

وقال الشاعر في التذكير:

على هَطَالِهِمْ مِنْهُمْ بُيُوتٌ ... كَأَنَّ الْعَنْكَبُوتَ هُوَ ابْتَنَاهَا ^(٥)

وتسمى (أم قشعم: العنكبوت) ^(٦).

(وقيل الخيط الخارج من فم العنكبوت الذي يقال له مخاط الشيطان) ^(٧).

(٧).

(١) سورة سبأ ٣٩.

(٢) الدر المنثور ٨/٢٤٨.

(٣) العين ١/١٥٣.

(٤) القاموس المحيط ١/١٠٢.

(٥) المخصص ٤/٢١٦.

(٦) المزهر ١/١٦٢.

(٧) أساس البلاغة ١/١٢٧.

والعنكبوت ديبية تنسج نسخاً رقيقاً بين طرفي ركن الجدار ، وعلى رأس البئر ونحوها (قال ذو الرمة:

هي اصطنتته نحوها وتعاونت ... على نسجها بين المثاب عناكب^(١)
ويسمى بيت العنكبوت المثاب ، (ويسمى عكاشة)^(٢).

وتبدأ أنثى العنكبوت ببناء البيت لتجذب الذكر إليها وإذا تم التزاوج والتلقيح بينهما ، تعتمد الأنثى إلى قتل الذكر وأكله فهي أكبر منه حجماً وأشد منه بأساً ، وقد تتركه الأنثى فلا تقتله حتى إذا خرج الأبناء من البيض وأشدت عودهم عمداً إلى أبيهم فقتلوه وتغذوا به إلا أن يهرب .

وقد تقوم الأنثى بقتل أولادها وأكلهم من دون شفقة ، وكذا فان الصغار حينما يولدون في مكان ضيق وكيس من حرير قد يتصارعون فيما بينهم على المكان أو من أجل الطعام فيأكل بعضهم بعضاً حتى تنسلخ من جلدها وتمزق جدار الكيس الحريري ، وهو من الأسرار في قلة عدد العناكب مع إنصراف الإنسان عنها في الغالب الأعم ، فترى في الموضع الواحد أفراداً قليلة منه ، ولا يزداد العدد خلال سنوات وإن تعاقبت أجيال العناكب.

وجاء لفظ ﴿أَوْهَنَ﴾^(٣) أفعل تفضيل لبيان أن بيت العنكبوت أضعف البيوت لقتل بعضها بعضاً ، وحتى خيوط العنكبوت التي هي ذات قوة لتحمل الضغط الشديد ، وقيل يطلق عليها الفولاذ البيولوجي فانها سرعان ما تتعثر ولا ينتفع منها ولا تحمي أهلها وساكنيها ، وجاء قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٤) بصيغة المثل للتأكيد على

(١) العين ١/١٥٣.

(٢) الصحاح في اللغة ١/٤٨٨.

(٣) سورة العنكبوت ٤١.

(٤) سورة العنكبوت ٤١.

ضعف ووهن دولة وجماعة الذين كفروا ، وفيه ترغيب للمسلمين للصبر في ملاقاتهم وعدم الإفتتان بهم ، وهو بشارة بقرب زوال سلطانهم وشأنهم . ولم يرد لفظ ﴿أَوْهَنَ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه التي فيها لفظ ﴿الْعَنَكُوتِ﴾ مرتين ولم يرد في آية أخرى من القرآن وتسمى السورة سورة العنكبوت لتكون هذه التسمية دعوة للمسلمين للتدبر في الذين كفروا في دولتهم وشأنهم وجماعتهم وحتى في نفوسهم إذ يملأهم الخوف والحزن لأنهم إختاروا الجحود ومعاداة الله ورسوله .

(عن ابن مسعود قال : سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي الذنب أكبر؟ قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك .

قلت : ثم أي؟

قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك .

قلت : ثم أي؟

قال : أن تزاني حليلة جارك ، فأنزل الله تصديق ذلك { والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون } (١) .

لقد خلق الله عز وجل السماوات والأرض لتكون ملكاً طلقاً له ، وجعل الإنسان (فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (٢) ليعبد فيه ، أما أن يتخذ فريق من الناس أولياء يعبدونهم من دون الله فانه سبحانه لا يرضى بهذا التعدي فيجعل بيوتهم واهية ضعيفة .

و (عن أبي قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرجل : إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتذر الخالق ، وينهاك أن تقتل ولدك وتغدو كلبك ، وينهاك أن تزني بحليلة جارك) (٣) .

(١) الدر المنثور ٣٨٢/٧ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) الدر المنثور ٣٧٣/٧ .

ليكون المثل في الآية القرآنية ومضمونها القدسي دعوة للمسلمين للثبات في منازل الإيمان ، وفيه بشارة حدوث الفتن بين المشركين .
وأخبرت الآية أعلاه من سورة العنكبوت أن أنثى العنكبوت هي التي تبني البيت لقوله تعالى ﴿ اتَّخَذَتْ بُيْتًا ﴾ فهي التي تقوم بفرز مادة الحرير وسبك الخيوط وغزو الشبكة ترغيب الذكر بالتلقيح ، وهذا الذي أثبتته العلم الحديث ، ومن علامات الوهن في بيت العنكبوت أن القوامة فيه للأنثى فهي تبني البيت وتصلحه وتزين للذكر حتى إذا ما لقحها صار تحت رحمتها تلتهمه في أي ساعة .

ومن علامات وهن بيت العنكبوت ضعف خيوطه والمسافات التي تتخلل نسيجه ، وهي لا تقي من حر أو برد ، ولا تستر من حرارة الشمس ، ولا تمنع من المطر مع دقة نسجها ، وقيل أن سمك خيط العنكبوت يكون جزء من أربعة آلاف جزء من سمك خصلة شعر الإنسان ، ومع هذا فهي أقوى مما مثلها من الفولاذ والحديد لذا سمي هذا الخيط الدقيق ب (الفولاذ البيولوجي) أو (الفولاذ الحيوي) ولم تمنع هذه القوة والسبك في بيت العنكبوت من ضعفه ووهنه وعجزه عن حماية اهله وساكنيه ، وقتل بعضهم بعضاً ، وقيل لو قُتل حبل من خيوط العنكبوت بمقدار وحجم إصبع الإبهام لصار قادراً على حمل طائرة كبيرة .

وقد ذكر القرآن بيوت ومساكن الناس ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾^(١) كما ذكر الله عز وجل أطلال بيوت المكذبين بالتوحيد والرسالة وبقاءها موعظة وعبرة ، قال تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِتْلِكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾^(٢) ، وجاء القرآن بذكر بيوت الحيوانات ، فذكر الله عز وجل النحل وكيف أنها تبني

(١) سورة النحل ٨٠.

(٢) سورة القصص ٥٨.

بيوتها بالشمع بهندسة إعجازية تتجلى فيها معاني الوحي بقوله تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾^(١).

وذكر بيوت النمل والنظام الاجتماعي فيها ومعرفة كل فرد مسكنه ، وعدم الاختلاط والتعدي بينها ، قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَّأَعَلَىٰ وَادِيَ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢).

وتدل الآيتان أعلاه على وجود إعجاز علمي بخصوص بيوت النحل ومساكن النحل وحيوانات وطيور وحشرات أخرى لم يكتشف بعد مما يستلزم دراسات ورصد وأجهزة كشف لأماكنها وطبيعة حياتها اليومية . ومن خصائص بيت العنكبوت أن فيه مادة لزجة لإصطياد بعض الحشرات ، وقد يفتتن بعض الناس والقبائل بالمشركون وينصرونهم في قتالهم ضد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين أو أنهم يتنفعون منهم ومن أموالهم أو لهم حلف معهم ، فلا يخيف هذا الأمر المسلمين لأن ذات بيت وكيان وهيكل جماعة المشركون واهن وضعيف .

وهل انتفع المسلمون من المثل في آية العنكبوت ، الجواب نعم ، فلم تخيفهم الجيوش العظيمة التي زحف بها كفار قريش مع قلة عدد المسلمين ، وفي التنزيل ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٣).

(١) سورة النحل ٦٨.

(٢) سورة النمل ١٨.

(٣) سورة آل عمران ١٧٣.

وهل في آية العنكبوت دعوة للمسلمين لفتح مكة، الجواب نعم، وهو من الإعجاز في لغة المثل في القرآن وما فيها من الإشارات والعلامات التي تضيء للمسلمين سبل الرشاد، فيكفي الفهم الظاهري للآية أعلاه وأن بيت العنكبوت لا يقي ساكنه من حر أو برد وأنه سريع الزوال والتلف كمشبه به، وربطه بحال المشبه وهم المشركون.

ليكون من إعجاز الآية القرآنية أن فهم وتفسير الناس للآية القرآنية في أي زمان كاف للعمل بمضامينها، والإنتنفاع الأمثل منها، لتكون آية العنكبوت وإخبارها عن ضعف ووهن بيته وصيrote شبيهاً لدولة وجيش المشركين ومثلاً لمصاحباً له مواساة كريمة من عند الله للمسلمين عند نزول المصيبة بهم يوم معركة أحد، لذا نسبت آية البحث المصيبة وأسبابها إلى المسلمين أنفسهم بقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾^(١).

ليان قانون وهو أن الذين يكون يبتهم ودولتهم كبيت العنكبوت عاجزين عن إنزال المصيبة بالمسلمين، وفيه دعوة للمسلمين للتدارك، وإجتنب أسباب الخسارة في معارك الإسلام اللاحقة، وهو الذي يتجلى بالصبر وحسن المناجاة في معركة الخندق، وبالإمتناع عن الفرار يوم معركة أحد.

(وأخرج الأزرقي عن جابر الجزري قال : جلس كعب الأخبار أو سلمان الفارسي بفناء البيت فقال : شكت الكعبة إلى ربها ما نصب حولها من الأصنام وما استقسم به من الأزلام، فأوحى الله إليها : أني منزل نوراً، وخالق بشراً يحنون إليك حنين الحمام إلى بيضه، ويدفون إليك دفيق النسور . فقال له قائل : وهل لها لسان؟ قال: نعم، وأذنان وشفتان)^(٢).

(١) سورة آل عمران ١٦٥.

(٢) الدر المنثور ١/٢٥٦.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقاتل بنفسه في معارك الإسلام ضد الذين كفروا لبيان مصداق نبوي على وهن وضعف دولة الشرك والضلالة .

(عن قتادة ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غزا تسع عشرة مرة، قاتل في ثمان: يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الأحزاب ، ويوم قديد ، ويوم خيبر ، ويوم فتح مكة ، ويوم ماء لبني المصطلق ، ويوم حنين)^(١).

قانون فتح مكة حاجة

لم يهاجم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المشركين ولم ينتزع ويظهر البيت الحرام من أوثانهم إلا في حال اتصفت بأمور :
أولاً : تم فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة أي بعد معركة بدر بست سنوات .

ثانياً : لم يتم الفتح إلا بعد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة ثم نقض الذين كفروا العهد الذي بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبينهم .

ثالثاً : دخول شطر من الناس في الإسلام، قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾^(٢) فان قلت أن سورة النصر نزلت بعد فتح مكة.

والجواب هذا صحيح إلا أن دخول الناس جماعات في الإسلام سبق الفتح ، وكان مقدمة له ، لذا فان عدد جيش المسلمين الذي دخل مكة فاتحاً هو عشرة آلاف رجل ، ولم يلقوا قتالاً إلا من قبل نفر من كفار قريش وقتل منهم اثنا عشر رجلاً، بينما لم يقتل من المسلمين إلا رجلان ، وهو معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في السنة الدفاعية ، وهل هو من دعاء

(١) الدر المنثور ٤٢١/٢.

(٢) سورة النصر ١-٢.

إبراهيم للنبي محمد ولمكة ذاتها ، كما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^(١).

الجواب نعم ليكون فتح مكة من مصاديق سلامة ذرية إبراهيم من عبادة الأصنام وإلى يوم القيامة.

وعن عبد الله بن مسعود قال (دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: "جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد")^(٢).

(قال الكلبي: فجعل الصنم ينكب لوجهه إذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، وأهل مكة يقولون: ما رأينا رجلاً أسحر من محمد)^(٣). ترى ماذا لو لم يتم فتح مكة عنوة: لقد توجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في السنة الثامنة للهجرة إلى مكة لفتحها، ولو لم يتم هذا الفتح وتأخر قليلاً فماذا يحدث، الجواب هو أن المسلمين في مكة يشورون على المشركين، ويفتكون بهم، ويكسرون الأصنام، وقد تكون مذابح يقع فيها قتل من الطرفين، ويستمر القتال أياماً وشهوراً بما يسمى بالحرب الأهلية ويسحق رؤساء الكفر وتنكسر شوكتهم ولكن دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم سبق لهم بالهداية في أشد ساعات إيذائهم له وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤).

(١) سورة إبراهيم ٣٥.

(٢) السيرة النبوية / ابن كثير ٥٧١/٣.

(٣) البحار ٢٠٥/١٦.

(٤) سورة الأنبياء ١٠٧.

فحينما كسروا رباعيته وشج وجهه وسالت الدماء من جبهته يوم أحد ، شق على علماء المسلمين فقالوا له : وقالوا لو دعوت عليهم فقال اني لم أبعث لعانا ولكني بعثت داعيا ورحمة اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون . (وكان صلى الله عليه وآله وسلم أعظم الناس عفوا لا ينتقم لنفسه)^(١) . وفي اليوم الثاني الذي تلا فتح مكة قامت خزاعة بقتل رجل من هذيل وهو مشرك ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قام (خطيبا فقال: يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ولا يعضد بها شجرا)^(٢) .

و شاء الله عز وجل أن يكون الفتح سبيلاً لدخول كبار رجالات قريش الإسلام ، ولم يغادروا الدنيا على الكفر الذي تلاحق أهله اللعنة إلى يوم القيامة .

لقد أراد الله عز وجل السلامة لأهل مكة من إشاعة القتل وسفك الدماء في أزقتها وعلى أبواب البيوت فحفظها وحفظهم بالفتح العاجل فقد كان الإسلام يغزو القلوب ويدخل البيوت من غير إستئذان من أربابها فيدخل الرجل إلى بيته ويتفاجئ بدخول ابنته وابنه وزوجته الإسلام ، وهم يتلون آيات القرآن وكان منها آيات القتال والإذن به إلى جانب انكشاف قبح نصب الأوثان في البيت الحرام ، فلا يطيق المسلمون من أهلها ومن القبائل الوافدين حال الضلالة والتقرب إلى الأصنام ، وقد يتفشى القتل في أهل مكة فان الأمر لا يقف عندها بل تبرز ضغائن وعدوات جديدة تلقي بكدوراتها على مجتمع المسلمين .

(١) عيون الأثر ٤٢١/٢ .

(٢) عيون الأثر ٢٠١/٢ .

فأراد الله عز وجل التخفيف عنهم بالفتح المبين، ليكون صرف هذه العداوات من مقدمات مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١) وهو من إعجاز القرآن بأن يفضل الله ويقىض أسباباً ومقدمات للواقع العملي لمضامين الآية القرآنية .

وبعد فتحه مكة خرج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مسلمي الفتح ألفاً رجل ولو وقع قتال بين أهل مكة لما خرج هذا العدد لأن الحرب أولها نجوى وأوسطها شكوى وآخرها بلوى وقتل وجراحات ، وشاء الله أن تقع معركة حنين وينتصر بها المسلمون نصراً عظيماً بفضل ولطف من عند الله عز وجل لقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرَّتُكُمْ فَلَمْ تَغْنَبْ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾^(٢).

لقد ذكرت الآية السابقة من الله عز وجل على المسلمين ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ يُلْقِيهِمْ كِتَابَ الْوَحْيِ وَالْحِكْمَةِ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٣)، فهل كان فتح مكة من هذا المنّ، الجواب نعم ، ومن أبهى مصاديقه .

ويمكن إنشاء علم مستقل يتعلق بالآية السابقة بعرض كل واقعة في الإسلام وبيان مصاديق المنّ الإلهي فيها على المسلمين فتجلى مضامين الآية القدسية بخصوص فتح مكة من جهات:

الأولى : تقدير آية البحث : لقد مَنَّ الله على المؤمنين بفتح مكة بلحاظ أنه نعمة عظمى تتجدد فيويضاتها إلى يوم القيامة ولييان قانون وهو أن فتح

(١) سورة الحجرات ١٠.

(٢) سورة التوبة ٢٥.

(٣) سورة آل عمران ١٦٤.

مكة تم بمنّ ومدد وعون من الله عز وجل ، ليكون من معاني ودلالات قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدُرُوتِهِمْ إِذْ لَبَّيْكُمْ﴾^(١) الوعد بنصر الله المسلمين في المعارك التي تقع بينهم وبين الذين كفروا.

الثانية : من خصائص نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فتح مكة ، وإزاحة عبادة الأوثان فيها إلى يوم القيامة .

لقد بني البيت الحرام أيام آدم عليه السلام الذي جاءه من الهند حاجاً ، (قال ابن عباس : حجّ آدم أربعين حجةً من الهند إلى مكة على رجليه فهذا بدء أمر الكعبة فكانت على ذلك إلى أيام الطوفان فرفعه الله إلى السماء الرابعة فهو البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة.

وبعث الله جبرائيل حتى خبأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس صيانة عن الفرق فكان موضع البيت خالياً إلى زمن إبراهيم ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسماعيل وإسحاق ببناء بيت له يعبد ويذكر فيه .

فلم يدر إبراهيم أين خبيء فسأل الله تعالى أن يبين له موضعه فبعث الله إليه السكينة ليدله على موضع البيت وهي ريح جموح لها رأسان شبه الحية فتبعها إبراهيم إلى أن أتيا مكة فطوّق الله السكينة على موضع البيت كتطويق الحية الحنيفة وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة فبناه^(٢) .

وعن الإمام علي عليه السلام أن آدم عليه السلام حج (سبعين حجة ماشياً على قدميه وأول حجة حجها كان معه الصرد يدلّه على مواضع الماء)^(٣) .

(١) سورة آل عمران ١٢٣ .

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٢٣٨/١ .

(٣) البحار ٧٨/١٠ .

ثم قام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ببناء قواعد البيت ودعوة الناس للحج ، قال تعالى في خطاب إلى إبراهيم ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(١).

ومن الآيات أن إسماعيل أقام عند البيت الحرام منذ صغره إذ جاء به وأمه هاجر إبراهيم عليه السلام لتكاثر ذرية إبراهيم بجوار البيت الحرام ويكون هذا السكن مقدمة لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وهل هو مقدمة لفتح مكة ، الجواب نعم ، ومن خصائص رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عدم نفرة قريش وأهل مكة من دخوله فاتحاً ، هذا الفتح الذي يتصف بالإعجاز وهو عصمة لمكة من حينه وإلى يوم القيامة من عبادة الأوثان ودنس الشرك ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾^(٢) وفيه شاهد على تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء السابقين .

الثالثة : تقدير الآية : لقد منَّ الله على المؤمنين بفتح مكة لإستدامة حج المسلمين البيت الحرام كل عام في أمن وسعة وسلامة من مفاهيم الشرك والضلالة .

الرابعة : لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ليفتح مكة ، ويؤدي المسلمون مناسك الحج كل سنة والعمرة كل يوم ، وهو الأمر الذي لا يتم إلا بفتح المسلمين لمكة مما يدل على أنها ضرورة وحاجة للمسلمين والناس جميعاً .

وإن قلت قد يأذن الذين كفروا للمسلمين بالحج من غير أن تصل النوبة إلى الفتح .

(١) سورة الحج ٢٧ .

(٢) سورة التوبة ٢٨ .

الجواب قد كان صلح الحديبية وعمره القضاء حجة في المقام ، وشاهداً على لزوم الفتح وأن الله عز وجل يخزي الذين كفروا فينقضوا ميثاق الحديبية بإعانتهم حلفائهم من بني بكر على خزاعة وهم حلفاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(وكانت خزاعة مسلمهم ومشرکهم عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئاً كان) (١).

فقد طلب مشركوا قريش من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الرجوع وعدم دخول مكة للعمرة ، ورضوا بأن يكون دخولهم في العام القادم ، واشتروا أموراً :

الأول : حصر إقامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من المهاجرين والأنصار في مكة بثلاثة أيام فقط .

الثاني : ألا يكون مع كل مسلم إلا سلاح الراكب .

الثالث : أن تبقى السيوف في القرب .

الرابع : عدم دخول مكة بغير السيوف الخاصة .

ويستقرأ من هذه الشروط قسوة كفار مكة وصدهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين عن البيت الحرام بغير حق ، وهو أمر مخالف لأصل خلق الإنسان وبناء الأنبياء البيت ووجوب عمارته ، لذا جاء الإنذار بعذابهم بقوله تعالى ﴿ وَمَا لَهُمْ لَّا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ (٢).

وتدل الآية أعلاه على بطلان شروط كفار قريش في صلح الحديبية لأنهم ليسوا أولياء البيت الحرام ، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل

(١) عيون الأثر ٥/٢.

(٢) سورة الأنفال ٣٤.

بها حجة وتقية وصبراً وبإذن الله عز وجل ، وهو سبحانه العالم بقيام كفار قريش بنقض العهد .

لقد كان فتح مكة حاجة للمسلمين والناس جميعاً ، قال تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ ﴾^(١).

قانون دعوة الآية القرآنية لنبذ الفرقة والقتال

لقد أبى الله عز وجل إلا أن يجعل الناس على بصيرة من أمور دينهم ودنياهم ، وهو الذي يتجلى بقوله تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾^(٢) فقد أصلح الله عز وجل آدم لهذه الخلافة قبل أن يهبط إلى الأرض إذ علمه ﴿ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾^(٣) وجعله يخاطب الملائكة ويسمع منهم ويسمعون منه .

ثم تفضل الله عز وجل وأنزل الكتب السماوية على الأنبياء حتى ختمها بالقرآن وهو الكتاب الجامع للعلوم ومنها وجوب إمتناع المسلمين عن الإفتتان والإقتتال فيما بينهم بل أن القرآن نهاهم عن الإفتراق والتباعد بقوله تعالى ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾^(٤) لبيان تقوم الوحدة الإسلامية بالتقيد بأحكام الشريعة ووجود ضابطة كلية تمنع من الفرقة والتباغض في كل أمر من أمور الدين والدنيا .

(١) سورة التوبة ١٧.

(٢) سورة آل عمران ٣٠.

(٣) سورة آل عمران ٣١.

(٤) سورة آل عمران ١٠٣.

ويدعو القرآن إلى نبذ العنف والإرهاب بحفه على إختيار الحكمة والبرهان والموعظة ، قال تعالى ﴿ادْعَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(١).

ليجتهد المسلمون في طاعة الله وتتوارث أجيالهم الأخوة الإيمانية بينهم ، وتكون هذه الأخوة دعوة للناس لدخول الإسلام ، وزاجراً عن التعدي على المسلمين وثغورهم ، ليعم الأمن والسلام ربوع الأرض في الحياة الدنيا التي جعلها الله عز وجل داراً ومحلاً لرحمته .

لقد جاءت آيات القرآن والسنة النبوية ببيان حرمة دم المسلم ، والتشديد على لزوم ترك القتل وسفك الدماء ، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فْتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَابَعَيْنِ تَوْبَةٌ مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٢) لبيان أن الله عز وجل ينهى عن قتل المسلم والذين لهم عهد وميثاق وصلاح مع المسلمين وفيه دلالة بأن الحياة جامعة للمسلمين وغيرهم ، وأن الله عز وجل يدعو المسلمين إلى العهد والميثاق مع غيرهم بما ينشر شآبيب الأمن في ربوع الأرض .

وعن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "من قتل مُعَاهِداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ریحها توجد من مسيرة أربعين عاماً"^(٣).

(١) سورة النحل ١٢٥.

(٢) سورة النساء ٩٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٣٦٣.

ومع نهي القرآن عن الفرقة بين المسلمين فانه جاء بالأمر بالصلح بين المتحاربين منهم.

وبين الفرقة والإقتتال عموم وخصوص مطلق فالفرقة أعم ، وتصدق على الاختلاف باللسان والتنافر والتباعد والتدابير والتحاسد والتنازب بالألقاب.

أما الإقتتال فهو إشهار السيوف وسعي كل طرف لقتل الآخر فقال تعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾^(١).

وهل ينطبق اسم الطائفة على المنفرد من الناس ، الجواب نعم ، للتحذير من الوسائل التي تقود إلى الفتنة.

وفي علم الفقه قاعدة وهي أن للوسائل أحكام المقاصد ، فالوسيلة نوع طريق وبلغة لتحقيق المقصود ، فاذا كان المقصد حسناً فان الوسيلة والطريقة التي يتوصل بها إليه لابد أن تكون حسنة ، أما إذا كان المقصد سيئاً فان الوسيلة إليه سيئة ، فيترشح الحسن والسوء على الوسيلة من ذات الغاية والمقصد ، ومن مصاديقه قوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٢).

وتسمى هذه القاعدة في علم الأصول مقدمة الواجب وقد بيناه مفصلاً في علم الأصول^(٣).

وهذا المعنى غير القول بأن الغاية تبرر الوسيلة والذي معناه إذا كانت الغاية حسنة فيجوز الوصول إليها بوسيلة وطريقة محرمة ، فهذا الوسيلة محرمة مطلقاً وإن كانت بلغة لغاية صحيحة ، لذا تجلت موضوعية الصبر في الشريعة الإسلامية للحصانة من إتباع الوسائل المحرمة وللمنع من السعي إلى المقاصد السيئة .

(١) سورة الحجرات ٩.

(٢) سورة المائدة ٢.

(٣) أنظر كتابنا الموسوم معراج الأصول .

لقد حذر القرآن من الإحتقان والإقتتال الطائفي والصدام المجتمعي ودعا عموم المسلمين إلى التعاون لنبذه ومنعه والتدخل لوقفه في حال نشوبه. ولم يكتف القرآن ببيان حرمة الإقتتال بين المسلمين بل ذكر حالة أخرى، وهي إن وقع القتال بين المسلمين فعلى الناس ألا ينفروا من الإسلام ومن مبادئه لأن هذا الإقتتال ليس منها، إنما يعود إلى ذات الأشخاص الذين يتقاتلون وغلبت النفس الغضبية والشهوية بدليل أن الآية نسبت القتال إلى ذات القائل ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾^(١) أي بما هم طائفتان وأن الأصل هو وحدة المسلمين.

ومن إعجاز الآية القرآنية أنها تدعو المسلمين إلى ترك الخصومة والإقتتال إذ أنها سور جامع لمعاني المودة والرفق بين المسلمين، وتدل بالدلالة التضمنية على جمعها لهم في أداء الواجبات العبادية والفرائض ليكون من الإعجاز في تشريع صلاة الجماعة عند المسلمين إتحادهم وإجتماعهم في موضع واحد وإشتراكهم في الفعل العبادي السلمي الذي يزيل الضغائن إذ أنهم يذكرون الله ويعلنون تسليمهم بالتوحيد، والتصديق بالنبوة والتنزيل، وقراءة آيات القرآن ويؤدون أفعالا عبادية واحدة، قال تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٢).

ولقد حذرت آيات القرآن من الشيطان وإثارته الفتنة بين المسلمين قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾^(٣) والشيطان هنا اسم جنس ويشمل ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾^(٤).

(١) سورة الحجرات ٩.

(٢) سورة التوبة ٧١.

(٣) سورة المائدة ٩١.

(٤) سورة الأنعام ١١٢.

نعم يجوز الدفاع عن النفس والمال والعرض ، وقد يجب ، وفي كل آية من القرآن تجد مفهوماً ودلالة على لزوم والألفة والمودة بين المسلمين ، ويتجلى معها مصداق لقوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَفَّا بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(١) فمثلاً بخصوص الآية السابقة ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ...﴾^(٢) هناك وجوه :

الأول : تفضل الله عز وجل على المؤمنين بالמן والطول ليتلقوه على

وجوه :

أولاً : العموم الإستغراقي الشامل للمسلمين بعرض واحد .

ثانياً : العموم المجموعي إذ يأتيهم المن كأمة واحدة ومجئ المن بهذه الكيفية من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣).

ثالثاً : العموم الإفرادي بأن يأتي المن لكل مسلم ومسلمة على نحو القضية الشخصية .

والمن الإلهي سور الموجبة الكلية الواقية للمسلمين من الفرقة والاختلاف، ولولاه لما بقي المسلمون في الحال الكريمة التي هم عليها .

الثاني : نعت الآية السابقة المسلمين بالمؤمنين بقوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وفيه مسائل :

الأولى : الأصل في الإيمان الأخوة والألفة والمودة .

الثانية : دعوة المسلمين لحل أسباب النزاع بصيغ الإيمان .

الثالثة : نفرة المسلمين من الفرقة والخلاف بينهم .

(١) سورة آل عمران ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران ١٦٤.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

الرابعة : تنمية ملكة الإيمان للإلتقاط في الحاجات إلى الله عز وجل والنتزه عن زينة الدنيا التي هي أصل الفتن بين الناس .

الخامسة : دعوة المسلمين لشكر الله عز وجل على نعمة الإيمان، بنبذ الخصومات بينهم .

السادسة : ترشح التقوى والخشية من الله عز وجل من الإيمان ودعوة المسلمين للتنافس في سبلها ، قال تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١).

السابعة : نعت المسلمين بصفة المؤمنين بشارة للجزاء الحسن والفوز بالجنة في الآخرة .

الثالث : الثناء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإخبار الآية عن كون نبوته مناً وطولاً من عند الله ، ولابد أن يتلقى المسلمون هذه النعمة بالشكر لله عز وجل ، ومن أبهى مصاديق الشكر في المقام تنزه المسلمين عن الفرقة والخصومة والنزاع فيما بينهم .

الرابع : لم تقل الآية بعث لهم إنما قالت بعث فيهم ، وفيه ثناء على المسلمين بحضور النبوة بينهم وفيهم ، وهي واقية من الفرقة والشقاق لأنها فيصل وحكم .

لقد دعا الله عز وجل المسلمين إلى إجتنب الفرقة ، ويتجلى مصداق هذا الإجتنب باللجوء إلى القرآن والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وستته ، قال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢).

والأمة التي يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم حاضراً بها بشخصه لا يقع فيها شقاق ، ولا تكون طوائف وأحزاباً ومذاهب ، والإجماع على أن المذاهب أمر حادث في الإسلام ، ولم يكن في زمن الصحابة أو التابعين وعند التحقيق فيه يتجلى قانون من جهات :

(١) سورة الحجرات ١٣.

(٢) سورة الحشر ٧.

الأولى : إنتفاء الأصل للمذاهب المتعددة في الإسلام سواء الفقهية أو الكلامية ، وقد إنشغل المسلمون في حقبة من الزمان أيام الخلافة العباسية بفتنة خلق القرآن ، وهو من مصاديق قولنا بانتفاء الأصل لها .

الثانية : عدم الحاجة إلى المذاهب في الإسلام وبامكان المسلمين الإستغناء عنها .

الثالثة : قد يكون الضرر الذي يأتي من المذاهب أحياناً أكثر من نفعها ولكن النفع هو الأعم لما فيها من بيان ووحدية الأحكام ، خاصة وأنها لم تخرج عن الكتاب والسنة ، ولا تعدو أن تكون رواية وإجتهداً وضبطاً .

الرابعة : هناك من أصحاب المذاهب من يكون بين طبقته أو نحوها من هو بدرجته أو أفقه منه ، ولم يطرأ على ذهنه أنه ينال معشار هذه المنزلة عند أجيال المسلمين .

الخامسة : في القرآن والسنة كفاية وغنى عن تعدد المذاهب .
ومع هذا فيجب ألا تكون المذاهب طريقاً للخلاف والشقاق ، ولا يصح تكفير المسلم الذي ينطق بالشهادتين ويستقبل القبلة في الصلاة اليومية ، أو رمية بكلمات وأوصاف قبيحة .

لقد أخبرت الآية السابقة عن من الله عز وجل على المسلمين برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي هي جامعة مانعة ، جامعة للأحكام الشريعة ، وكافية في أمور العبادات والمعاملات والأحكام ، ومانعة من الفرقة والشقاق .

الخامس : بيان الآية السابقة لقانون وهو نسبة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمؤمنين أنفسهم لتأكيد إتحاد السنخية والتشابه في عالم الفعل وان المسلم كفؤ ونظير لأخيه المسلم فلا يدب الشقاق والبغضاء بينهم .

وهل في الآية دعوة للمسلمين للجوء إلى الكتاب والسنة عند الخلاف ،
الجواب نعم ، قال تعالى ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ
إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (١) .

السادس : لقد أنعم الله عز وجل على المسلمين بنعمة لم تنلها أمة
أخرى ، بأن يتلو عليهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم آيات القرآن ،
وهو من أسرار استبشار الملائكة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
كما ورد في حديث الإسراء ، وإنفراد المسلمين بهذه النعمة من جهات :
الأولى : نزول آيات القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
ولم تنزل من قبله على أحد من الأنبياء والرسل .

الثانية : تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لآيات القرآن .
الثالثة : تلقي المسلمين آيات القرآن من في رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم .

الرابعة : سلامة القرآن من التحريف والزيادة والنقص والتبديل وإلى
يوم القيامة .

ويتلقى كل جيل من المسلمين آيات القرآن ، وكأن رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم يتلوها عليهم ، وتقدير الآية بلغة الخطاب لكل جيل منهم
لقد من الله عليكم أيها المؤمنون إذ بعث فيكم رسولاً من أنفسكم يتلو
عليكم آياته ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة وإن كنتم من قبل لفي
ضلال مبين .

الخامسة : لم تنزل وتقرأ مثل آيات القرآن على أمة مثل المسلمين .
السادسة : ليس من أصحاب نبي بهذه الكثرة التي كان عليها أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد غادر الدنيا إلى الرفيق الأعلى
وكان عدد الصحابة مائة وأربعة عشر ألفاً ، رواه الخطيب البغدادي في
الجامع .

وقطع السيوطي في كتاب الخصائص الكبرى بأن عددهم هو مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، ولم يقع إقتتال بين الصحابة مع كثرة عددهم واجتماع أكثرهم في المدينة بأزقتها الضيقة .

إن قوله تعالى ﴿رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾^(١) حجة من عند الله لسلامة المسلمين من الشقاق والإقتتال ، فاذا ما إنصرف الإقتتال ومقدماته عنهم فانما هو بفضل الله عز وجل وإخباره بأنه بعث إليهم رسولاً من أنفسهم يعالج خلجات نفوسهم ويزجرهم عن التباغض والتحاسد والتنافر (عن أبي صالح الحنفي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله رحيم ولا يضع رحمته إلا على رحيم . قلنا : يا رسول الله كلنا نرحم أموالنا وأولادنا . قال : ليس بذلك ولكن كما قال الله { لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم }^(٢))^(٣) .

وما يتصف به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الرأفة من مصاديق قوله (أدبني ربي فأحسن تأديبي)^(٤) .

وفيه دعوة للمسلمين للتحلي بالرأفة فيما بينهم وان يرفق بعضهم ببعض .
السابع : لقد وصفت آية البحث النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بأن يذكى المسلمين بقوله تعالى ﴿يُذَكِّيهِمْ﴾ ولا يقدر أحد على تزكية أمة في أقوالهم وأفعالهم وفي سرائر نفوسها إلى الله عز وجل .

مما يدل على أن هذه التزكية بمدد وعون من عند الله لذا ذكرت الآية أموراً :

الأول : بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة الخاتمة .

(١) سورة آل عمران ١٦٤ .

(٢) سورة التوبة ١٢٨ .

(٣) الدر المنثور ٢٠١/٥ .

(٤) الكشف والبيان للثعلبي ٣٣٢/١٣ .

الثاني : نيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مرتبة الرسالة السامية، وبين النبي والرسول عموم وخصوص مطلق ، فكل رسول هو نبي وليس العكس .

الثالث : تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم آيات القرآن .

الرابع : تعيين المسلمين في تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو لم يقرأها لنفسه ، إنما يتلوها عليهم ليعملوا بها ، ثم جاء قوله تعالى ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ لبيان أن التزكية بلحاظ القانون محل البحث وهو قانون دعوة الآية لنبد الفرقة والقتال بين المسلمين على وجوه :

أولاً : تهذيب بواطن وقلوب المسلمين من الغش والأخلاق المذمومة كالخسد والحقد والكراهية .

ثانياً : تنزه المسلمين عن إتياع الهوى ، وترفعهم بالكتاب والسنة عن فعل المعاصي وإرتكاب السيئات ، قال تعالى ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى﴾^(١).

ثالثاً : بلوغ المسلمين مراتب السمو والشرف.

رابعاً : عصمة المسلمين والمسلمات من الفتن وشروخ البغاة.

خامساً : إتحاذ المسلمين التعليم والتفقه منهاجاً وسيرة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢).

سادساً : إرادة الثواب العظيم للمسلمين ، قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(٣).

وفي الآية أعلاه دعوة للمسلمين للإقتباس من الكتاب والسنة والتقيد بأحكام الشريعة ، وفيه واقية من المصيبة والضرر الخاص والعام.

(١) سورة النساء ١٣٥.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

(٣) سورة الشمس ٩.

ردود كريمة على بعض الأجزاء الأخيرة من هذا السفر المبارك

- ١- سماحة الإمام شيخ الأزهر.
- ٢- سماحة العلامة الشيخ أ.د. مفتي جمهورية مصر العربية.
- ٣- الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي.
- ٤- وزارة التعليم العالي والبحث العلمي / جمهورية العراق.
- ٥- الأمين العام لإتحاد المؤرخين العرب.
- ٦- سعادة أ.د. مدير جامعة الملك فيصل / المملكة العربية السعودية.
- ٧- سعادة أ.د. مدير جامعة كردفان / الجمهورية السودانية.
- ٨- سعادة أ.د. مدير الجامعة الإسلامية / المدينة المنورة.
- ٩- سعادة أ.د. رئيس الجامعة العراقية.
- ١٠- سعادة أ.د. رئيس جامعة ذي قار / العراق.
- ١١- سعادة أ.د. رئيس جامعة جدارا / المملكة الأردنية الهاشمية.
- ١٢- سعادة أ.د. مدير جامعة الأمير عبد القادر / الجمهورية الجزائرية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر
مكتبة الإمام الأكبر
شيخ الأزهر

٢٩ / ٥
٨ / ٤ / ٢٠٠٨

السيد صاحب الفضيلة المرجع الديني الشيخ/صالح الطائي
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد،.....

فلقد تلقيت بحمد الله رسالتكم الرقيقة وبها الجزء الحادي
والخمسون في تفسير آية واحدة من سورة آل عمران من القرآن الكريم.
نتضرع إلى الله العلي القدير أن يلممكم العلم النافع وان يجعله
في ميزان حسناتكم.
وشكر الله لكم حسن عملكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شيخ الأزهر

مختصا

١٥
٢٠

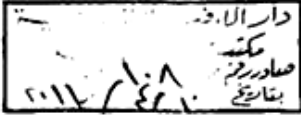
في ١٣ من صفر ١٤٢٩ هـ

(الدكتور/ محمد سيد طنطاوي)

الموافق: ٢٠ من فبراير ٢٠٠٨ م

مصطفى عباس

بسم الله الرحمن الرحيم

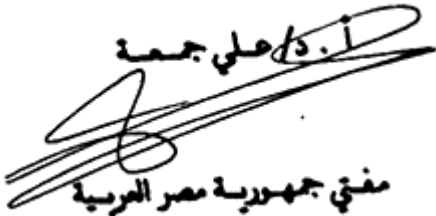


المرجع الديني الشيخ/صالح الطائي

صاحب أحسن تفسير للقرآن وأستاذ الفقه والأصول والتفسير

والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد،
فإنه ليسعدني أن أتقدم لسيادتكم بخالص الشكر والتقدير
والإحترام على تفضلكم بإهدائنا نسخة من من الجزء الثاني
والثمانين.
وأتمنى من الله أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية وأن يسبغ
عليكم نعمه ظاهرة وباطنه وان يوفقنا لما يحبه ويرضاه.
شاكرين لكم، ولكم تحياتي

أ. د. علي جمعة

مفتي جمهورية مصر العربية

ORGANISATION OF ISLAMIC COOPERATION
GENERAL SECRETARIAT

ORGANISATION DE COOPERATION ISLAMIQUE
SECRETARIAT GENERAL



OIC/CAB-01/2012 001010

جدة في: 23 FEB 2012

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي حفظه الله ورعاه
صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...وبعد،

فقد تسلمنا بيد الشكر والتقدير نسخة من كتاب "معالم الإيمان في تفسير القرآن" الجزء التسعون- الآية ١٣٤ من سورة آل عمران، والذي تفضلتم بإهدائه إلى معالي البروفسور أكمل الدين إحسان أوغلي، الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي، ويشرفنا أن نتقدم إليكم بجزيل شكرنا على جهودكم المتواصلة لتفسير أي الذكر الحكيم، فجزاكم الله عنا خير الجزاء وبارك فيكم وفيما تقومون به من جهد مبارك خدمة للإسلام والمسلمين.

وتفضلوا بقبول وافر الشكر والتقدير.



مستشار الأمين العام





Republic of Iraq

Ministry of Higher Education & Scientific Research

Minister office

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



جُمْهُورِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةِ
وَزَارَةُ التَّعْلِيمِ الْعَالِي وَالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ
مَكْتَبُ الْوَزِيرِ

No :
Date:

العدد : ١٥٨ / ٣ / ٢٠١٦
التاريخ : ٢٠١٦ / ١١ / ١٨

الشيخ محمد الشيخ صالح الطائي المحترم
مدير مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي صاحب أحسن
تفسير للقرآن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...
يسرنا أن ننقل لكم شكر معالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي
إهدائكم الجزء (الأربعين بعد المائة) من التفسير (معالم الإيمان في
تفسير القرآن)).
وإذ يثمن لكم هذه المبادرة ويبارك جهودكم المتميزة يتمنى لكم
دوام الموفقية والنجاح لما فيه خدمة بلدنا العزيز .

ومن الله التوفيق



أ.م.د. سعد سابط العطراني

مدير المكتب

١٠ / تشرين الأول / ٢٠١٦



إلى / سماحة المرجع الديني للمسلمين الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

وأسال الله تعالى ان يوفقكم ويحفظكم ويرعاكم انه سميع مجيب الدعاء.
تسلمنا مع بالغ الشكر والتقدير الجزء الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر بعد المائة من كتابكم الموسوم (معالم الإيمان في تفسير القرآن) وأقول في هذا الكتاب بانه يعبر عن جهد كبير مبذول في اناء الليل واطراف النهار، ويعبر عن تعب كبير، لا يمكن أن يوصف بعبارة أو جملة معينة، فهو جهد العلماء المخلصين الصابرين الصادقين مع الله تعالى ومع النفس، ويعبر عن مجرى من التدفق العلمي الموثوق والمأمون والخالد، الذي يعود بنا الى ذكريات الماضي الخالد لعلماء الأمة في تأريخها المجيد، فقد عبرتم فيه اصدق تعبير عن سيرة العلماء المسلمين الذين يتميزون بالأمانة والثقة والثبات في علمهم ومسيرتهم الخالدة، وانني إذ أؤكد اعجابي الكبير في هذه الأجزاء، وإنني ادعو الله تعالى ان ينعم عليكم بالعافية والصحة التامة، من أجل ان يستمر هذا التدفق العلمي الكبير في هذا الزمان الذي شح فيه نتاج العلماء والمجتهدين لخدمة تراث وتاريخ امتنا، وخدمة ديننا الحنيف ان الله تعالى سميع مجيب الدعاء.



والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الأستاذ الدكتور محمد جاسم المشهداني
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب
العميد/رئيس الهيئة العلمية لمعهد التاريخ العربي
والتراث العلمي للدراسات العليا



KINGDOM OF SAUDI ARABIA
Ministry of Higher Education
KING FAISAL UNIVERSITY
(037)



الجامعة العربية
وزارة التعليم
جامعة الملك فهد
(٠٣٧)

الموضوع:

فضيلة الشيخ/ صالح الطائي الموقر

مكتب المرجع الديني وصاحب أحسن تفسير للقرآن

وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

ص.ب - ٢١١٦٨ مملكة البحرين

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد

تلقيت بكل الثناء والتقدير خطاب فضيلتكم رقم ١٦/١٨٦١ وتاريخ ٢٠١٦/٥/٢٠م المرفق طيه نسخة من كتاب بعنوان "معالم الإيمان في تفسير القرآن" الجزء الثاني والثلاثين بعد المائة.

يطيب لي ويسعدني أشكر فضيلتكم جزيل الشكر على إهتمامكم المتواصل بتزويد إدارة الجامعة بهذه النسخة ، وستحال إلى مكتبة الجامعة للإطلاع عليها، سائلاً المولى جلت قدرته للجميع التوفيق والسداد.

وتقبلوا خالص تحياتي وتقديري،،،

مدير الجامعة

د. عبدالعزيز بن جمال الدين الساعاتي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة كردفان UNIVERSITY OF KORDOFAN

Our Ref:
Date:

مكتب المدير
Vice Chancellor Office

ج ك / م / ١٧ / ح / ٣ ..
2016/8/16 م

السادة / مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تهديكم جامعة كردفان أطيب التحايا ، وتغمرنا السعادة بالإصدارات التي تتوالى إلينا بانتظام من مكتب المرجع الديني في (معالم الإيمان في تفسير القرآن) والذي كان آخر هذه الإصدارات (الجزء السادس والثلاثين بعد المائة) والذي تشرفنا بإستلامه بموجب خطابكم رقم ١٦/١٥٣٥ الصادر في ٢٠١٦/٧/١٣ م، وذلك إثراءاً للمعرفة في مجال تفسير آيات القرآن، خدمة للباحثين والمهتمين بأمر التفسير القرآني، والتي أضحت متاحة في الأقسام المختصة بالمكتبات الأكاديمية في الجامعات ومراكز البحوث وجامعة كردفان تحظى بأعداد وافرة منها في مكتبها المركزية.

ختاماً لكم الشكر والعرفان على هذا الصنيع، نفعنا الله به، وأثابكم عليه خير الجزاء .

وتفضلوا بقبول فائق عبارات التقدير والإحترام

أ.د. أحمد عبدالله عجب الدور

مدير الجامعة



الرقم ١١٤٦٠ / ٧ / ٦٥٢
التاريخ ١٤ / ٢ / ١٤٣٧ هـ
الترقيات
الموضوع



الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
وزارة التعليم العالي
مكتب المنهج
(٠٣٢)

سلمه الله

معالي الشيخ/ صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،، وبعد

فأسأل الله لمعاليتكم العون والتوفيق، ويسرني إفادتكم بأني تلقيت بكل تقدير وإمتنان إهداءكم للجامعة نسخة من الجزء التاسع بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن).

وإنني إذ أقدم لمعاليتكم بخالص الشكر والعرفان على هذا الإهداء، لأدعو الله العليّ القدير أن يمدكم بعونه وتوفيقه، وأن يسدد خطاكم ويكمل أعمالكم بالنجاح إنه سميع مجيب يحفظكم الله ويرعاكم.

ولكم تميّاتي وتقديري

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مدير الجامعة الإسلامية

أ. د / عبدالرحمن بن عبدالله السند

MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
& SCIENTIFIC RESEARCH
THE IRAQIA UNIVERSITY
THE PRESIDENT OFFICE OF UNIVERSITY



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة العراقية
مكتب رئيس الجامعة

NO.:

DATE: / / 201

العدد : ٢٩٢ / ١
التاريخ : ٢٠١٦ / ٤ / ١٠ م
١٤٣٧ / ١ / ١٠ هـ

المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن

تحية طيبة...

نشكر مبادرتكم الطيبة بإهداءكم لنا نسخة من كتابكم الموسوم الجزء
الثلاثون بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) سائلين الباري عز
وجل أن يوفقكم في مسيرتكم العلمية والعملية خدمة لبلدنا العزيز.
ومن الله التوفيق...

أ.د. علي صالح حسين

رئيس الجامعة العراقية

٢٠١٦ / ٤ / ١٠ م



العدد: ٦٨٩٩ / ٥٤ / ٧

التاريخ: ٢٠١٦ / ٦ / ٨

إلى / مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي

صاحب أحسن تفسير للقرآن

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا...

باعتراز بالغ واعجاب شديد بالجهود الكبيرة لسماحة آية الله
العظمى الشيخ صالح الطائي (دام ظله) في تفسير كتاب الله
العظيم من خلال تلقينا اهداءكم المبارك للجزء (١٣٢، ١٣٣،
١٣٤) من معالم الإيمان في استظهار كنوز من كتاب الله المجيد ،
سائلين المولى عز وجل ان يوفق الشيخ الجليل لما فيه خير الدنيا
والآخرة وخدمة الإسلام والمسلمين .

والله اعلم
بما نزل به الرسل من ربهم

أ. د. رياض شنته جبر
رئيس جامعة ذي قار
٢٠١٦ / ٦ / ٨

Jadara University

Office of the President



جامعة جدارا

مكتب الرئيس

Ref.

Date

الرقم ١١١١٠٨١٤٠ / ١٤٤٢

التاريخ ١٦ / ٥ / ٢٠٢٢ م

الموافق ٥ / ٥ / ١٤٤٢ هـ

سيادة الأّم الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم

وأستاذ الفقه والأصول والأخلاق

بكل فخر واعتزاز تلقيت رسالتكم الموقرة التي تحمل العدد (٥٣٢) تاريخ ٢٦/٥/٢٠١٢م، ومرفقها الجزء التسعون من التفسير في الآية (١٣٣) من سورة آل عمران.

وانني إذ أشكركم جزيل الشكر وعظيم الإمتنان على اهدائكم هذا، سائلاً المولى عز وجل أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية، وأن يجعلكم سنداً وذخراً للأمة الإسلامية متمنياً لكم كل التقدم والإزدهار.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس الجامعة

أ. د محمد الطعانه

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

رئاسة الجامعة



فستبنة في: 25/03/2015

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
قسنطينة

رقم: .. / ر.ج. / 2014

إلى السيد المحترم / الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن
مكتب المرجع الديني

تحية طيبة وبعد :

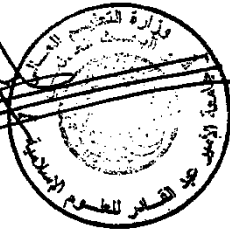
تلقينا نحن أ.د. / عبد الله بو خلخال مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، هديتكم القيمة المتمثلة في كتاب (معالم الإيمان في تفسير القرآن) الجزء الثالث عشر بعد المائة.

وإذ نعبر لكم عن شكرنا على هذه الإلتفاتة الكريمة، نهديكم نحن بدورنا نسخة من مجلة الجامعة العدد ٣٣ ونسخة من نشرة أخبار الجامعة.

تقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

مدير الجامعة

أ.د. عبد الله بو خلخال
مدير الجامعة



المحتويات

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
ثناء الله على نفسه في الآية	١٩٠	المقدمة	٣
الآية رحمة	١٩٢	الآية (١٦٥)	١٩
بحث بلاغي	١٩٥	الإعراب واللغة	٢٩
الحاجة إلى آية البحث	١٩٧	سياق الآيات	١٦٣
حاجة الناس إلى آية البحث	١٩٩	اعجاز الآية الذاتي	١٦٧
أسباب النزول	٢٠٥	اعجاز الآية الغيري	١٧٩
الصلة بين أول وآخر الآية	٢٠٧	الآية سلاح	١٧١
□ من غايات الآية	٢١٠	مفهوم الآية	١٧٤
تفسير ﴿أَوَلَمْ أَصَابْتُكُمْ	٢١٣	الآية لطف	١٧٨
مُصِيبَةً﴾		إفاضات الآية	
علم المناسبة	٢١٦	الآية بشارة	١٨١
قوله ﴿قَدْ أَصَبْتُكُمْ مِثْلَهَا﴾	٢١٧	الآية انذار	١٨٣
شأيب بين بدر وأحد	٢٢٥	الآية موعظة	١٨٥

المحتويات

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٣٤	مقارنة بين معركة بدر وأحد	٢٥٨	قانون الوقاية من الحسد
٢٤٢	قانون معرفة أوان نزول الآية القرآنية	٢٧٩	بيت العنكبوت وصلته بأية البحث
٢٤٤	قوله تعالى ﴿قُلْتُ أَنِّي هَذَا﴾	٢٨٥	قانون فتح مكة حاجة
٢٤٧	قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ مِنِّي عِنْدِ أَفْسِكُمْ﴾	٢٩٢	قانون دعوة الآية القرآنية لنبد الفرقة والقتال بين المسلمين
٢٥٠	قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	٣٠٢	ردود كريمة
٢٥٤	قانون مصاديق الإيمان	٣١٥	الفهرس

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٢٥٩ لسنة ٢٠١٧